الموانئ البحرية الحجازية

من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي
(البعثة /٦١١م ـ ٩٢٣هـ/١٥١٧م)
ـ دراسة تاريخية حضارية ـ

تأليف
الدكتور /محمد بن حسين الحارثي الشريف

تكوين
COMBINATION
دار تكوين للنشر والتوزيع
TKWEEN 2022

الموانئ البحرية الحجازية

من البعثة النبوية
إلى نهاية العصر المملوكي

(البعثة/ 611م - 923هـ/ 1517م)

دراسة تاريخية

تأليف
الدكتور/ محمد بن حسين الحارثي الشريف
مكة المكرمة

الطبعة الثانية
1443هـ/ 2022م

بسم الله الرحمن الرحيم

أصل الكتاب

رسالة علمية نال عليها الباحث
درجة الماجستير في التاريخ
الإسلامي
من جامعة أم القرى بمكة المكرمة
بتقدير ممتاز.

مقدمة الطبعة الثانية

مؤلفاتي وبحوثي
ذريتي الطيبة وإرثي المبارك

الحمد لله الذي باسمه تجري السفن في البحار وباسمه ترسو، والصلاة والسلام على صاحب الوجه الأنور، والجبين الأزهر، والشفيع المُشفع يوم المحشر، النبي محمد الهاشمي الأغر.

انطلاقاً من رؤيتي الخاصة أن مؤلفاتي هي ذريتي الطيبة، وإرثي المبارك، أقدم لقراء العربية، وطلاب العلم والمعرفة الرصينة؛ كتابي هذا (الموانئ البحرية الحجازية..) دراسة تاريخية حضارية على مدى عشرة قرون تقريباً، خُضْتُ فيه وأنا المكي، لُجَةّ بحر الحجاز، وسبر أغوار موانئه الثرية بالأحداث مقبلة ومدبرة بين ضفتيه الغربية والشرقية.

فكانت طبعته الأولى عن طريق جامعة أم القرى وكرسي الملك سلمان لدراسات تاريخ مكة المكرمة التابع لدارة الملك عبد العزيز التاريخية بالرياض، فكان الإصدار رقم (16) للكرسي.

أما الطبعة الثانية هذه التي بين يدي القارئ؛ فقد اتسمت- بفضل الله- بمزيد من الفصول والمعلومات الموسعة التي هي من صلب الرسالة العلمية أساساً، ولكنها لم تُدرج في الطبعة الأولى، كالهجرات العربية، ومواطن ومنازل القبائل العربية في مصر والسودان والحبشة، ودور تلك القبائل في انتشار الإسلام واللغة العربية، ودورها كذلك في التجارة والسياسة، من ثم إقامة الإمارات الإسلامية في شرقي أفريقية؛ حيث قامت سبع إمارات وسلطنات إسلامية في القرن الإفريقي، سُميت بدول الطراز الإسلامي لأنها شكلت ما يشبه الطراز على ساحل البحر الأحمر.

أرجو أن يجد القارئ الكريم في مادة هذا الكتاب ما يفيده ويسره، وتشكل مادة الكتاب مناراً يهتدي به الباحثين لمزيد من الدراسات حول بحر الحجاز خاصة، والبحر الأحمر عامة.

والله ولي التوفيق...

مُقدِّمة

الحمد لله رب العالمين الذي جعل الحجاز ومكة البلد الأمين **موطناً وسكناً** لنا ولأجدادنا الأقدمين، والصلاة والسلام المباركان العاطران الدائمان إلى يوم الدين على شفيع الأمة ونبي الرحمة الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين نبينا وسيدنا محمد بن عبد الله الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي سعدت الحجاز بوطء قدميه الشريفتين عليها في سهولها وجبالها وبراريها، وعلى آله وصحبه الأكرمين الذين وفقهم الله لاتباع الحق المبين.

أما بعد:

فيقول المولى تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[القصص، آية 57].

ويقول سبحانه وتعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت، آية 67]. هذا هو البلد الأمين مكة المكرمة. حرسها الله سُرّة الحجاز وقاعدته، أما طيبة الطيبة فهي دار هجرة المصطفى وهي حرم آمن، كما قال نبينا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم «إنها حرم آمن»(1) رواه مسلم.

وما أحاط بالمدينتين المقدستين فهو ملحق بهما، بقول الإمام الشافعي رحمه الله في كتابه «الأم» ما نصه: «لا يمنع أهل الذمة من ركوب بحر الحجاز. أي على سبيل العبور. ويمنعون من المقام في سواحله، وكذا إن كانت في بحر الحجاز جزائر وجبال تسكن، مُنعوا من سكناها، لأنها من أرض الحجاز»(2).

(1) صحيح مسلم بشرح النووي رقم 479. (1375)، كتاب الحج، باب الترغيب في سكنى المدينة، حققه: عصام الصبابطي وآخرون، الطبعة الأولى، 1415هـ، 1994م، دار الحديث، القاهرة، ج5، ص162.

(2) محمد بن إدريس: الأم، تصحيح محمد زهري النجار، الطبعة الثانية، 1393هـ.1973م، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ج4، ص178،177.

وبما أن موانئ الحجاز منه فقد عقدت العزم على خوض لُجْة بحر البحث والدراسة في تاريخ بحر الحجاز، مجدًّاً في طلب فريد المعلومات، تارة أغوص، وتارة أسبح، لم يقرلي قرار؛ ولم يقصرعن طرح شباكي ذراع؛ ولا يُطوى لسفينتي شراع، وكلما هاجمني الملل؛ تدافعت عليّ رياح الأمل، حتى دخلت في بحرعجاج متلاطم الأمواج، فاقتحمت هذا المركب الصعب، وصلت وجلت بين الموانئ والجزائروالشُعب، وفي أذني يتردد قول الرحمن جل وعلا: ﴿وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ٤١﴾ [سورة هود، الآية 41]. فكان من تمام توفيق الله لي أن استوت سفينتي على الجودي و انحلت متاعبي وهمومي وطفقت مبادراً بطرح شباكي، فإذا هي قد مُلئت بأصداف الجواهروالدررواللآلئ، وهأنذا أنثرها أمامكم، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

وجعلت عنوان دراستي: الموانئ البحرية الحجازية من البعثة النبوية إلى نهاية العصر المملوكي «دراسة تاريخية حضارية».

أهمية الموضوع:

ومن دواعي وأسباب اتخاذي هذا الموضوع التالي:

أولاً: الموانئ الحجازية منافذ للأراضي المقدسة سياسية واقتصادية واجتماعية. «فالميناء» يستعمل للمدينة القائمة على شاطئ البحر.[1] وقد كانت موانئ الحجاز البحرية منافذ عبور لنشر الدعوة الإسلامية إلى شرق القارة الإفريقية وغيرها، كما كانت هذه الموانئ منافذ أحداث تاريخية متعددة بدءاً من تنقل الولاة والأمراء والجيوش، ومروراً

(1) لويس معلوف وآخرون، المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، دار المشرق، بيروت، ص70.

بالنزاعات السياسية والأحداث التاريخية، وأيضاً كانت الموانئ سداً مانعاً بأمر الله عز وجل أمام هجمات الصليبيين وأحفادهم البرتغاليين في القرن العاشر الهجري.

كما كانت لها أهميتها الاقتصادية فعن طريقها تُجبى إلى الحرمين الشريفين ثمرات كل شيء مما ينفع الناس. أما في الجانب الاجتماعي فالموانئ ملتقى حجاج بيت الله الأول إلى الأراضي المقدسة، ومعبراً ومستقراً لعدد من العلماء والأدباء والرحالة على مدار التاريخ الإسلامي.

ثانياً: الموانئ الحجازية تعتبر حلقة وصل مهمة بالقارتين الإفريقية والأوروبية، وكذلك بالبلاد الأسيوية المطلة على المحيط الهندي.

فمن موانئ الحجاز عبرت الهجرات الأولى إلى الحبشة، ومن موانئه يعبر الحجاج قادمين إلى الحرمين الشريفين وعائدين إلى أوطانهم في إفريقيا وأوروبا وآسيا، ومن ثغوره عبر أبناء الحجاز والجزيرة العربية إلى أفريقيا وآسيا وأوروبا دعاة وفاتحين وحكاماً وعلماء وطلاباً للعلم وتجاراً.

ثالثاً: قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٤﴾ [النحل، آية 14].

فللبحر الأحمر بجزره التي تقدر بنحو ثلاثمائة وتسع وسبعين جزيرة(1) [حسبما ورد في الخريطة التفصيلية التي أعدتها الأدميرالية البريطانية في عام 1952م]، وموانئه المتعددة أهمية كبيرة في إمكانية قيام ملاحة بحرية لصناعة رجال البحر وفرسانه، وقيام صناعة لسفنه وأدواته المختلفة، وإعداد جيل من أبناء المسلمين يجيدون التعامل مع البحر، ويتمرسون على ذلك لحماية الأراضي المقدسة وخدمتها والذود عنها

(1) مصيلحي، محي الدين محمد: الوجود العربي والأفريقي في جزر البحر الأحمر عبر التاريخ، 1991م، مكتبة الأنجلو المصرية، ص7.

وخدمة حجاجها وزوارها ومعتمريها.

ولمزيد من تبيان أهمية الموضوع اقتطع بعض العبارات من كلمة لصاحب السمو الملكي الأمير سعود الفيصل[1] وزير خارجية المملكة العربية السعودية التي ألقاها في افتتاح ندوة البحر الأحمر بتاريخ 14/ 8/ 1405هـ ما يبين الأهمية القصوى للبحر الأحمر بموانئه الشرقية والغربية حيث قال: (إن أهمية البحر الأحمر تمتد جذورها إلى فجر التاريخ، حيث نشأت على جنبات هذا الطريق المائي أقدم الحضارات البشرية وأعرقها، كما انطلقت من المنطقة المحيطة به مشاعل النور والهداية الإلهية فكانت مهبط الرسل والأنبياء، ثم صارت مركز الإشعاع الحضاري والديني للمجتمع البشري بأسره. وترتب على جوهرية موقعه الجغرافي كطريق ملاحي يتوسط الشمال والجنوب والشرق والغرب أن اتجهت إليه الأنظار من كافة أرجاء المعمورة فأضحى عامل جذب للتنافس والتدخل الخارجي على مر العصور، وموقعاً للتنافس والصراعات الاقليمية والدولية، خاصة بين القوى السياسية التي تسعى إلى الهيمنة وبسط النفوذ)[2].

راجياً أن تكون هذه الأسباب والآراء قد أوضحت أهمية دراسة موانئ الحجاز تاريخياً وحضارياً.

وبعد اطلاعي على عدد من المصادر والمراجع التاريخية والجغرافية التي تحدثت عن تحديد الحجاز تبين لي أن هناك تفاوتاً كبيراً في تحديد الحجاز جغرافيًا من جهاته الأربع، إلا أنها تكاد تُرجح: (أن الحجاز يمتد من أيلة شمالاً إلى ما بعد السّرين جنوباً).

لذا سوف أقتصر في دراستي للموانئ الحجازية على الموانئ الواقعة بين هذين الحدين. ولأجل هذه الاسباب. اخترت الكتابة في موضوع الموانئ الحجازية

(1) توفي الأمير سعود الفيصل يوم الخميس 22 رمضان 1436 هـ الموافق 9 يوليو 2015م.
(2) ندوة البحر الأحمر: المملكة العربية السعودية، وزارة الخارجية السعودية، معهد الدراسات الدبلوماسية، طبع في ربيع الأول، 1406هـ، ص7.

البحرية.

منهج البحث

نظراً لطبيعة هذه الدراسة التاريخية الحضارية المتشعبة، فقد فرض موضوع البحث استخدام أكثر من منهج علمي، فقد استخدمت المنهج التتبعي الاستقرائي، والمنهج الوصفي لبيان وصف وتطور الأحداث المرتبطة بالموانئ والربط بينها، والمنهج التحليلي متبعاً في ذلك سمات المنهج العلمي الإسلامي المتمثل في:

1. استعمال الدليل والوثيقة بعد التأكد من صحتها.
2. حسن الاستدلال باتباع التنظيم والترتيب الملائم مع حسن العرض وتحرير المسائل.
3. الإيمان بكل ما دل عليه الكتاب والسنة.
4. الأمانة في استقصاء الأدلة مع الجمع والترجيح بين الروايات المختلفة وفقاً للقواعد المقررة مع الاستعانة بأقوال العلماء الثقات.
5. بيان المصادر والمراجع التي آخذ عنها مع الضبط المتقن في نقل الأقوال ونسبتها لأصحابها.
6. الاعتماد على النصوص الشرعية والحقائق العلمية وعدم الارتباط بالأوهام والطلسمات والظنون والتحرر من ذلك.
7. التجرد من الهوى والميل الذاتيين.
8. تحكيم اللغة والالتزام بقواعدها وبدلالة الألفاظ.
9. عدم قبول المتناقضات، وتقديم المبادئ على الرجال.
10. حسن الأدب مع كلام الله سبحانه وتعالى، ومع الأنبياء والعلماء، والابتعاد عن التجريح الشخصي، والاقتصار في النقد على بيان الأخطاء[1].

(1) محمد بن صامل السلمي: منهج كتابة التاريخ الإسلامي، الطبعة الثانية، 1418هـ، 1998م، مكة المكرمة، دار الرسالة العلمية، ص139.

والله سبحانه وتعالى أسأله التوفيق والسداد، وأن ينفع بدراستي هذه طلاب العلم والمعرفة في أقطاب المعمورة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفصل الأول

- تحديد إقليم الحجاز.
- الحجاز –مكانته وفضله.
- الثناء على أهل الحجاز.
- أهمية البحر الأحمر.

الحجاز:

مدخل:

ما أن يذكر الحجاز إلا وتتوق النفوس شوقاً إلى تلك الديار المقدسة.

فهو عند المسلمين في موقع القلب من الجسد؛ وموقع النون من العين، ففيه بيت الله الحرام وكعبته المشرفة، ومشاعر الحج، منى وعرفات ومزدلفة، وفيه مسجد المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم ومرقده الشريف.

وفي الجاهلية سارت بين شعابه وفي بطون أوديته رحلتا الشتاء والصيف، وفي الإسلام كان الحجاز محور الاهتمام ونقطة الارتكاز لكثير من الأحداث.

فأرضه استقبلت رسالة الإسلام الخالدة فنزلت آيات الذكر الحكيم، وترددت أحاديث النبي الكريم وجرت غزوات وسرايا نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

ومن الحجاز انطلقت رايات أصحاب محمد صلى الله عليه وآله وسلم لنشر دين الله الحق المبين، وإلى الحجاز يأرز الإسلام وأهله كما تأرز الحية إلى جحرها.

وسوف نتناول الحديث في هذا الفصل عن الحجاز من حيث تعريفه؛ وتحديده، وبيان مكانته، وفضله، وعن بحر الحجاز الذي تقع على شواطئه موانئ الحجاز التي هي موضوع الدراسة.

تحديد إقليم الحجاز

التعريف اللغوي:

في مادة حجز من «لسان العرب» قال: الحجز: الفصل بين الشيئين، حَجَزَ بينهما يحجز حجزاً فاحتجز؛ واسم ما فصل بينهما الحاجز. وقيل: الحجز أن تحجز بين متقاتلين، والحجاز الاسم، وكذلك الحاجز. ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾[1]

حاجزاً أي بمعنى حجازاً بين ماء مالح وماء عذب لا يختلطان. ويعنى الحجاز أيضاً في لغة العرب الحبل الذي يلقى للبعير من قبل رجليه، ثم يناخ عليه ثم يشد به رسغا رجليه إلى حقويه وعجزه، فيقال منه حجزت البعير أحجزه حجزاً، فهو محجوز.[2]

ويرى ياقوت أن الحجاز بكسر الحاء وآخره زاي، وينقل عن الانباري أن في الحجاز وجهين يجوز أن يكون مأخوذاً من قول العرب حجز الرجل بعيره يحجزه إذا شده شداً يقيده به، ويقال للحبل حجازاً، ويجوز أن يكون سمي حجازاً يحتجز بالجبال، يقال: احتجزت المرأة إذا شدت ثيابها على وسطها واتزرت.[3]

ومن هذا يتبين أن المعنى اللغوي للحجاز عند العرب يعني الفصل بين الشيئين، وهي كما ترى لا تختلف في مجملها ومؤداها عن الحجز والمنع والفصل وذلك ما ينطبق جغرافياً على الحجاز.

(1) سورة النمل آية رقم (61).

(2) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري: مادة حجز، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت، ج5، ص333.331.

(3) أبو بكر ابن يعقوب بن عبد الله شهاب الدين البغدادي الحموي الرومي: معجم البلدان، المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، 1397هـ.1977م، ص219.218.

التحديد الجغرافي:

نعرض فيما يلي جملة من الآراء لعدد من الفقهاء والجغرافيين والمؤرخين من المتقدمين والمتأخرين والمعاصرين. التي تحدد المقصود من الحجاز جغرافياً.

يرى الإمام الشافعي رحمه الله (ت 204) أن الحجاز مكة والمدينة واليمامة ومخاليفها كلها، ولا يحب دخول مشرك بلاد الحجاز، ولا يقيم الذمي أكثر من ثلاث ليال، لكنه لا يرى مانعاً من أن يركب أهل الذمة بحر الحجاز، ويمنعون من المقام في سواحله، وكذلك إن كانت في بحر الحجاز جزائر، وجبال تسكن منعوا سكناها لأنها من أرض الحجاز.[1]

ويذكر عرام السلمي (المتوفى في القرن الثالث الهجري) أن الحجاز من معدن النقرة[2] إلى المدينة، فنصف المدينة في رأيه حجازي ونصفها تهامي.[3]

وهو يشير بذلك إلى جزء من الحد الشرقي للحجاز في رأيه.

أما الهمداني (ت334هـ) فيرى أن جبل السراة من أعظم جبال العرب ويمتد من قعرة اليمن حتى أطراف بوادي الشام لذا أسماه العرب حجازاً لأنه حجز بين الغور (أي تهامة) وبين نجد، فصار ما خلف ذلك الجبل في غربيه إلى أسياف البحر من بلاد الأشعريين وعك وحكم وكنانة وغيرها، ودونها إلى ذات عرق[4] والجحفة، وما صاقبها وغار من أرضها، وأما ما احتجز به في شرقيه من الجبال وانحدر إلى ناحية فيد وجبلي طيء إلى المدينة وراجعاً إلى أرض مذحج

(1) الأم، ج4، ص178.177.

(2) معدن النقرة: من منازل درب الحاج العراقي وتقع بين الحاجر ومغيثة الماوان والربذة. انظر: البلدان لليعقوبي، ص312؛ المسالك والممالك لابن خرداذبة، ص127؛ نزهة المشتاق للإدريسي، ج1، ص163؛ المغانم المطابة في معالم طابه للفيروز أبادي، ص151 تعليق حمد الجاسر.

(3) كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها: تحقيق عبدالسلام هارون، الطبعة الأولى، 1373، مطبعة أمين عبدالرحمن، القاهرة، ص52.

(4) ذات عرق: عرق الجبل المشرف على ذات عرق، وهو الحد بين نجد وتهامة، وتقع ذات عرق في الضريبة، انظر البلادي: معجم معالم الحجاز، ج5، ص199، ج6، ص77.

من تثليث وما دونها إلى ناحية فيد حجازاً.[1]

ويحدد الإصطخري (ت340هـ) الحجاز بأنه ما كان من حد السرين على بحر فارس[2] إلى قرب مدين راجعاً في حد المشرق على الحجر إلى جبلي طيء ممتداً على ظهر اليمامة إلى بحر فارس فمن الحجاز.[3]

ونفس التحديد يراه ابن حوقل (ت367هـ) بالنص.[4]

وينقل البكري (ت487هـ) جملة من الآراء حول تحديد الحجاز ومنها أن ذات عرق فصل ما بين تهامة ونجد والحجاز، والحجاز: ما حجز فيما بين اليمامة والعروض، وفيما بين اليمن ونجد، كما أن الحجاز اثنتا عشرة داراً: المدينة، وخيبر وفدك، وذو المروة، ودار بلي، ودار أشجع ودار مزينة، ودار جهينة، ودار بعض بني بكر بن معاوية، ودار بعض هوازن، وجل سُليم، وجل هلال. وحد الحجاز الأول بطن نخل وأعلى رُمة وظهر حرة ليلى. والثاني مما يلي الشام: شغب وبدا. والثالث مما يلي تهامة وبدر والسقيا ورُهاط وعكاظ. والرابع مما يلي ساية وودان، ثم ينعرج إلى الحد الأول بطن نخل وأعلى رُمة. ومكة من تهامة، والمدينة من الحجاز.[5] وهو يشير بذلك إلى السراة. كذلك الحال بالنسبة لياقوت (ت626هـ) الذي يرى أن الحجاز يمتد من تخوم صنعاء من

---

(1) الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مكتبة الارشاد، صنعاء، الطبعة الأولى، 1410هـ. 1990م، ص85.

(2) إطلاق تسمية بحر فارس على البحر الأحمر من جملة تسميات أُطلقت على البحر الأحمر عند الاصطخري وابن حوقل والمقدسي؛ ويرى الأخير أن سببها أن أكثر صناع المراكب وملاحيها فيه كانوا فُرساً. مع العلم أن الجغرافيين الثلاثة من الذين عاشوا في القرن الرابع الهجري «العاشر الميلادي»، انظر المقدسي: أحسن التقاسيم، ج1، ص18.

(3) ابن إسحاق إبراهيم بن محمد: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحسيني، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1381هـ. 1961م، ص21.19.

(4) أبي القاسم النصيبي: كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الاول، مطبعة بريل، ليدن، 1938م، ص20.19.

(5) أبي عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق مصطفى السقا، الطبعة الأولى، 1364هـ. 1945م، القاهرة، ج1، ص11.9.

العبلاء وتباله إلى تخوم الشام، كما يذكر قولاً آخر أن فلسطين من الحجاز.(1)

ولابن المجاور (ت691هـ) رأي في تحديد الحجاز يلتقي فيه مع الإصطخري من أنه يمتد من السرين على بحر فارس إلى قرب مدين إلى حد الشرق على هجر إلى جبلي طيء ممتداً على ظهر اليمامة إلى بحر فارس من الحجاز.(2)

أما الفاسي فإنه يناقش الآراء حول تحديد الحجاز ويفند بعضها مثل القول أن نجران من مخاليف مكة مشيراً إلى أن نجران ليست من الحجاز وإن كانت من مخاليف مكة وينفي أيضاً أن تكون بلاد بَجيلة(3) من الحجاز. ويؤيد رأي الإمام الشافعي في تحديد الحجاز(4)

ولا يختلف رأي الحميري (ت900هـ) في تحديد الحجاز عن الهمداني أو البكري أو ياقوت، بل هو تكرار ونقل لأقوالهم.(5)

ويؤكد العياشي الذي حج عام (1074هـ) في رحلته أن العقبة هي (أول أرض الحجاز... فإن من هنالك تخالف الأرض ما قبلها وتباين الجبال ما سواها ويشتد شبهها بجبال الحجاز السود ويتقوى الحر وتسترمل الأرض)(6).

ويقدم السنجاري (ت1125هـ) تحديداً عاماً غير دقيق مدخلاً اليمامة واليمن ومخاليفها في الحجاز.(7)

(1) معجم البلدان، ج2، ص219.
(2) جمال الدين أبي الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد الشيباني الدمشقي: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة «تاريخ المستبصر»، طبع في ليدن، إبريل 1951م، تحقيق أو سكر لوفغرين، ص40.
(3) بلاد بجيلة: السراة الواقعة جنوب الطائف إلى تربة وتسمى ديار بني مالك، انظر البلادي: معجم قبائل الحجاز، الطبعة الثانية، دار مكة، 1403هـ، ص35.
(4) تقي الدين محمد بن أحمد: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الأولى، 1417هـ، مكتبة نزار الباز، ج1، ص72،69.
(5) محمد بن عبدالمنعم: الروض العطار في خبر الاقطار، تحقيق احسان عباس، الطبعة الثانية، 1984م، مكتبة لبنان، بيروت، ص164،163.
(6) عبد الكريم كريم: بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، مجلة التاريخ العربي، العدد الخامس، شتاء 1418هـ. 1998م، تصدر عن جمعية المؤرخين المغاربة، ص105.
(7) علي تاج الدين بن تقي الدين: منائح الكرم في تاريخ مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق جميل المصري، الطبعة الأولى، 1419هـ، ج1، ص205.

من خلال العرض السابق لأهم آراء المتقدمين من الفقهاء والجغرافيين والمؤرخين. في تحديد إقليم الحجاز، ورغم التفاوت الظاهر بين بعض الآراء في دقة التحديد إلا أن من المتفق عليه بينهم أن جبال السراة، تمثل الحجاز، من حيث الوصف الجغرافي، وتمتد من بادية الشام إلى تخوم اليمن، وينحصر مسمى الحجاز التاريخي من جنوب الطائف في السراة، والسرين في الساحل حتى العقبة وجبال الشراة في تخوم الأردن، وساحل البحر بين العقبة شمالاً والسرين جنوباً يسمى تهامة الحجاز وهو جزء منه وتقع مكة في تهامة والمدينة في الحجاز.

ويظهر الاختلاف كثيراً في الحد الشرقي إلا أن الرأي المتفق عليه أن شرقي السراة وما سال من ذات عرق شرقاً يسمى نجداً.

وفيما يلي عرض لأهم آراء المؤرخين والجغر افيين والفقهاء المتأخرين والمعاصرين:

يذكر فؤاد حمزة أن جبال السراة هي التي تقسم جزيرة العرب إلى قسمين شرقي وغربي، وهي محاذية لساحل البحر الأحمر من شمال مدين إلى اليمن، وقد سميت حجازاً لأنها حجزت بين ساحل البحر الأحمر وهو هابط عن مستواها وبين النجاد الشرقية المرتفعة بالنسبة إلى الساحل الغربي، وقد سمى القسم الهابط عن مستوى الحجاز إلى الغرب بتهامة، وسمي القسم الشرقي منه نجداً[1].

ويستعرض عمر رضا كحالة[2] مجموعة من التعاريف والآراء حول تحديد الحجاز جغرافياً.

فيقول: «الحجاز يقع في الناحية الشمالية الغربية من شبه جزيرة العرب وهو

(1) قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، 1388هـ، مكتبة النصر الحديثة، الرياض، ص17.
(2) جغرافية شبه جزيرة العرب، راجعه أحمد علي، الطبعة الثانية 1384هـ/ 1964م، مكتبة النهضة الحديثة، مكة، ص131.129.

إقليم مستطيل اختلف في حدوده السياسية باختلاف العصور والدول كما تعددت الأقوال في حدوده الطبيعية» وينقل رأياً لحافظ وهبه من أن الحجاز يمتد من معان ماراً برأس خليج العقبة إلى نقطة بين الليث والقنفدة على شاطئ البحر الأحمر، كما ينقل عن شرف البركاتي الذي يحدد الحجاز غرباً بالبحر الأحمر وشرقاً بالبادية الكبرى وجنوباً بلاد قبيلة بني مالك بجبل السراة ووادي دوقة على الساحل، وشمالاً من جهة البحر الأحمر العقبة.

أما أمين الريحاني فيوضح حدود الحجاز في جهة الغرب بالبحر الأحمر، وفي الشمال بالعقبة وفي الجنوب بالقنفذة وجبال عسير، أما في الشرق فيرى أنها مختلف عليها وغير معروفة تماماً في رأيه.[1]

ويرى صالح العلي أن القول بأن السراة هي الحجاز غير وافٍ ولا دقيق، فمن المعروف أن بعض أقسام السراة وخاصة ما كان فيها في الجنوب والشمال لا تسمى حجازاً وإن مسمى الحجاز يتركز في وسط السلسلة، وبعد عرض ونقاش لآراء المؤرخين والجغرافيين المتقدمين ينتهي إلى أن الرواة العرب أدركوا الأسس الجغرافية لتحديد الحجاز، فاعتبروه الحد الفاصل بين تهامة ونجد، غير أن التوسع في الجهة الشرقية كان متأثراً بالتنظيمات الإدارية في زمان كل مؤلف.[2]

ويقدم أحمد الشريف[3] تحديدًا للحجاز لعله أكثر وضوحاً، حيث يرى أن الحجاز في العرف لا يقتصر على الجبال الممتدة من خليج العقبة إلى عسير، بل يشمل تهامة. ويقدر المسافة من الشمال إلى الجنوب بـ سبعمائة ميل طولاً، ومائتين وخمسين ميلاً عرضاً. إلا إنه ينبغي الإشارة إلى أن هذه الأطوال قد تتفاوت من موقع إلى آخر بحسب قرب الجبال وبعدها عن البحر، ويشمل القسم الشمالي من الحجاز في رأيه أرض مدين «وحسمي»، وهي الجبال

(1) كحالة: جغرافية شبه جزيرة العرب، ص131.129.
(2) انظر: الحجاز في صدر الإسلام، الطبعة الأولى، 1410هـ. 1990م، مؤسسة الرسالة، بيروت، ص73.61.
(3) الحجاز قبيل ظهور الإسلام، بحث في ندوة دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث، الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدون، جامعة الملك سعود، 1410/ 1989، ج1، ص19.

الواقعة شمال تبوك مما يلي أيلة «العقبة».

ويرى العلاّمة الشيخ عاتق البلادي[1] أن أوسط الأقوال في تحديد الحجاز أنه يمتد من الشراة في الأردن إلى حَلِي، وتثليث، وجرش جنوباً، وتدخل فيه تهامة الممتدة من حلي إلى العقبة، ومن الشرق ينتهي إلى أن خير الأقوال من حدد الحجاز بالقرب من الحناكية.[2]

وفي مقدمة كتابه «معجم معالم الحجاز» يقول: (أما المعالم التي تناولها الكتاب فهي من جنوب الليث جنوباً إلى العقبة والمدورة «سرغ» شمالاً ومن الشرق على الخرمة والموية وحرة كشب ورحرحان- شرق الحناكية. ثم شرق تيماء إلى الطبَّيق «جوش»)[3] فهذه حدود الحجاز عنده.

وبعد استعراض دقيق لآراء المؤرخين والجغرافيين حول تحديد الحجاز ينتهي بكر أبو زيد[4] إلى أن الحجاز بالجملة مكة، والمدينة، ومخاليفهما، وتلك الحرار، وما انحاز عنها غرباً إلى ساحل البحر الأحمر.[5]

وبعد عرض آراء الباحثين والجغرافيين والفقهاء مبتدأً برأي الإمام الفقيه الشافعي رحمه الله ومنتهياً برأي الشيخ بكر أبو زيد الفقيه المعاصر؛ يتضح لنا أن المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومخاليفهما وحرارهما، وساحل البحر الأحمر من أيلة « العقبة» حتى ميناء السرين جنوب الليث وما يقابل الساحل شرقاً ويسامته من جبال السراة جنوب الطائف هو المقصود بالحجاز. وأما الاختلاف من جهة الشرق فإن للتقسيمات الإدارية عبر العصور أثراً في هذا الاختلاف، حيث تتسع في زمن وتضيق في زمن آخر، فقد اعتبر الإمام الشافعي اليمامة من الحجاز لأنها كانت في عصره تابعة لوالي الحجاز.

(1) توفي العلامة الشيخ عاتق البلادي رحمه الله يوم الاثنين الأول من شهر ربيع الأول عام 1431 هـ/ 15 فبراير 2010م.
(2) بين مكة وحضرموت، الطبعة الأولى، 1402هـ.1982م، دار مكة، ص164.163.
(3) معجم معالم الحجاز، ج1، ص9.
(4) (عضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية والفقيه المعروف).
(5) خصائص جزيرة العرب، الطبعة الثانية، 1418/ 1997، دار ابن الجوزي، الدمام، ص26.

الحجاز «مكانته وفضله»

المكانة: المنزلة ورفعة الشأن، كذلك الفضيلة: تعني الدرجة الرفيعة في الفضل وهي المزية خلاف الرذيلة والنقيصة.

وقد قال تعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾[1] فالله وحده يختار من الأماكن والبلاد ما يشاء سبحانه، ولا شك أن من الأماكن المختارة والمفضلة أرض الحجاز وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «إن الاسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ، وهو يأرز بين المسجدين، كما تأرز الحية في جحرها»[2] أي بين مسجدي مكة والمدينة.

وحديث جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غلظ القلوب والجفاء في المشرق والإيمان في أهل الحجاز».[3]

وقال القاضي عياض: «جدير بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل، وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والروح، وضجت عرصاتها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتها على جسد سيد البشر، وانتشر عنها من دين الله وسنة رسوله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين ومتبوأ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وفاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرضٍ مس جلد المصطفى تُرابها: أن تعظم عرصاتها، وتُنَسَّمَ نفحاتُها».[4]

ومع أن مكة المكرمة والمدينة المنورة هما أهم مدن الحجاز وحواضره، إلا

---

(1) سورة القصص، آية (68).

(2) صحيح مسلم، بشرح النووي، حديث رقم 232 (146) كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود، ج1، ص453.

(3) مسلم: رقم 92 (53)، ص307، ج1، كتاب الإيمان، باب فضائل أهل الإيمان.

(4) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: تحقيق علي محمد البجاوي، 1404هـ.1984م، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2، ص623.622.

أنه يوجد في الحجاز في عهد النبوة وما بعده حواضر أخرى كالطائف وخيبر ووادي العلا. وأقيمت على البحر الأحمر موانئ وثغور ومرافئ عدة لعل من أهمها العقبة وينبع، والجار، وجدة، والشعيبة، والسرين، وعلى امتداد التاريخ الإسلامي ومع توالي الأحداث والأيام، كانت تتقدم مدينة أو ميناء أو مرفأ ويتأخر آخر تبعاً لأحوال العمران، والأحداث التي ارتبطت بالمدينة أو الميناء.

ومكة هي عاصمة الحجاز خاصة، والعالم الإسلامي كافة، وقد اختارها الله عز وجل مكاناً لبيته المحرم فقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [1] وقال تعالى على لسان إبراهيم الخليل: ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [2]

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [3].

فسمى مكة أم القرى أي أن القرى كلها ترجع إليها فهي أمها. وقد جعل الله مكة بلداً آمناً وحرماً محرماً فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [4] وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾. [5]

[وعن أبي شريح أنه قال لعمرو بن سعيد([6]) وهو يبعث البعوث إلى مكة: ائذن لي أيها الأمير أحدثك قولاً قام به النبي صلى الله عليه وسلم الغد من يوم

(1) سورة آل عمران، آية 96، 97.
(2) سورة إبراهيم، آية 37.
(3) سورة الشورى، آية 7.
(4) سورة القصص، آية 57.
(5) سورة العنكبوت، آية 67.
(6) عمرو بن سعيد بن العاص الأموي، أبو أميه الأشدق، أمير أموي كان والي مكة والمدينة لمعاوية وابنه يزيد بُعث لقتال ابن الزبير في سنة 60هـ في مكة وذكره ابن شريح بحرمة مكة، فأبي، وقال: نحن أعلم بحرمتها منك أيها الشيخ. وقتله عبدالملك بن مروان في خلافته عام 70هـ.
انظر الطبري: تاريخ الأمم: ج ص274.3؛ الزركلي: الأعلام، ج5، ص78.

الفتح، سمعته أُذناي، ووعاه قلبي، وأبصرته عيناي حين تكلم به: حمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن مكة حرمَّها الله، ولم يحرمها الناسُ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً، ولا يعضد بها شجرة، فإن أحدٌ ترخص لقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقولوا له: إن الله قد أَذِنَ لرسولِهِ، ولم يأذن لكم، وإنما أذِنَ لي فيها ساعةً من نهارٍ، ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس، وليبلغ الشاهد الغائب. فقيل لأبي شريح: ما قال [لك] عمرو؟ قال: أنا أعلم [بذلك] منك يا أبا شريح! إن مكة (وفي رواية: إن الحرم) لا تعيذ عاصياً، ولا فاراً بدمٍ، ولا فاراً بخُرْبةٍ.[1]]

[وعن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام، ومسجد الرسول صلى الله عليه وسلم، والمسجد الأقصى[2].

[وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم افتتح مكة: لا هِجرَةَ، ولكن جهادٌ ونيَّةٌ، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلدٌ حَرَّمَه اللهُ يوم خلق السموات والأرض، وهو حرامٌ بحرمةِ الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحلَّ القتالُ فيه لأحدٍ قبلي [ولا لأحد بعدي] ولم يحل لي إلا ساعة من نهارٍ، فهو حرامٌ بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَدُ شوكهُ، ولا ينفر صَيده ولا يلتقط لقطتهُ، إلا من عرفها، [وفي رواية: إلا لمعرفٍ وفي أخرى: إلا لمنُشِد]. ولا يختلي خلاها. قال العباس: يا رسول الله إلا الإذخِر؛ فإنه [لا بد منه] لِقَنيهم ولبيوتهم (وفي طريق آخر فإنه لصاغتنا ولقبورنا، وفي رواية: ولسقف بيوتنا) [فسكت ثم]، قال: إلا الإذخر. [قال عكرمة: هل تدري ما (ينفر صيدها)؟ هو

(1) البخاري: حديث رقم104، ج1، ص60، كتاب العلم، باب ليبلغ الشاهد الغائب مراجعة وضبط الشيخ محمد علي القطب، والشيخ هشام البخاري، الطبعة الأولى، 1417، 1997، المكتبة العصرية، بيروت. وخُرْبةٍ تعني: الثقب المستدير، وأيضاً الفساد في الدين، وفي الحديث يراد بها الذي يضر بشيء ما ينفرد به ويغلب عليه مما لا تجيزه الشريعة. انظر لسان العرب، ج1، ص349.

(2) الألباني: مختصر صحيح البخاري: كتاب الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم 613، ج1، ص281.

أن تنحيه من الظل وتنزل مكانه][1]

[عن جابر رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحلَّ لأحدكم أن يحمل بمكة: السلاح».[2]]

أما مدينة المصطفى صلى الله عليه وسلم طيبة الطيبة فقد ورد في فضائلها الكثير من الأحاديث منها على سبيل المثال، [عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: المدينةُ حرم، من كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، ولا يحدث فيها حدثٌ، من أحدث فيها حدثاً [أو آوى محدثاً] فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.[3]]

[وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: أُمِرْتُ بقريةٍ تأكلُ القُرى، يقولون: يثرب، وهي المدينةُ، تنفي الناس كما ينفي الكير خبث الحديد.[4]]

[عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن الإيمان لَيَأرِزُ إلى المدينة كما تأرز الحية إلى جحرها.[5]]

[عن سعد رضي الله عنه قال: سمعت النبي يقول: لا يكيد أهل المدينة أحدُ إلا أنماع كما ينماعُ الملحُ في الماء.[6]]

عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ليسَ من بلدٍ إلا سيطؤهُ الدجال؛ إلا مكة والمدينة، ليس لهُ من نقابها نَقَبٌ، إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، [فلا يقربها الدجال ولا الطاعون إن شاء الله] (وفي

(1) الألباني: مختصر صحيح البخاري: كتاب جزاء الصيد، باب لا يحل القتال بمكة، حديث رقم 887، ج1، ص429.

(2) المنذري: مختصر صحيح مسلم: تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، كتاب الحج، باب في تحريم مكة وصيدها وشجرها ولقطتها، حديث رقم 767، ص201.

(3) الألباني: مختصر صحيح البخاري: كتاب فضائل المدينة، باب حرم المدينة، حديث رقم901، ج1، ص436.

(4) المصدر السابق: كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس، حديث رقم903، ج1، ص436.

(5) المصدر السابق: كتاب فضائل المدينة، باب فضائل المدينة، حديث رقم906، ج1، ص437.

(6) المصدر السابق: كتاب فضائل المدينة، باب: ثم من كاد أهل المدينة، حديث رقم907، ج1، ص438.

رواية يجئ الدجال حتى ينزل في ناحية المدينة)، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفاتٍ، فَيُخرِجُ اللهُ كل كافرٍ ومُنافق.[1]]

[عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي أهلها ثلاث رجفات فيخرج الله كل كافرٍ ومنافقٍ(1).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة، ومنبري على حوضي.[2]].

[عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، وعك أبو بكر وبلالٌ [رضي الله عنهما، قالت: فدخلت عليهما، فقلتُ: يا أبت كيف تجدك؟ ويا بلال كيف تجدك؟ قالت] فكان أبو بكرٍ إذا أخذته الحُمىَّ يقولُ:

كـل امـرئ مصبَّـحٌ في أهلـهِ ... والمـوت أدنـى مـن شـراك نَعلـهِ

وكان بلال إذا أقلع عنهُ الحمى يرفعُ عقيرته يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتنَّ ليلةً ... بـوادٍ وحولـي إذخـرٌ وجليـلُ
وهـل أردن يوماً مياه مجنةٍ ... وهل يبـدون لـي شامة وطفيـلُ

قال اللهمَّ العن شيبةَ بن ربيعة وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلفٍ كما أخرجونا من أرضنا إلى أرض الوباءِ. [قالت عائشة: فجئتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته] قال: اللهم حبب إلينا المدينة، كحبنا لمكة أو أشدَّ اللهم بارك لنا في صاعنا، وفي مدِّنا، وصححها لنا، وانقل حُمَّاها إلى الجحفةِ. قالت:

---

(1) الألباني: البخاري، كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، حديث رقم911، ج1، ص438/ 439.

(2) المصدر السابق: كتاب فضائل المدينة، باب لا يدخل الدجال المدينة، حديث رقم914، ج1، ص440.

فكان بطحانُ يجري نجلاً تعني ماء آجناً.[1]]

[عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إني أحرم ما بين لابتي المدينة أن يقطع عضاهُها أو يقتل صيدُها وقال: المدينة خيرٌ لهم لو كانوا يعلمون، ولا يدعها أحد رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه، ولا يثبت أحدٌ على لأوائها وجهدها إلا كنت له شفيعاً أو شهيداً يوم القيامة»[2]].

[عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نظر رسول الله إلى أحدٍ فقال «إن أحداً جبل يحبنا ونحبه»[3]].

[عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي مسجد قباءٍ راكباً وماشياً فيصلي فيه ركعتين[4]].

ويرى ابن الجوزي أن سبب توقان النفس إلى مكة ثلاثة أمور منها: دعاء الخليل عليه السلام حين قال: {...فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم}[5] ومنها: أن الله تعالى ينظر إلى الكعبة ليلة النصف من شعبان فتحن القلوب إليها[6] ومنها: أن الله تعالى أخذ ذرية آدم بأرض نعمان.[7]

والإمام مالك رحمه الله يرى أن التفاضل بين مكة والمدينة بسبب تشريف المسجدين إلا أنه يؤكد على أفضلية مكة على المدينة. ومالك وأكثر المدنيين (أي علماء أهل المدينة وفقهائهم من التابعين) وأهل مكة والكوفة ومنهم أبو

(1) الألباني: مختصر صحيح البخاري: كتاب فضائل المدينة، حديث رقم915، ج1، ص440. (والآجن هو ما تغير لونه وطعمه).

(2) المنذري: مختصر صحيح مسلم: كتاب الحج، باب تحريم المدينة، حديث رقم774، ص203.

(3) المصدر السابق: كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، حديث رقم 788، ص206.

(4) المصدر السابق: كتاب الحج، باب في مسجد قباء وفضله، حديث رقم 792، ص206.

(5) سورة إبراهيم، آية رقم (37).

(6) ذكر أهل العلم أنه لم يثبت في فضل ليلة النصف من شعبان حديث (انظر المنار المنيف في الصحيح والضعيف لابن القيم)، تحقيق عبدالفتاح أبو غدة، ص99.

(7) الإمام جمال الدين أبي الفرج عبدالرحمن بن محمد بن علي الجوزي: مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق أبو عبد الله محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، 1996.1416، دار الكتاب العلمية، ص33.

حنيفة وأصحابه وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري وحماد وعلقمة وأصحاب الشافعي ذهبوا إلى تفضيل مكة. لحديث النسائي وابن ماجه والترمذي وحسنه وصححه عن عبد الله بن الحمراء، قال رأيت رسول الله على الحَزْوَرَة فقال: والله إنك لخير أرض الله إلى الله تعالى ولولا أني أُخرجت منك ما خرجت (وهو قول عطاء) وهو من أكابر التابعين (وابن وهب وابن حبيب من أصحاب مالك وحكاه الساجي). وفي رسالة الحسن البصري- رحمه الله- إلى أهل مكة أن الدعاء يستجاب في حرمها وعند البيت والركن الأسود والملتزم وتحت الميزاب، ويُذْكُرُ عن الحسن البصري قوله أنه سمع أن عثمان بن عفان رضي الله عنه أقبل ذات يوم فقال لأصحابه ألا تسألوني من أين جئت؟ قالوا من أين جئت يا أمير المؤمنين؟ قال ما زلت قائماً على باب الجنة، وهو يقصد بذلك قيامه تحت الميزاب للدعاء والذكر.[1]

مع العلم أن الميزاب لم يرد فيه حديث صحيح والقاضي عياض يورد الأحاديث الضعيفة عفا الله عنا وعنه.

وكما كانت مكة حرسها الله مبدأ الوحي والهداية كانت المدينة طيبة الطيبة نهاية الوحي ومنزل الرسول الحبيب ومرقده الشريف.

وبما أن مكة رَبّت النبي صلى الله عليه وآله وسلم صبياً فقد آوته المدينة نبياً.[2]

الثناء على أهل الحجاز:

نال أهل هذه الديار من ثناء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما ورد في عدة أحاديث شريفة منها:

(1) القاضي عياض: الشفا، شرح الفاضل على القاري، 1316، ص162.168.

(2) محمد بن سليمان: مفاخرة بين مكة والمدينة، تحقيق محمد الششتاوي، الطبعة الأولى، 1419/ 1999، دار الآفاق العربية، القاهرة، ص13. 14.

[عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «قريش والأنصار وجهينة ومزينة وأسلم وأشجع وغفار، مواليَّ؛ ليس لهم مولى دون الله ورسوله».(1)]

[وقد أثنى نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على قريش فقال: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم».(2)]

قال الإمام أبو بكر بن أبي عاصم حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة حدثنا وكيع عن سفيان عن ابن خُثيم عن إسماعيل بن عبيد الله بن رفاعة عن أبيه عن جده رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (إن قريشاً أهل صدق وأمانةٍ، من بغاهم العواثر أكبَّهُ الله لوجهه).(3)

[وعن أنس رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم رأي صبياناً ونساءً مقبلين من عُرسٍ، فقام نبي الله مُمثلاً، فقال: «اللهم أنتم من أحب الناس إليّ، اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ» يعني الأنصار.(4)]

[عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «اللهم اغفر للأنصار، ولأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار».(5)]

ذلك يسير من كثير مما ذكره المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم في الثناء على بعض قبائل الحجاز خاصة والجزيرة العربية عامة، وهذا مما يدل على

(1) أخرجه البخاري في: 61.كتاب المناقب: 2.باب مناقب قريش. وانظر الألباني مختصر صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب دعاء النبي الغفار، باب في فضل مزينة وجهينة وغفار، ص463.462.

(2) أخرجه البخاري في: 61.كتاب المناقب: 1.باب قوله تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى}، انظر: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، كتاب الأمارة، باب الناس تبع لقريش، حديث رقم 1193، ج1، ص239. وانظر: المنذري: مختصر صحيح مسلم: كتاب الأمارة، باب الخلفاء من قريش، حديث رقم 1195، ص326.

(3) رواه الأمام أحمد في مسنده (4/ 340) عن وكيع به؛ والبخاري في الأدب المفرد(75) والحاكم في مستدركه 4/ 73؛ انظر: لذة العيش في فضائل قريش (عبد العزيز الراجحي)، الطبعة الأولى، 1418هـ، ص73.72؛ السنة لابن أبي عاصم: الطبعة الأولى، 1400، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ج2، ص635.

(4) المنذري: مختصر صحيح مسلم: كتاب فضائل أصحاب النبي باب في فضائل الأنصار، ص461.

(5) المصدر السابق: ص461.

مكانة العرب في الإسلام وأنهم أفضل من غيرهم، وأن محبتهم سبب قوة الإيمان فالذي عليه أهل السنة والجماعة كما يقول ابن تيمية رحمه الله: اعتقاد أن جنس العرب أفضل من جنس العجم وأن قريشاً أفضل العرب وأن بني هاشم أفضل قريش، وأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل بني هاشم فهو أفضل الخلق نفساً وأفضلهم نسباً. وليس فضل العرب، ثم قريش، ثم بني هاشم: بمجرد كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم، وإن كان هذا من الفضل، بل هم في أنفسهم أفضل. وبذلك ثبت لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه أفضل نفساً ونسباً، وينقل ابن تيمية- رحمه الله- قول الكرماني صاحب الإمام أحمد في وصفه للسنة التي قال فيها: هذا مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المعروفين، المقتدى بهم فيها، بل يرى أن من خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها فهو مبتدع خارج عن الجماعة زائل عن منهج السنة، وسبيل الحق، ويرى أن الله تعالى خص العرب ولسانهم بأحكام تميزوا بها، ثم خص قريشاً على سائر العرب بما جعل فيهم خلافة النبوة، ثم خص بني هاشم بتحريم الصدقة واستحقاق قسط من الفيء إلى غير ذلك مما فصله ابن تيمية رحمه الله.(1)

فهذا الحجاز بأرضه وسكانه كان وما زال وسيبقى بإذن الله ذا أهمية بالغة، فقد كان في الجاهلية شرياناً رئيساً من شرايين التجارة العالمية من طرق برية أو بحرية، كما كان الحجاز ذا أهمية كبيرة في الإسلام من عدة نواحٍ أبرزها المكانة الدينية والعلمية، ثم الناحية العسكرية والاقتصادية لكونه جسراً يصل ما بين بلاد الشام وحوض البحر المتوسط وبين بلاد اليمن والمحيط الهندي، وما يقع على سواحله من مناطق غنية بالمعادن الثمينة، حتى صارت موانئه منازل للتجار وملاجئ لسفنهم المحملة بالخيرات.(2) وقد تسابقت وتنافست الدول

(1) انظر اقتضاء الصراط المستقيم: مطبعة الحكومة، 1389هـ، مكة المكرمة، ص154،148.
(2) أحمد إبراهيم الشريف: دور الحجاز في الحياة السياسية في القرنين الأول والثاني الهجري، دار الفكر

الإسلامية على مدار التاريخ من عهد بني أمية وبني العباس والعبيديين في مصر والأيوبيين والمماليك في جعل الحجاز من ولايتها والاستفادة من موانئه تجارياً، حيث إن قيام دولة الإسلام منح العرب بعامة وسكان الحجاز خاصة الفرص الملائمة تماماً للسيطرة على تجارة البحر الأحمر فأصبح بحراً عربياً خالصاً حتى القرن العاشر الهجري، وانعكس ذلك على ازدياد أهمية مكة والمدينة تجارياً لأنهما احتاجتا إلى منافذ بحرية تصلهما بالعالم المجاور عبر البحر الأحمر.[1] كما سيأتي تفصيل ذلك لاحقاً.

فإذا كان الحجاز أساس تاريخ العرب والإسلام ومحوره الذي يدور عليه، لذا فإن معرفة مكانته ومكانة الجزيرة العربية أصل من أصول الملة كما يرى العلاّمة بكر أبو زيد، فهي دار النصرة والقبلة وحبيبة المسلمين وعدوة الكافرين، فدين الإسلام هو قدر الله في هذه الجزيرة؛ وقاعدة انطلاقاته إلى كل الخليقة في المعمورة، فإذا سلمت الجزيرة العربية والحجاز من الأمراض والعلل بقي الإسلام في حضانة أهله مزدهراً مشعة أنواره؛ ظاهرة شعائره، مؤمنة سبله، وتبقى الجزيرة مركزاً للإسلام، ودار قيادة للأمة الإسلامية، وأهلها قدوة للمسلمين، من ذلك يتضح أهمية هذا الأصل العقدي وضرورة معرفة ما هُجر من خصائصه.[2]

العربي، ص4.3.

(1) محمد أحمد الرويثي: التطور المكاني والتاريخي لمواني شبه الجزيرة العربية، الطبعة الأولى، 1415هـ. 1994م، المدينة المنورة، ص76.

(2) خصائص جزيرة العرب، ص75.

أهمية البحر الأحمر

تحديده عند الجغرافيين المتقدمين:

يرى ابن رسته (ت بعد 290هـ) أن البحر الأحمر جزء من البحر الهندي الممتد من أقصى أرض الحبش إلى أقصى الهند، واصفاً إياه بأنه يخرج خليج من عند أرض الحبش يمر إلى ناحية البربر، ويسميه الخليج البربري ويقدره بخمس مائة ميل وعرض طرفه مائة ميل، ويخرج منه خليج آخر نحو أيلة طوله ألف وأربع مائة ميل، وينتهي إلى القول أن بين خليج أيلة وخليج فارس تقع أرض الحجاز واليمن وسائر بلاد العرب[1].

أما الهمداني (ت 334هـ) فإنه عند حديثه عن جزيرة العرب وما يحيط بها من بحار يشير إلى أن عنقاً من البحر مال إلى حضر موت وناحية أبين وعدن ودهلك، فاستطال ذلك العنق في رأيه حتى مر ببلاد فرسان وجده والجار وساحل الطور وخليج أيلة وساحل رآية حتى يصل إلى القلزم[2].

والإصطخري (ت340هـ) يصف البحر الأحمر كجزء من بحر فارس، رغم ما يعدد له من تسميات حسب المدينة أو الميناء الذي يطل على ساحله، فقد يُسَمَّى بحر القلزم، أو بحر جُدة، أو بحر الجار، أو بحر اليمن، أو بحر الحبش، فيرى أن بحر القلزم جزءً من بحر فارس[3]، ويقدره بنحو ثلاثين مرحلة طولاً، وعرضه مسير ثلاث ليال ثم لا يزال يضيق حتى يرى من بعض جنباته الجانب

(1) أبي على أحمد بن عمر: الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، طبع في مدينة ليدن المحروسة، بمطبع بريل، 1891م، ص84.
(2) صفة جزيرة العرب، ص84.
(3) أي متصلًا به.

الآخر، ويرى أن أخبث[1] ما فيه جزر تاران بين خليجي القلزم وأيلة[2].

أما المسعودي (ت 346هـ) فيسمى البحر الأحمر بالبحر الحبشي ويذكر أنه ينتهي إلى مدينة القلزم من أعمال مصر، وعليه مدينة أيلة والحجاز وجُدة واليمن وفي الطرف المقابل بلاد مصر وأرض البجة وأرض الحبشة[3].

وابن حوقل (ت 367هـ) يذكر تقريباً ما يذكره الإصطخري من أن بحر فارس وهو ما يحيط بديار العرب ولكنه يؤكد على تسميته ببحر القلزم إلى أن يحاذي بطن اليمن، فإذا قابل بطن اليمن يسمى بحر عدن.. وهكذا[4].

والإدريسي (ت 560هـ) يجعل البحر الأحمر جزءًا من البحر الصيني، فيتشعب منه خليج القلزم، ومبدؤه من باب المندب، وحيث انتهى البحر الهندي فيمر في جهة الشمال مغرباً قليلاً فيتصل بغربي اليمن ماراً بتهامة والحجاز، ثم إلى مَدْين، وأيلة، وفاران[5] حتى ينتهي إلى مدينة القلزم وإليها ينسب كما يرى، ثم ينعطف ريفه راجعًا في جهة الجنوب. مشيراً إلى أنه يمر ببلاد مصر والسودان مروراً بعيذاب حتى جزيرة سواكن[6] وزالع منتهياً إلى بلاد الحبشة[7].

وقد نتساءل عن سبب تسمية هذا البحر بالبحر الأحمر؟ فقد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن لون مياهه حمراء، وبالتأكيد ليس هذا الاعتقاد

---

(1) المقصود بالخبث وجود الشعب المرجانية، والنتوءات الحادة، والدوامات البحرية مما يعرض السفن المارة بهذا الجزء لمخاطر شديدة. انظر عطية القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، دار النهضة العربية ، ص13.

(2) المسالك والممالك، ص29 .31.

(3) أبي الحسين علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق قاسم الشماعي الرفاعي، الطبعة الأولى،1408.198، دار القلم، بيروت، ج1، ص107.

(4) صورة الأرض، ص 44 .46.

(5) فاران المقصودة: هذا جبل أو بلدة في سيناء، وليست من جبال الحجاز، وانظرها في معجم البلدان ج4، ص225.

(6) جزيرة سواكن: على الساحل السوداني يقابلها ميناء سواكن الذي استخدم كميناء طيلة الفترة ال‍إسلامية، ثم استبدل بميناء بور سودان في الوقت الحاضر، سيأتي الحديث عن ميناء سواكن.

(7) أبو عبد الله محمد بن عبد الله ابن ادريس الحموي الحسني (الشريف الإدريسي): نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، الطبعة الأولى،1409.1989م، عالم الكتب، بيروت، ج1، ص10.

صحيحاً. ويرجح الدكتور القوصي أن سبب التسمية نسبة إلى اسم قديم باسم «بحر الملك الأحمر»، ثم اختصر إلى البحر الأحمر(1). وهناك من يرى أنها نسبة إلى لون الشعب المرجانية التي تكثر فيه(2). وقد وردت في كتاب العهد القديم كلمة Redsea تحت اسم (يم سوف) أي بحر سوف، وكلمة سوف تعني في العبرية النبات المعروف باسم نبات البردي الذي كان ينمو على أطراف الأنهار والبحيرات ويعرف بالإنجليزية بـ Reed، لذا فإن تسميته بـ Redsea هي تحريف لكلمة Reed أي بحر البردي(3).

تحديده ووصفه عند الجغرافيين المعاصرين:

ولا يختلف تحديد الجغرافيين المعاصرين عن السابقين كثيراً إلا بكونه أكثر دقة وتوضيحاً، فالبحر الأحمر يفصل بين شبه جزيرة العرب وقارة أفريقيا ويمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي بين خطي عرض 32ْ شمالاً، 12.30ْ شمالاً لمسافة 2100 كيلو متر ويبلغ أقصى اتساع له بين جازان ومصوع حوالي 350كم، ويشتمل على شعب مرجانيه تشكل شواطئ مرجانية مرتفعة، وعلى امتداد البحر الأحمر. ويتفرع في شماله إلى فرعين تفصل بينهما شبه جزيرة سيناء، ويقع غربها خليج السويس والفرع المقابل في شرقها خليج العقبة، وطول الأخير 97 ميلاً وهو أعمق من خليج السويس إذ يصل عمقه في بعض مناطقه إلى 1460م(4).

وخليج السويس المقابل لخليج العقبة منخفض وممتد بين خطي عرض 27، 29 إلى الشمال، ويقدر طوله بـ مائتي ميل، وعرضه بـ عشرين ميلاً في

(1) عطية: تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة العباسية، ص10.
(2) نخبة من الأساتذة المختصين: تاريخ البحرية المصرية، جامعة الإسكندرية، 1973، ص595.
(3) برج، محمد عبد الرحمن: البحر الأحمر عبر التاريخ، بحث في كتاب ندوة البحر الأحمر التي عقدت في معهد الدراسات الدبلوماسية بالرياض وزارة الخارجية، 1405هـ، طبع 1406هـ، ص21.
(4) العرفج، ناصر عبد العزيز: أهمية الممرات المائية في البحر الأحمر (بحث ضمن كتاب ندوة البحر الأحمر) ص 36 . 48.

المتوسط وقد يضيق عند نهايته إلى حوالي 18 ميلاً.

أما مدخل البحر الأحمر الجنوبي فهو بلا شك باب المندب الذي يشكل ممراً ضيقاً وهاماً وتقسمه جزيرة بريم (ميون) إلى ممرين، فالممر الشرقي يقل عرضه عن ميلين ويبلغ عمقه 85 قدم، والممر الغربي 16 ميلاً ويصل عمقه إلى 990 قدماً، ويمثل الممر الوحيد الصالح للملاحة(1).

وفي الجزء الشمالي للبحر الأحمر عند مدخل خليج العقبة تقع مضائق تيران، ويصبح الممر المائي الصالح للملاحة شديد الضيق لاعتراض جزيرتي تيران وصنافير، وتتسببان في تقسيمه إلى ثلاث قنوات، القناة الأولى عرضها حوالي 3 أميال بين ساحل سيناء وجزيرة تيران، والقناة الثانية عرضها قرابة الميل ونصف الميل بين الجزيرتين أما القناة الثالثة فتنحصر بين الجزيرتين والساحل الحجازي، وتعتبر القناة الأولى هي الوحيدة الصالحة للملاحة، أما القناتين الآخرتين فغير صالحتين لاعتراض الجزر المرجانية ذات النتوءات الحادة وضحالة المياه فيهما(2).

مع العلم أن القناة الثالثة يبلغ عرضها ثلاثة أميال، ولكنها لا تصلح لعبور السفن لكثرة الصخور والشعاب المرجانية فيها.(3)

كما توجد جزر أخرى عند مدخل خليج العقبة مثل جزيرة شوشة، وجزيرة برقان، أما الجزر الواقعة بالقرب من مدخل خليج السويس فهي جزيرة شاكر، وجزيرة الأخوين، وجزيرة أبو الكيزان(4). وفي المدخل الجنوبي للبحر الأحمر، «باب المندب» تقع عند مدخله وفي وسطه عدة جزر منها جبل الطير، وجزر الزبير، وجزيرة الذكور، وجزيرة حانيش، وجزيرة بريم، وجزر فرسان وسجيد

(1) السلطان، عبد الله عبد المحسن: البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1984، ص30،28.
(2) جرادات، الرائد وليد محمد، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، الدوحة، ص24.
(3) العرفج: أهمية الممرات المائية في البحر الأحمر: ندوة البحر الأحمر، ص48.
(4) المصدر السابق: ص51. 52.

اللتان تقعان غرب مدينة جازان. وكذلك مجموعة جزر دهلك في مواجهة جزر فرسان بالقرب من الساحل الغربي للبحر الأحمر وأهمها جزيرة دهلك الواقعة على بعد 40 كيلو إلى الشرق من مصوع، وجزيرة قمران الواقعة إلى الشمال الغربي ورأس البياض إلى الشمال الغربي من الحديدة(1).

وعلى كلٍ فإن البحر الأحمر تكثر فيه الجزر، حيث يقدر عدد جزر البحر الأحمر بحوالي 379 جزيرة معظمها جزر صغيرة جداً، ويوجد في كل ميل مربع من المسطح المائي 2.1 جزيرة، وتتركز غالبيتها في الجزء الجنوبي للبحر الأحمر، وتقل في المناطق الشمالية، وبعض الجزر بركانية، وبعضها مرجانية غير مسكونة(2).

أهمية البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي:

تبرز أهمية البحر الأحمر في عدد من العناصر هي:

1. وسطيته وتميزه:

سبق الحديث بشيء من التفصيل عن امتداد البحر الأحمر وجغرافيته وممراته وجزره، ومن خلاله يتضح لنا أهمية الموقع المتميز للبحر الأحمر فإنه يقع تقريباً في منتصف الكرة الأرضية سواء من الشمال والجنوب أو من الشرق أو الغرب، يمر مدار السرطان ينصفه، وفي شماله البحر المتوسط وفي جنوبه بحر العرب والمحيط الهندي. وهو في منتصف المسافة بين القارات الثلاث (آسيا وأفريقيا وأوربا).

(1) العرفج: أهمية الممرات المائية في البحر الأحمر، ص37 ،38.

(2) السلطان، عبد الله عبد المحسن، البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، ص30. وعن جزر البحر الأحمر خاصة انظر: الوجود العربي الأفريقي في جزر البحر الأحمر عبر التاريخ (الدكتور محي الدين محمد مصيلحي، ص7. وانظر: فارسي، زكي محمد علي: دليل الطرق السعودية ودليل السياحة، الطبعة الأولى، 1995/1415 خرائط رقم ب 12، ب 14، ب 18، ب 22، 1، 22، 26، 32.
وانظر خريطة جزيرة العرب: 1: 2000.000، وزارة البترول، الثروة المعدنية، الرياض، طبعة عام 1403هـ. 1983م، وخريطة جمهورية مصر العربية: 1: 2000.000، الهيئة العامة للمساحة المصرية.

كما يمتاز باستطالته، واتصاله بعدد من بحار العالم وله خليجان مستطيلان في شماله متخذان- بقدرة الله عز وجل شكل رقم (7) هما خليج العقبة وخليج السويس»[1].

2. **الأهمية الدينية:**

كان وما زال وسيبقى البحر الأحمر- بإذن الله عز وجل طريقاً ومعبراً من معابر الدعوة الإسلامية، فمنذ انبثاق نور الإسلام بمبعث المصطفى محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: استخدم البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية فانطلقت عبره أول هجرة في الإسلام إلى بلاد الحبشة[2]. كما انطلقت عبره هجرات القبائل العربية إلى البلاد الإفريقية لنشر الدعوة والاستقرار في تلك المناطق.

وسارت قوافل الحجيج ومراكبه تمخر عباب البحر الأحمر عبر موانئه الشرقية والغربية ذهاباً وإياباً مشتملة على حجاج افريقية وأوروبا «الأندلس» ملبية لنداء ربها «وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق»[3]. ولم يقتصر دور البحر الأحمر على نقل الحجاج، بل نقلت مراكبه وسفنه واستقبلت موانئه الحجازية مؤن عمارة الحرمين الشريفين وكسوة الكعبة الشريفة من فترات مبكرة في التاريخ الإسلامي.[4]

3. **الأهمية التجارية:**

اشتهرت قريش بالتجارة وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ

(1) محمد: عبد الغني عبد الرحمن: مكة أم القرى .. لماذا؟، الطبعة الأولى 1411. 1990، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 107. 108.
(2) سيأتي الحديث عنها تفصيلًا في الفصل التالي عند الحديث عن ميناء الشعيبة.
(3) سورة الحج: آية رقم (27).
(4) كما سيأتي تفصيل ذلك في الفصل الرابع.

وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ﴿٤﴾[1]

وذلك لأن موقع مكة في ملتقى طريقين تجاريين عالميين من قبل الإسلام وهما طريق اليمن والشام، وطريق اليمن والعراق وفارس مما صنع منها نقطة التقاء تجاري هام، ومحطة سير القوافل التجارية إلى مختلف أرجاء شبه الجزيرة العربية.

وبسقوط دولة الفرس في الفتح الإسلامي: استعاد البحر الأحمر سابق ازدهاره وتجدد نشاطه التجاري، وانطلق النشاط التجاري الإسلامي بقناة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بين البحر الأحمر ونيل مصر وازداد الاهتمام التجاري بالبحر الأحمر في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه باتخاذ جدة ميناءً، ثم توالى الاهتمام الأموي بتجارة البحر الأحمر، وحاربوا قراصنة البحر الأحمر، إلا أن الاهتمام التجاري في العهد العباسي تقلص إلى حد ما في البحر الأحمر وتحول إلى الخليج العربي (الفارسي) لقربه من عاصمة الخلافة العباسية بغداد، وفي العهد العبيدي «الفاطمي» في مصر عاود النشاط التجاري في البحر الأحمر دورته وازدهرت تجارة الشرق من وإلى مصر عبر البحر الأحمر لوجود طريق منافس يحمل تجارة الشرق إلى الغرب[2].

4. الأهمية السياسية والعسكرية:

كان البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية وقوافل الحجيج، وطريقاً تجارياً هاماً بين الشرق والغرب، إلا أن هذه التجارة لم تبق حرة، بل استغلت سياسياً وحوصرت ومنعت عن أهالي الحجاز في فترات متقطعة للضغط السياسي والاقتصادي كما حصل في عهد العباسيين إزاء ثورات العلويين في الحجاز وكذلك في العهد العبيدي «الفاطمي»، والعهد الأيوبي، والعهد

(1) سورة قريش.
(2) كما سيأتي توضيح ذلك في الفصل الثالث.

المملوكي للضغط على أشراف الحجاز للحد من بعض تصرفاتهم، أو كسب ولائهم في ظل الصراعات السياسية في العالم الإسلامي. وتسببت الضغوط السياسية والاجتماعية والاقتصادية في هجرة عدد من القبائل العربية عبر البحر الأحمر من الجزيرة العربية إلى القارة الإفريقية وخاصة شرق أفريقيا ووادي النيل على وجه الخصوص، وساهمت هذه الهجرات بدور فاعل في الأحداث السياسية والعسكرية في شرق إفريقية، بل وبناء إمارات إسلامية في بلاد السودان والحبشة عاشت ردحاً من الزمن.

وفي القرن السادس الهجري (في نهاية القرن الثاني عشر الميلادي) تعرض البحر الأحمر للغزو الصليبي، وهدد الصليبيون الحجاز عبر موانئ وثغور البحر الأحمر، حتى حفظ الله عز وجل الحجاز على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله.

وفي القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) غزا البرتغاليون العالم الإسلامي وسعوا إلى الوصول إلى الحجاز عبر البحر الأحمر وتصدى لهم المماليك، وبالرغم من دفعهم عن الحجاز إلا أن استعمارهم واحتلالهم لبلاد عربية وإسلامية أخرى استمر فترة من الزمن[1].

(1) وسيأتي تفصيل ذلك في الفصل الثاني والرابع.

الفصل الثاني

- نشأة الموانئ الحجازية

أ) الموانئ البحرية.

- العقبة «أيلة».
- يَنْبُع.
- الجار.
- جُدة.
- الشُعيبة.
- السرين.

ب) أهم الأحداث السياسية والعسكرية التي ارتبطت بالثغور الحجازية.

تمهيد:

الميناء: مرفأ السفن يمد ويقصر والمد أكثر وسمي بذلك لأن السفن تني فيه أي تفتر عن جريها[1].

وأيضاً يسمى الميناء المرفأ من رفأ السفينة: أدناها من الشط[2]. ويسمى الميناء الفُرْضَةُ والجمع فُرَض، وفراض وهي الثُّلمة التي تكون في النهر، وفرضة البحر: محطة السفن[3].

وفي الاصطلاحات الجغرافية الحديثة يوجد ثمة فارق بين المرفأ والميناء، فالمرفأ: هو موقع ساحلي نشأ نتيجة عوامل جغرافية وجيولوجية وطبيعية مختلفة، ويظهر في الغالب في صورة منطقة مائية مقفلة جزئياً، ومثال ذلك الشرم أو الخلجان الصغيرة، وتقدم مرسى لحماية وتأمين السفن، ومن خصائصها عمق المياه إلى حد ما تكفي لرسو السفن الصغيرة. وقد يكون المرفأ طبيعياً مثل الخلجان ومصبات الأنهار الخليجية. أو صناعياً من فعل الإنسان كبناء حواجز الأمواج.

أما الميناء: فهو المرفأ الذي تتوفر فيه الاستعدادات والتسهيلات لنقل البضائع أو المسافرين من السفن وإليها بصفة مستمرة، ويلحق به عدد من الأرصفة ومخازن الشحن والتفريغ[4].

---

(1) المصدر السابق: ج15، ص146.

(2) الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، ج1، ص52.

(3) ابن منظور: مصدر سابق، ج7، ص206.
وانظر كتاب المصباح المنير: أحمد بن محمد المغربي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ج1، ص81 مادة ثغر، ج1، ص215؛ العين: الفراهيدي: تحقيق د/مهدي المخزومي، د/إبراهيم السامرائي، ج3، ص142، مادة المسلحة، ومادة ثغر ج4، ص400.

(4) انظر لمزيد من التفاصيل، د/محمد أحمد الرويثي: الموانئ السعودية على البحر الأحمر، ص182181.

نشأة الموانئ البحرية الحجازية وتطورها

سوف نعرض للموانئ البحرية الحجازية متدرجين من شمال الحجاز إلى جنوبه بدءًا بميناء العقبة «أيلة» ثم ينبع ثم الجار ثم جُدة ثم الشعيبة ثم السرين. ونعرض لكل ميناءٍ على حده: بمقدمة جغرافية وتاريخية عن موقعه ونشأته. وفي مبحث آخر يتم عرض الأحداث السياسية والعسكرية التي ارتبطت بهذه الموانئ من بعثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم (611م) (13ق هـ) إلى نهاية العصر المملوكي (923هـ. الموافق 1517م).

1) أيلة «العقبة»[1] :



في مادة أيل في لسان العرب، أيل اسم من أسماء الله عز وجل عبرانيٍ أو سرياني، لأن إيلا لغة في إل وهو الله عز وجل[2]، وفي رأي آخر أيلة مشتقة من (أيل) الواردة في نص «جلجاميش» بمعنى الله وكان (أيل) إله الأكاديين والكنعانيين والعبرانيين، فهي بالتالي سامية وتعني (الله) وبهذا تتفق مع تفسير

(1) انظر الخرائط والصور عن أيلة والعقبة وآثارها في الملاحق، ص 372-377.
(2) ابن منظور: لسان العرب، ج11، ص40.

علماء اللغة العربية[1]. وتقع أيلة في رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر في الركن الشمالي الشرقي بين خطي العرض (29.31م) شمالاً، وخط طول (35م) شرقي غرينتش[2].[3]

وذُكرت أيلة في عدة مصادر تحدثت عن جزيرة العرب وبلاد الشام ومصر وطرق الحج، ومن أقدم المصادر الجغرافية العربية التي تم الاطلاع عليها كتاب اليعقوبي (ت284) الذي ذكر أنها مدينة جليلة على ساحل البحر المالح (أي البحر الأحمر) وبها يجتمع حاج الشام ومصر والمغرب، وبها التجارات الكثيرة، وأهلها أخلاط من الناس، مضيفاً أنه وجد بها قوماً يذكرون أنهم موالي عثمان بن عفان رضي الله عنه، ورأى بها بُرْد حِبَرة يُقال إنه بُرْد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه وهبه لرؤبة بن يُحَنَّه[4]، أو يُحَنَّه بن رؤبة، وهو الأرجح[5].

وذكرها ابن خرداذبة (ت 300) في عدة مواقع من كتابه على أنها ملتقى للحاج من مصر والمغرب والشام إلى الأراضي المقدسة[6].

وكذلك ذكرها كل من الإصطخري[7] (ت 340)، وابن حوقل (ت 367)[8] على أنها مدينة صغيرة عامرة وبها زرع يسير، ويشيران إلى سكن اليهود بها الذين حرّم الله عليهم صيد السبت. أما البكري (ت 487) فيصفها بأنها مدينة على شاطئ البحر في منتصف الطريق ما بين مصر ومكة.[9]

(1) يوسف حسن درويش غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، الطبعة الأولى، 1984م، دار هشام، أربد، ص14،13.

(2) رائد رزق محمد الشرع: مدينة أيلة وتخطيطاتها في الفترة الإسلامية المبكرة "دراسة معمارية مقارنة" رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، 1414هـ، 1994م، ص18.

(3) انظر خريطة جزيرة العرب: 2000.0001، وزارة البترول والثروة المعدنية، طبعة عام 1403هـ وخريطة جمهورية مصر العربية: 1: 2000.0001، الهيئة العامة للمساحة المصرية.

(4) البلدان: الملحق بكتاب الأعلاق النفيسة لابن رسته، ص341،340.

(5) (2) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص125؛ الطبري: الأمم والملوك، ج2، ص185؛ ابن الأثير: الكامل، ج2، ص191.

(6) المسالك والممالك: ص81، 83، 149.

(7) المسالك والممالك: ص31.

(8) صورة الأرض: ص48.

(9) معجم ما استعجم، ج1، ص216.

قال الحافظ ابن كثير في تفسيره عند قوله تعالى:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[1] هي بسط لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ﴾[2] يقول تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: (واسألهم) أي واسأل هؤلاء اليهود الذين بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله فانتقم منهم الله على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم في المخالفة، وفي المقابل حذرهم من كتمان صفتك التي يجدونها في كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم، ويؤكد ابن كثير أن القرية المذكورة هي أيلة الواقعة على شاطئ بحر القلزم ويذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: هي قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور.. وقوله تعالى: {إذ يعدون في السبت} أي يعتدون ويخالفون أمر الله فيه لهم بالوصاة بهم إذ ذاك (تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعاً) قال الضحاك عن ابن عباس: أي ظاهرة على الماء من كل مكان. وقوله: (ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم) أي نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء في اليوم المحرّم عليهم صيده وإخفائها عنهم في اليوم الحلال لهم صيده (كذلك نبلوهم) نختبرهم بما كانوا يفسقون) بفسقهم عن طاعة الله وخروجهم عنها وهؤلاء قد احتالوا على انتهاك محارم الله بما تعاطوا من الأسباب الظاهرة التي معناها في الباطن تعاطي الحرام.[3]

وكان قد حرم الله عليهم العمل والصيد يوم السبت فزين لهم إبليس الحيلة وقال إنما نُهيتم عن أخذ الحيتان يوم السبت، فاتخذوا الحياض فكانوا يسوقون الحيتان إليها يوم الجمعة فتبقى فيها فلا يمكنها الخروج منها لقلة

(1) سورة الأعراف: آية (163).
(2) سورة البقرة: آية (65).
(3) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى 1980.1400، دار الفكر. دمشق، ج2، ص257، 258.

الماء فيأخذونها يوم الأحد، وتلك حيلة نهتهم عنها طائفة أخرى من بني إسرائيل إلا أنهم أصروا على ارتكاب المحظور فقسموا القرية بجدار، وفي يوم من الأيام والطائفة التي نهتهم وحذرتهم في مجالسهم وإذا بالمعتدين لا يخرجون كعادتهم، فشعروا أن في الأمر شأن جديد، فعلوا ذلك الجدار وإذا بالمعتدين قد مسخهم الله قردة وخنازير، فدخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الأنس فجعلت تأتيهم فتشم ثيابهم وتبكى، فيقول المنذرون لهم والذين حذروهم ألم ننهكم فتقول برأسها نعم، فصارت الشباب قردة والشيوخ خنازير، فما نجا منهم إلا الذين نَهَوْا، وهلك سائرهم. وقيل إن ذلك كان في زمن نبي الله داود عليه السلام[1].

ويذكر المقريزي[2] **والحميري**[3] **أن أيلة أول حد الحجاز.**

وتصفها الباحثة سوسن الفاخري بأنها تحتل موقعاً استراتيجياً بالغ الأهمية، وإنها حلقة وصل بين طرق المواصلات البرية والبحرية بين كل من البحر الأحمر والقارات الثلاث أسيا وأفريقيا وأوربا، وذات مناخ دافئ ومياه عذبة، وبرز مجد أيلة الإسلامي في عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وانتهاءً بالعصر الفاطمي «العبيدي»[4].

وقد زالت هذه المدينة فلم يبق من بنائها القديم إلا آثار مطمور بعضها.

وينسب إلى أيلة عدد من المحدثين والعلماء منهم:

1. عقيل بن خالد الأيلي (ت 141) مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه يصفه ابن سعد[5] بأنه صاحب الزهري وكان ثقة. روى عن أبيه وعمه نافع مولى ابن عمر، وعكرمة والحسن وسعيد بن أبي سعيد الخدري، وسعيد بن

(1) المقريزي: الخطط، ج1، ص185.184.
(2) المقريزي: الخطط، ج1، ص184.
(3) الروض المعطار في خبر الأقطار: ص70.
(4) "أيلة": مجلة آثار الأردنية، العدد الثاني، أيلول 1998م، عمان، الأردن، ص54.
(5) الطبقات الكبرى، ج7، ص519.

سليمان بن ثابت، ومسلمة بن كهيل، وغيرهم. كان من حفاظ الحديث، وهو كبير أسرة عقيل الأيليين الذين برزوا في علم ورواية الحديث[1].

2. يونس بن يزيد بن أبي النجاه الأيلي (ت 152)، يصفه ابن سعد[2] بأنه كان حلو الحديث، وليس بحجة وربما جاء بالشيء المنكر ويذكر أنه مولى معاوية بن أبي سفيان، وروى عن أخيه أبي علي بن يزيد والزهري، ونافع مولى ابن عمر وهشام بن عروة وعمارة بن غزية وعكرمة وغيرهم. وروى عنه جرير وعمر بن الحارث، وابن أخيه عنبسة بن خالد بن يزيد الأيلي والليث والأوزاعي وسليمان بن بلال وطلحة بن يحيى الزقي وابن المبارك وابن وهب والقاسم بن مسرور ومفضل بن فضالة وشبيب بن سعيد الحبطي وبقية بن الوليد وحسان بن إبراهيم الكرماني، وعبدالله بن رجاء المكي، وأبو صفوان عبد الله بن سعيد الأموي، وعبدالله بن عمر النميري وعثمان بن عمر وآخرون، ويورد بعض الآراء التي اختلفت فيه، من حيث الحفظ والثقة، فهناك من وثقه، وهناك من اتهمه بسوء الحفظ وإيراد الأحاديث المنكرة[3].

3. عبد الحكم بن أعين بن الليث القرشي الأيلي (ت 171هـ):

مولى عثمان بن عفان، وقيل مولى عفيرة: امرأة من موالي عثمان، وهو والد بني عبد الحكم الأسرة التي انتقلت من أيلة إلى مصر، وسكنت الإسكندرية، وعرفوا بالعلم والمعرفة[4].

4. سلامة بن روح بن خالد بن عقيل الأيلي: (ت198هـ)

روى الحديث عن عمه عقيل بن خالد، وروى عنه محمد بن عزيز

(1) الأمير الحافظ ابن ماكولا: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، ج1، ص127؛ وانظر ابن حجر العسقلاني: تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ج7، ص255، 256؛ الغوانمة، أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص111.

(2) الطبقات، ج7، ص520.

(3) ابن حجر: المصدر السابق، ج11، ص450،451؛ الغوانمة، ص112.

(4) الغوانمة: أيلة (العقبة)، ص113،112.

الأيلي[1].

5. عنبسة بن خالد بن يزيد بن أبي النجاه الأيلي: (ت 198).
روى الحديث عن عمه يونس بن يزيد الأيلي السابق ذكره[2].

6. خالد بن نزار بن المغيرة بن سليم الغساني الأيلي: (ت222هـ): ويكنى أبا يزيد روى عن إبراهيم بن طهمان، وعن مالك والقاسم بن مبرور، والأوزاعي، ونافع بن عمر الجمحي، وابن عينيه، وابن أبي الزناد، ومحمد بن ادريس الشافعي، ويذكر ابن حجر أن خالد بن نزار من أقران الشافعي، ووصفه بأنه ثقة ويخطئ. وروى عن خالد بن نزار كلٌ من أحمد بن صالح المصري وأبو الطاهر بن السرح وابنه طاهر بن خالد ومحمد وعبدالله بن عبد الحكم، وهارون بن سعيد الأيلي وجماعة[3].

7. هارون بن سعيد بن الهيثم الأيلي السعدي مولى بني سعد بن بكر (ت 253هـ): أبو جعفر، روى عن ابن عينيه وابن وهب، وأبي ظمرة، وخالد بن نزار، وآخرون، وروى عنه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وأبو حاتم ومحمد بن وضاح، ووصفه ابن حجر بالثقة، وأنه كان فقيها من أصحاب ابن وهب، وانه كان مقدماً في الحديث فاضلا[4].

8. محمد بن سعيد الأيلي (ت258) محدث روى عن أخيه هارون بن سعيد[5].

9. إسحاق بن إسماعيل بن عبد الأعلى بن عبدالحميد الأيلي: (ت 258) أبو يعقوب، روى عن سفيان بن عينيه وعبد المجيد بن عبد العزيز بن ابي رواد، وسلامة بن روح وغيرهم، وروى عنه النسائي وابن ماجه ومكحول. توفي بأيلة[6].

---

(1) ابن ماكولا: الإكمال، ج1، ص128؛ ابن حجر: المصدر السابق، ج9، ص345؛ الغوانمة، ص113.
(2) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص128؛ والغوانمة، ص113.
(3) ابن ماكولا: الإكمال، ج1، ص125؛ ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج3، ص123.
(4) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص130؛ ابن حجر: المصدر السابق، ج11، ص7، والغوانمة، ص114.
(5) الغوانمة: المرجع السابق، ص114.
(6) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص129؛ ابن حجر: المصدر السابق، ج1، ص226.

10. عبد الجبار بن عمر الأيلي: (ت270.260هـ): يصفه ابن سعد بأنه ثقة، وابن ماكولا يصفه بأنه منكر الحديث، وروى عن محمد بن المنكدر وابن شهاب، وروى عنه إسماعيل بن عياش وغيره، ووصفه كلٌ من البخاري والترمذي وابن أبي حاتم وأبو داود والدوري بالضعف[1].

11. محمد بن سلام بن عبد الله بن عقيل بن خالد الأيلي: (ت 263هـ) من أسرة عقيل الأيليين رحل إلى العراق واستقر بسامراء، روى الحديث عن يونس بن يزيد الأيلي، وروى عنه أبوبكر محمد بن يزيد وخالد بن نزار، وطاهر بن خالد، والطبري[2].

12. محمد بن عزيز بن عبد الله بن زياد بن خالد بن عقيل الأيلي (ت 267هـ): مولى بني أميه، روى عن عمه سلامة بن روح وسليمان بن سلمة الخبائري، وروى عنه النسائي وابن ماجه وأبو داود في غير السنن، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم، ويصفه ابن حجر نقلاً عن المحدثين مرة بأنه لا بأس به، ومرة بأنه ليس بثقة وضعيف، ومرة صدوقاً. توفي بأيلة[3].

13. عبدالرحمن بن هارون بن سعيد بن الهيثم الأيلي (ت 278هـ): اشتغل بتدريس الحديث وروايته[4].

14. حسان بن أبان بن عثمان الأيلي (ت 322هـ) من رهط خالد بن نزار توفي بدمياط[5].

15. إبراهيم بن عون الأيلي حدث عن عثمان بن المهلب الأيلي، وحدث عنه عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم[6].

16. إبراهيم بن عقيل الأيلي: من أسرة علمية محدثه، روى عن أبيه، وروى

(1) الطبقات، ج2، ص520؛ الإكمال، ج1، ص128.
(2) الغوانمة: أيلة..، ص115.
(3) تهذيب التهذيب، ج9، ص344، 345.
(4) الغوانمة: المرجع السابق، ص116.
(5) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص130.
(6) ابن ماكولا، الإكمال، ج1، ص128.

عنه ابنه عقيل، وعلي بن القاسم[1].

17. أيوب بن سليمان بن عبد الواحد بن أبي حجر الأيلي: روى عن بكر بن صدقة وروى الحديث عن والده[2].
18. إسماعيل بن صخر الأيلي: روى عنه محمد بن جعفر بن أبي كثير[3].
19. أبو علي بن يزيد الأيلي: أخو يونس، روى عن أخيه يونس[4].
20. الحكم بن محمد السعدي من آل هارون بن سعيد الأيلي، روى عن إبراهيم بن مرزوق وغيره[5].
21. الحكم بن عبد الله بن سعد بن عبد الله الأيلي: يقال مولى الحارث بن الحكم بن أبي العاص، يكنى أبا عبد الله، سمع أنس بن مالك، ويصفه ابن ماكولا بأنه منكر الحديث[6].
22. حكيم بن رزيق بن حكيم الأيلي حدث عنه ابن المبارك[7].
23. حسين بن رستم الأيلي: أمير أيلة في خلافة عمر بن عبد العزيز الأموي، روى عن عطاء بن يسار ومحمد بن المنكدر وهشام بن عروة، روى عنه مالك بن أنس وسعيد بن أبي أيوب، وهمام بن نافع[8].
24. خالد بن يزيد بن عبد الله الأيلي مولى قريش حدث عن أبيه عن الحكم بن عبد الله بن سعد، أبو يزيد[9].
25. خالد بن يزيد بن محمد الأيلي أبو الوليد، روى عن والده يزيد بن محمد الأيلي[10].

(1) المصدر السابق، ج1، ص128.
(2) المصدر السابق، ج1، ص129.
(3) المصدر السابق، ج1، ص127.
(4) المصدر السابق، ج1، ص127.
(5) المصدر السابق، ج1، ص130.
(6) المصدر السابق، ج1، ص127.
(7) المصدر السابق، ج1، ص127.
(8) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج7، ص52؛ ابن ماكولا: الإكمال، ج1، ص128.
(9) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص129.
(10) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص130.

26. داود بن أيوب بن سليمان بن عبدالواحد الأيلي حدث عن أبيه، وعن هشام بن عمار وإبراهيم بن المنذر[1].

27. رجاء بن جميل بن ثوبان الأيلي، روى عن المسيب والقاسم بن محمد وسالم والزهري، وحدث عنه عنبسه بن خالد وضمرة بن ربيعة[2].

28. رزيق بن حكيم أبو حكيم الأيلي، يصفه ابن سعد بأنه كان ثقة، روى عن سعيد بن المسيب، وروى عنه عمرو بن الحارث، وسفيان ابن عينيه وابنه حكيم[3].

29. زياد بن عقيل الأيلي، يروي عن أسماء بنت أبي بكر، وروى عنه ابن أخيه عقيل بن خالد[4].

30. زهير الأيلي يروي عن ابن عباس، وروى عنه يحيى بن أبي عمرو السيباني[5].

31. سعد بن عبد الله بن سعد الأيلي، روى عن محمد بن كعب القرظي، والقاسم بن محمد، وروى عنه ضمرة بن ربيعة، وينقل ابن حجر وصف المحدثين له بأنه لابأس به وأنه ثقة[6].

32. سعيد بن عبد الله بن سعيد الأيلي: يروى عن عقيل بن خالد، وروى عنه عمر بن طلحة[7].

33. سعيد يزيد الأيلي روى عنه أخوه يونس[8].

34. سعدان بن سالم الأيلي أبا الصباح روى عنه القاسم بن أبي أيوب

(1) الغوانمة: أيلة..، ص118.
(2) ابن ماكولا: المصدر السابق، ص127.
(3) الطبقات: ج7، ص520؛ ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص127.
(4) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص129.
(5) المصدر السابق، ج1، ص126.
(6) تهذيب التهذيب، ج3، ص376.
(7) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص129.
(8) المصدر السابق، ج1، ص128.

وبكر بن مضر وابن المبارك وضمرة وخالد بن نزار، وينقل ابن حجر عن صفته أن أبا داود أثنى عليه، وذكره ابن حيان في الثقات(1).

35. طلحة بن عبدالملك الأيلي، يصفه ابن سعد بأنه ثقة وروى عنه مالك بن أنس وغيره(2).

36. عقيل بن إبراهيم بن عقيل بن خالد الأيلي روى عن أبيه عن جده، وروى عنه يحيى بن عثمان بن صالح(3).

37. عمر بن سعد الأيلي، حدث عنه عمر بن زبان الأيلي(4).

38. عمر بن زبان الأيلي، روى عن عمر بن سعد الأيلي، وروى عنه حسن بن علي الحلواني(5).

39. يحيى بن صالح الأيلي، روى عن اسماعيل بن أميه، وروى عنه يحيى بن عبد الله بن بكير(6).

40. يزيد بن عبد الله الأيلي، روى عن الحكم بن عبد الله بن سعد، وروى عنه ابنه خالد بن يزيد(7).

41. يزيد بن محمد الأيلي، روى عن يونس بن يزيد وابن لهيعة، وروى عنه الفسوي، وإسماعيل بن عبد الله الاصبهاني (سمويه)(8).

42. يزيد بن يونس الأيلي: روى عن أبيه، وروى عنه ابن وهب ومحمد بن مهدي الاخميمي(9).

43. يزيد بن أبي سميه الأيلي أبا صخر يصفه ابن سعد بأنه صالح الحديث.

(1) ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص128؛ تهذيب التهذيب، ج1، ص7.
(2) الطبقات، ج7، ص519.
(3) ابن ماكولا: الإكمال، ج1، ص129.
(4) المصدر السابق، ج1، ص128.
(5) المصدر السابق، ج1، ص128.
(6) المصدر السابق، ج1، ص128.
(7) المصدر السابق، ج1، ص129.
(8) المصدر السابق، ج1، ص129.
(9) المصدر السابق، ج1، ص129.

روى عن ابن عمر وعمر بن عبد العزيز وأبي بكر بن عبدالرحمن وهشام بن إسماعيل، وروى عنه هشام بن سعد المدني وأبو الصباح سعدان بن سالم، وعبدالجبار بن عمر وحسين بن رستم الأيليون، وينقل ابن حجر قول أبي زرعة بأنه ثقة، وقول الواقدي إنه كان من العباد(1).

وقد تم بحمد الله الوقوف على موقع آثار مدينة أيلة الإسلامية وتصويره فتوغرافياً بتاريخ 6/ 4/ 1420هـ الموافق (19/ 7/ 1999م).

وقد أُجْرِيت على الموقع دراسات آثارية وأعمال تنقيب في الفترة الواقعة ما بين 1986.1993م قام بها فريق تابع للمعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو بإشراف الأستاذ الدكتور دونالد ويتكومب، حيث أسفرت الدراسة والتنقيب عن اكتشاف بقايا مدينة تتخذ شكلاً مستطيلاً تقدر أبعادها 160 × 120م. وقُدِّر تاريخ الإنشاء بناء على اللقى الفخارية إلى (القرن الأول الهجري) منتصف القرن السابع الميلادي، واستمرت السكنى إلى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي أي إلى نهاية القرن السادس الهجري تقريباً.

ويتخذ شكل المدينة مستطيلاً ينحصر في مساحة تقدر بـ(19200م2) وسمك الجدران المحيطة بها والمشيدة بكتل حجرية ما بين (1.5.2.6م) وما تزال قائمة إلى اليوم بارتفاع يتراوح ما بين (3. 4.5م).

وللمدينة أربع بوابات هي باب مصر في منتصف السور الشمالي الغربي ويقابل باب الحجاز في منتصف السور الجنوبي الشرقي، وباب البحر في السور الجنوبي الغربي وباب الشام في منتصف السور الشمالي الشرقي، وعلى كل بوابة برجان يتخذان شكلاً بيضاوياً.

وأظهرت الدراسة بيتاً يُستدل من موقعه وزخرفته أنه بيت الوالي أو دار الإمارة. كما بينت الدراسة والتنقيبات بمحاذاة السور مرور بنائه بثلاث مراحل

(1) الطبقات، ج7، ص519؛ ابن ماكولا: المصدر السابق، ج1، ص126؛ تهذيب التهذيب، ج11، ص334؛ الغوانمة: المرجع السابق، ص122.

تاريخية:

1. الإسلامية المبكرة الأولى (الراشدية والأمويين) 800.650 م.

2. الإسلامية المبكرة الثانية (العباسية المبكرة) 950.800م.

3. الإسلامية المتوسطة الأولى (العباسية المتوسطة والفاطمية) 1100.950م.

وبُنيت الأبراج في أركان المدينة على امتداد الاسوار المحيطة، وتم الاستفادة منها عسكرياً وتجارياً، وفي الجانب التجاري لخزن السلع، حيث تخزن السلع وتعرض على القوافل التجارية بيعاً أو نقلاً بطريق البر أو البحر.

وبرزت أهمية أيلة التجارية خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين، حيث عثر على جرار السيلادون والأواني الخزفية المزججة والأسرجة والقدور والدنانير الفاطمية.

كما أن النشاط التجاري الذي عاشته أيلة خاصة التجارة البحرية خلال فترة الخلافة العباسية والفاطمية «العبيدية» انعكس على التغيرات التي طرأت على بوابة مصر، مما يدل على أن باب البحر كان قد أصبح المدخل الرئيسي والهام بالمدينة.

وأما عن مسجد المدينة فيقع في المنطقة التي تتوسط بوابة الشام وبيت الإمارة. كما تم الكشف عن عدد من البيوت السكنية في عدة مناطق من المدينة[1].

وقد كان مسجد المدينة بجانب مهمته الأساسية- مكاناً لإقامة الصلوات ساهم في خدمة الاجتماعات السياسية والقضائية، وكان ملتقى لتدريس العلوم الشرعية.

ويرى بعض الباحثين أن مخطط المدينة قد استفاد من التخطيط البيزنطي للجدران والأبراج والشوارع، وبالتالي أصبحت مدينة أيلة الإسلامية مزيج من

(1) رائد رزق محمد الشرع: مدينة أيلة، رسالة ماجستير، ص84.55.

الخبرات البيزنطية والاتجاهات الإسلامية المتمدنة[1].

أما اسم العقبة فبرز في العصر المملوكي، حيث كانت المدينة تذكر بأيلة أو عقبة أيلة ردحاً طويلاً من الزمن، حتى غلب اسم العقبة عليها في العصر المملوكي[2].

العقبة في اللغة:

الطريق الوعر في الجبل والجمع عقب، وعقاب، وعقبات[3]. وكأن الطريق إلى أيلة يمر عبر عقبات، فأخذت الاسم من ذلك. ويشرف على خليج العقبة شرقاً جبال عالية هي جبال «الشرف» وجبل «اللوز» وجبال «حسمى» وقمم «رم»، ومن الغرب تشرف عليه جبال تحول بينه وبين صحراء سيناء هي جبال «طور سيناء»[4].

وقد قامت العقبة على أنقاض أيلة، وقد كانت منسوبة إلى العقبة فيقال: «عقبة أيلة» حتى طغى اسم العقبة وتوسعت المدينة فأصبحت أيلة نفسها جزء من العقبة.

وتملك العقبة عدة آثار تاريخية هامة مثل القلعة المملوكية التي شاهدها الباحث (بتاريخ 6/ 4/ 1420هـ الموافق 19/ 7/ 1999م) وتجول في جنباتها والتقط عدة صور فتوغرافية لها خاصة النص المبرز لاسم السلطان المملوكي قانصوه الغوري [5] في القرن العاشر الهجري، وهذه القلعة أو خان العقبة كما يسميها الغوانمة الذي يؤكد بالأدلة التاريخية أن القلعة لم تُبن في عهد

(1) سوسن الفاخري: "أيلة" مقال، مجلة آثار الأردنية، العدد الثاني، ص55.
(2) يوسف غوانمة: (أيلة والبحر الأحمر ...)، ص16.
(3) ابن منظور: لسان العرب، ج1، ص621.
(4) حمود القثامي: معجم المواضع والقبائل والحكومات، "شمال الحجاز"، ج2، ص11.
(5) سلطان مملوكي جركسي، مستعرب، خدم السلاطين، وبويع بالسلطنة في القاهرة، بنى الآثار المتعددة، هزم في معركة مرج دابق بالشام أمام العثمانيين، ومات قهراً وضاعت جثته 922هـ انظر الزركلي: الأعلام، ج5، ص187.

السلطان قانصوه الغوري 906هـ.922هـ كما يشير بذلك النص[1] المنقوش على مدخل القلعة، بل بُنيت في فترة سابقة في العهد المملوكي، ويرجح أن الذي أمر بإنشائها السلطان الملك الظاهر بيبرس 776.658هـ[2]، لأن بيبرس ومن أتى بعده من السلاطين اهتموا ببناء الأبراج في جميع بلاد الشام، وكانت هذه الأبراج عبارة عن قلاع صغيرة أُستهدف منها تدعيم الدفاع عن الساحل، فبرج العقبة يقوم بمهمتين خاناً للتجار والمسافرين وأيضاً برجاً حصيناً لحماية التجار والحجاج ما بين مصر والأراضي المقدسة، وتأمين التجارة البحرية. ومن الأدلة رنك بيبرس (أي خاتمه وتوقيعه أو علامته) الأسد الذي يشاهد على البرج الشمالي الشرقي من القلعة، وكذلك الإشارات التي وردت لدى عدد من المؤرخين مثل أبي الفدا والمقريزي التي تقطع بسبق بناء القلعة لفترة حكم قانصوه الغوري، واقتصر دور السلطان قانصوه الغوري على ترميمه وتجديده وتدعيم بنائه لمواجهة القوة البحرية البرتغالية في القرن العاشر الهجري، ولحماية قوافل الحجاج من هجمات الأعراب[3].

ومن المعالم التاريخية أيضاً التي قد تُسجل للعقبة؛ قلعة جزيرة فرعون وهذه الجزيرة حالياً تحت السيادة المصرية، وتقع هذه الجزيرة[4] في خليج العقبة جنوب طابا وعلى مسافة (8) أميال (12كم) إلى الجنوب الغربي من العقبة وتبعد 250 متراً من ساحل سيناء، وقلعتها تعرف باسم قلعة فرعون وتتكون من مباني قلعتين تامتين تماماً، بحيث تستطيع أن تعمل كل منهما بمفردها إذا ما حوصرت إحداهما أو استولي عليها، ويطلق عليها سكان المنطقة القلعة أو القليعة أو «القريّة» بتشديد الياء، ومرجح أنها بنيت في عهد صلاح

(1) انظر صورة النص ص 376.

(2) سلطان مملوكي بويع بالسلطنة عام658هـ وتلقب بالظاهر، صاحب فتوحات وآثار، وكان شجاعاً جباراً وفي أيامه انتقلت الخلافة للديار المصرية وتوفي بدمشق676هـ، وأقيمت حوله المكتبة الظاهرية. انظر الزركلي: الأعلام، ج2، ص79.

(3) أيلة (العقبة) والبحر الأحمر: ص129، 130.

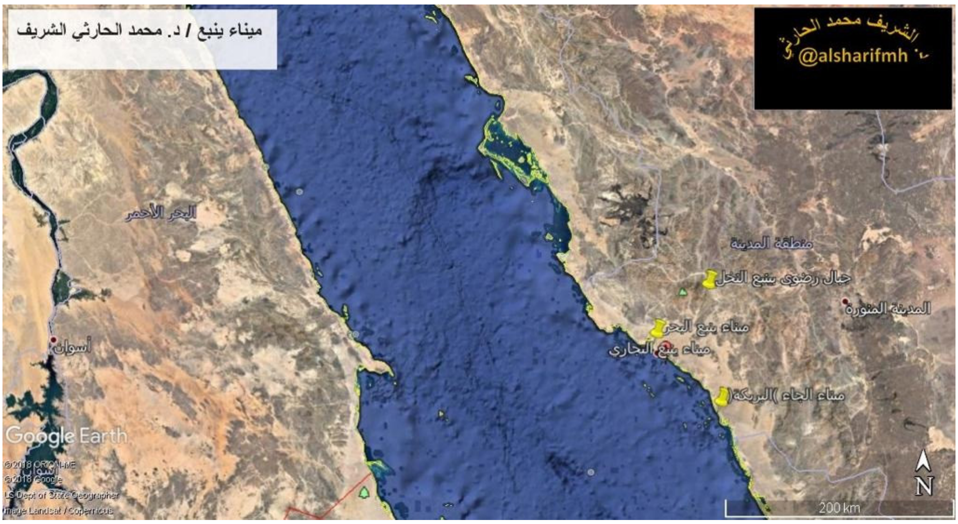
(4) انظر خريطة الجزيرة ص 377.

الدين الايوبي، وكان لها دور في الحروب الصليبية[1].

ومن الجدير ذكره أن **مدينة إيلات** التي أنشأها اليهود بعد أن احتلوا القرية العربية «**أم الرشراش**» بتاريخ 10/ 3/ 1949م، وأطلقوا عليها اسم «إيلات» ليست أيلة الإسلامية التاريخية التي تقع داخل حدود مدينة العقبة الحالية.

وأم الرشراش تقع بجوار العقبة وكلاهما على رأس خليج العقبة والمسافة لا تذكر بينهما. وقد تمكن- أعداء الله- بذلك من بناء ميناء لهم على البحر الأحمر وبالتالي عزل سكان الجزيرة العربية من الذهاب براً إلى سيناء، بل وأطلقوا على خليج العقبة اسم خليج إيلات[2].

يَنْبُع[3] :



يَنْبُع بالفتح ثم السكون وضم الموحدة، وعين مهملة، مضارع نَبَعَ، ونَبَعَ الماءُ: ظهر. وسميت يَنْبُع بذلك لكثرة ينابيعها. قال الشريف سلمة بن عياش

(1) أحمد رمضان احمد: شبة جزيرة سيناء، 1397هـ. 1977م، ص166، 167؛ الغوانمة: المرجع السابق، ص125.
(2) حمود القثامي: معجم المواضع والقبائل والحكومات (شمال الحجاز)، ص9، 10.
(3) انظر الخرائط والصور عن ينبع في ملاحق البحث، ص378-380.

الينبعي: عددت بها مائة وسبعين عيناً [1].

وتقع على خط عرض (24.6) شمالاً، وخط طول 380.3 شرقاً[2]. وتلك يَنْبُع الميناء أو الثغر البحري أو ما تسمى حديثاً «ينبع البحر» التي لا تبعد كثيراً عن «يَنْبُع النخل»، وفي الفترة الإسلامية المبكرة كانت الأحداث ترتبط أكثر بينبع النخل، ومن العهد الأيوبي وما بعده ارتبطت الأحداث بيَنْبُع البحر والنخل على السواء حتى نهاية العهد المملوكي. وما إضافة البحر إلا للتفريق وإن كانتا لا تختلفان في القبائل والعادات والتاريخ المشترك، وتمثل ينبع النخل الجزء الأعلى من المدينة، ويَنْبُع البحر تشكل الجزء الأدنى منها، وينبع البحر جزء أصيل من ينبع النخل وما المسافة الموجودة بينهما اليوم إلا مناطق العيون التي اندثرت معالمها، ومما يؤكد تلاحمهما وأنهما بلدة واحدة قول العباس بن الحسن للرشيد:

(يا وادي القصر نعم القصر والوادي	**من منزل حاضر إن شئت أو بادي)**
(تلقى قراقيره بالعقر واقفة	**والضب والنون والملاح والحادي)**

فجمع الشاعر بين السفن ومرفأها والملاح، وحادي الإبل[3] (والضب صيد البر والنون صيد البحر).

ويحددها عرام السلمي (المتوفى في القرن الثالث) على أنها يمين رضوى الجبل ويصفها بأنها قرية كبيرة غناء، سكانها من الأنصار وجهينة وليث وفيها عيون[4]. ويصفها الإصطخري (ت340) بأنها حصن به نخل وماء وزروع، وبها

(1) الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، ص440؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1334.

(2) محمد أحمد الرويثي: الموانئ السعودية على البحر الأحمر، ص298؛ انظر خريطة «يَنْبُع" التخطيطية: 500.0001، لوحة رقم NG 37 . S 77، طبعت عام 1404هـ وزارة البترول والثروة المعدنية؛ خارطة طرق المواصلات: 1: 3000.000 وزارة المواصلات.

(3) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، ج5، ص2221؛ عبد الكريم محمود الخطيب: تاريخ ينبع، الطبعة الأولى، 1405 . 1985، مطابع الشرق الأوسط، الرياض، ص12.

(4) أسماء جبال تهامة وسكانها: ص8.

وقوف لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه يتولاها أولاده، ويصف جبل رضوى بأنه أخضر ويرى من يَنْبُع[1].

وقد أقطع النبي صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله عنه أربع أرضين في يَنْبُع هي الفقيرين وبئر قيس، والشجرة، وأقطعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَنْبُع مضافة إلى غيرها. وينسب إلى كُثِّير قوله:

أهاجتك سلمى أم أجد بكورها	وخفت بأنطاكي رقم خدودها
على هاجرات الشول قد خف خطرها	وأسلمها للضاعنات حضورها
قوارض حفني بطن يَنْبُع خطرها	قواصد شرقي العناقين عبرها

وممن ينسب إلى يَنْبُع أبو عبد الله حرملة المدلجي له صحبة ورواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم[2].

ومن أبرز من نسب إلى ينبع من التابعين عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو محمد تابعي من أهل المدينة كان ذا عارضه وهيبة ولسان وشرف، وكانت له منزلة عند عمر بن عبد العزيز، ويقول الخطيب البغدادي ما رأيت أحداً من علمائنا يكرمون أحداً ما يكرمون عبد الله بن حسن، وعنه روى مالك الحديث، ويضيف أن لعبدالله بن الحسن رواية عن أبيه وعن أمه فاطمة بنت الحسين، ويروي عنه سوى مالك عبد العزيز بن محمد الداراوردي والمنذر بن زياد الطائي.

وكان واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد شيخا المعتزلة يأتيان إليه في بلدته (سويقة) يتلقيان عنه العلم، وأنجب من الأبناء من كان لهم أثر بارز في العالم الإسلامي أمثال محمد (النفس الزكية) وأخوه إبراهيم، (مع العلم أن إبراهيم هذا هو جد الأشراف أهل «ينبع»).

(1) المسالك والممالك: ص25؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص32.
(2) الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة، ص440؛ وانظر السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1334.

وكذلك من الأبناء يحيى الذي خرج في عهد الرشيد، وسليمان الذي قتل بفخ وإدريس الذي هرب إلى المغرب وموسى الذي حبسه المنصور.

وقد ولد عبد الله بن الحسن سنة 70، وتوفي في سجن أبي جعفر المنصور في الكوفة سنة 145هـ(1).

ومن الشعراء العباس بن الحسن من أهل القرن الثاني الهجري ومحمد ابن صالح الحسني من أهل القرن الثالث الهجري. ومن الجغرافيين مسعر بن مهلهل الخزرجي من أهل القرن الرابع الهجري، وكذلك الشريف قتادة الذي أسس الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة في القرن السادس الهجري حتى الرابع عشر الهجري(2).

ومن علماء يَنْبُع «محمد بن أبي بكر بن عبد العزيز بن محمد أبوعبدالله عزالدين الكناني» ولد في ينبع عام 749هـ، وعُرف باسم «ابن جماعة» من تلاميذ ابن خلدون واشتهر بعلم اللغة والبيان والأصول(3).

ويتوسع عبد الكريم الخطيب في الحديث عنه نقلاً عن ابن خلدون الذي التقاه في يَنْبُع عام (789هـ) والمقريزي والسيوطي بأن ابن جماعة عالم متفنن متكلم جدلي نظار نحوي لغوي بياني أخذ عن السراج الهذلي والضياء القرحي، وابن خلدون والتاج السبكي وأخيه البهاء وغيرهم، وله من المؤلفات الكثير، وبرز في الحكمة والطب وصناعة النفط والكيمياء، وكان يجله كثيراً ابن خلدون، وتوفي بالقاهرة عام 819هـ ذلك هو محمد بن جماعة الينبعي(4).

وممن ينسب إلى ينبع مولداً تقي الدين ابن دقيق العيد (محي الدين أبي

---

(1) أحمد بن علي أبوبكر الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، ج9، ص432431؛ وانظر الأعلام للزركلي، الطبعة الرابعة عشر، 1999، دار العلم للملايين، بيروت، ج4، ص78؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص137، 138.

(2) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص11.

(3) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص118.

(4) تاريخ ينبع، ص92، 93، (وقد عاش ابن جماعة في ينبع 40 عاماً وتلقي العلم فيها واتجه لمصر لمزيد من التعلم والتعليم حتى توفي بالقاهرة).

الحسن علي بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري النسب، المنفلوطي الأصل الينبعي المولد، القصصي المربي القاهري المنزل) وكان مولده بينبع في الخامس والعشرين من شعبان سنة 625هـ، وتوفي سنة 702هـ اشتهر بمعرفته الواسعة للفقه والأسانيد والمتون، وتولى الافتاء في المذهبين المالكي والشافعي وأقرأ الحديث بالكاملية، وتولى قضاء قضاة الشافعية بمصر[1].

أما قرى يَنْبُع فقد ارتبطت بكثير من الأحداث التاريخية الهامة على مدار الفترة الإسلامية خاصة المبكرة منها.

ومن أهم هذه القرى:

1. **البغيبغه:** بإعجام الغينين تصغير البغبغ، وهي البئر القريبة الرشاء، ولما صارت ينبع لعلي رضي الله عنه جعل عيون البغيبغات صدقة على المساكين وابن السبيل، وارتبطت بهذه القرية أحداث سياسية في عهود مختلفة.
2. **البليدة:** قرية لآل علي.
3. **سويقة:** تصغير ساق، يسكنها آل علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهي أيضاً عين عذبة كثيرة الماء. وارتبطت أيضاً بأحداث سياسية عرّضتها لكثير من الاضطرابات، بل إلى الحرق في عدة مرات و عقر نخلها وتخريب منازلها.
4. **العشيرة:** تصغير عشرة من العدد، أو تصغير عُشَرة واحدة العشر للشجر المعروف، وهي حصن صغير يُفضل تمره على سائر تمور الحجاز، وفي هذا المكان كانت غزوة العشيرة على زمن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفي الوقت الحاضر تغير اسمها إلى القرية أو «القريّة» تصغير

(1) القاسم بن يوسف التجيبي السبتي: مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب ليبيا، 1975م، ص37.16.

قرية [1].

5 . **العلقمية**[2]: ارتبطت هذه القرية بأنها كانت موطن قتادة أمير مكة ومؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة من القرن السادس إلى الرابع عشر الهجري[3].

وقد تم الوقوف على بعض هذه القرى والمواقع الأثرية والتقطت بعض الصور الفوتوغرافية لمسجد العشيرة[4] المرتبط بغزوة العشيرة وجبل رضوى ومواقع أخرى بتاريخ 27/ 3/ 1420هـ. ورغم اندثار بعض هذه القرى لقلة الماء ولنضوب الآبار إلا أنه لا تزال هناك بعض الآثار في ينبع النخل كالنقوش الكوفية القريبة من سويقة، ونقوش جبل لؤلؤة، وبقايا الحصون القديمة.

وكذلك ما نُسب إلى ينبع من آثار نبوية (شعرات من شعر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، ومكحلة ومرود وقطعة من قميص للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وسيف من سيوفه ومصحف لعثمان بن عفان رضي الله عنه وآخر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، نقلت إلى القاهرة في القرن السابع الهجري اشتراها الصاحب بهاء الدين بن حنا الوزير المملوكي[5] من أسرة بني إبراهيم من بني الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما من سكان مدينة ينبع[6]، واستقرت هذه الآثار الآن في مسجد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله

---

(1) الفيروز آبادي: المغانم المطابة ص 194/191/65/59؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1115/ 1155/ /1266/1239؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص19.12؛ وانظر أحمد عبدالحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص 221/225/320/280.

(2) انظر صورة بقايا قرية العلقمية، ص 380.

(3) الفيروز آبادي: المغانم المطابة ص 59/65/191/194؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1155/1115 /1266/1239؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص19.12؛ أحمد عبدالحميد العباسي: عمدة الأخبار في مدينة المختار، ص 221/225/320/280.

(4) انظر الصورة، ص 380.

(5) هو علي بن محمد بن سليم المصري (603-677) كان من أكابر رجال عصره حزماً وعزماً، ولد وتوفي بمصر وعين وزيراً في عهد الظاهر واستمر في عهد ابنه سعيد حتى توفي. انظر الزركلي: الأعلام، ج4، ص333.

(6) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص145 . 146.

عنهما المزعوم وجود قبره بمصر[1].

أما يَنْبُع البحر، فيضاف البحر للتفريق بينها وبين يَنْبُع النخل ولأنها تقع على ساحل البحر مباشرة، وهي ميناء المدينة، ورغم ما ذكر من أنها قد عُرفت كميناء حتى قبل ميلاد المسيح عليه السلام وأنها كانت تسمى في كتب اليونان القديمة (NERA) أو (NEGRA) إلا أن ميناء الجار سبق ميناء يَنْبُع على الأقل في الفترة الإسلامية المبكرة واكتسب شهرة كبيرة لم يكن لينبع الميناء وجوداً معه، ولم يظهر ميناء يَنْبُع إلا بعد انهيار واضمحلال الجار في أواخر القرن السادس الهجري، وعندما اختاره الأيوبيون عام 621هـ ميناءاً رئيسياً للمدينة المنورة، ودفعوا ثمنه للأشراف الحسنيين أصحاب يَنْبُع، وعاود الأشراف الاستيلاء عليه وتنقلت السلطة على الميناء ما بين الأشراف والأيوبيين والمماليك فيما بعد، وأصبح الميناء الثاني في الحجاز لنقل مؤن الحجاج، ومؤن عمارة الحرمين الشريفين بعد ميناء جُدة[2]، وقد نشأ الميناء على نقطة تقع بين شرم ينبع في الشمال ومصب وادي الفرعة في الجنوب، ويقدر متوسط ما بينهما (15كم) وبالتالي يصب في وادي ثمر، وهو بوابة المدينة المنورة، ومنفذ الحجاز الأوسط[3] ويبعد شرم يَنْبُع عن الميناء بحوالي 15كم شمالاً، وهو من المعالم الجغرافية الجميلة في ينبع، ويمتاز بمنظره الخلاب ومياهه الصافية، وتبرز حوله الصخور المرجانية، وهي بالتالي تساعد على حماية الشرم. وخليج ينبع لا يزيد عرضه عن 3 كم، وأضيق أجزائه $\frac{1}{2}$كم، وتنتشر فيه شعاب مرجانية وبينها جزر صغيرة، وانتشار الشعاب المرجانية في منطقة الميناء المائية ساهم في تمدد ممرات ضيقة نحو الشمال الشرقي والجنوب. ويتم الوصول إلى الميناء عن طريق قنال طوله 1609م وعمقه 10.36م. وساهم الموقع الطبيعي للميناء

(1) انظر: محمد قناوي: (المدينة في رحاب الآثار النبوية بالمسجد الحسيني) جريدة المدينة، العدد (13083) السبت 27/ 10/ 1419هـ، والعدد (13086) الثلاثاء 30/ 10/ 1419هـ.

(2) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص46. 50.

(3) محمد الرويثي: الموانئ السعودية، ص299.298.

على تطور مهمة الميناء من مرحلة صيد إلى ميناء تجاري وعسكري من القرن السابع حتى القرن العاشر الهجري[1].

وازدهرت يَنْبُع في عهد سلاطين المماليك الجراكسة نتيجة الإصلاحات المتعددة التي نفذت في طريق الحج ومشاعر الحرمين، وأدت بالتالي إلى زيادة عدد الحجاج، وأصبحت ينبع محطة برية وبحرية لحجاج مصر والشام، وأضحت سوقاً لبيع وشراء أنواعٍ مختلفة من البضائع، وساهمت بالتالي بدور فاعل في تجارة البحر الأحمر زمن المماليك[2].

3) الجــار[3]:



الجار ما قرُبَ من المنازل من الساحل[4]. وبتخفيف الراء هو الذي تجيره أن يُضام[5]. ويحدد عرام (المتوفى في القرن الثالث الهجري) موقع الجار بأنها

(1) محمد الرويثي: الموانئ السعودية، ص307.304.
(2) السليمان: علي بن حسين: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، القاهرة، 1393/ 1973، ص190.
(3) انظر خرائط وصور ميناء الجار في الملاحق، ص381-382
(4) ابن منظور: لسان العرب، مادة جور.
(5) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص92.

على شاطئ البحر «البحر الأحمر» ومرفأ السفن القادمة من الحبشة ومصر والبحرين والصين. ويصفها بأنها قرية كبيرة آهلة، وبها قصور كثيرة، مضيفاً إليها جزيرة في البحر مقابلة لها في الساحل وهي مرفأ الحبشة خاصة هي جزيرة «قراف»[1].

ولا يختلف عنه اليعقوبي (ت 284 أو 293هـ) الذي يصفها بأنها ساحل المدينة وتستقبل مراكب التجار والمراكب التي تحمل الطعام من مصر[2]. أما الإصطخري (ت 341هـ) فيصفها بأنها فرضة المدينة وعلى ثلاث مراحل من المدينة[3]. ويضيف الإدريسي (ت 560)، أن المراكب إليها قاصدة ومقلعة وليس بها كبير تجارات[4].

ويحددها ياقوت (ت 626) بأنها تقع على ساحل بحر القلزم وأن بينها وبين المدينة يوم وليلة، وبينها وبين أيلة نحو من عشر مراحل، وتبعد عن الجحفة بنحو ثلاث مراحل، وهي فرضة للسفن القادمة من الحبشة ومصر وعدن والصين، ويذكر أن شرب أهلها من البحيرة. وقد أصبح البحر الذي تطل عليه الجار يسمى بحر الجار من القلزم إلى جُدة[5].

ويضيف الحميري (ت 911) بأنها لها أسواق ومسجد جامع، ولها أحساء خارج المدينة، ولها مواجل لماء المطر، ومنها يصعد من أراد المدينة، ويقدر المسافة بين الجار وبدر بنحو عشرين ميلاً[6].

ويرى البلادي أن التقديرات للمؤرخين السابقين فيها شيء من الوهم والمبالغة، ومنها القول بأن بين الجار والمدينة يوم وليلة والصواب في رأيه بينها

(1) أسماء جبال تهامة: ص9، 10.
(2) البلدان: الملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رسته، ص313.
(3) المسالك والممالك: ص23.
(4) نزهة المشتاق، ج1، ص144.
(5) ياقوت: معجم البلدان، مادة الجار، ج2، ص92.
(6) الروض المعطار، ص153؛ ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة خالد البدلي، الطبعة الأولى، 1983.1403، جامعة الملك سعود، ص119.

وبين المدينة 200كم وعلى حساب القوافل القديمة خمس مراحل، من المدينة إلى الفريش أو السيالة متقاربتين، ثم الروحاء أو المنصرف لقربهما من بعض ثم الحمراء، ثم بدر، ثم البريكة «الجار».

ويصحح القول بأن بين الجار وأيلة «العقبة» عشر مراحل. والعشر مراحل لا تزيد عن 450كم بينما المسافة بين الجار والعقبة تزيد عن (1000كم)، مشيراً إلى أن المسافة بين مكة والمدينة 460 كم أي (11) مرحلة فقط[1].

وتقع (البريكة) التي هي ميناء الجار القديم على درجة 38/30ـ طول شرقاً، و23/40ـ عرضاً شمالاً[2].

وسبب إطلاق اسم البريكة على الجار لعله يعود إلى وجود البحيرة التي يفيض منها ماء وادي يليل، بالجار، فبعد اندثار الجار استمر ارتياد البدو رعاة الأنعام لهذه البحيرة، وأخذوا يطلقون عليها «البريكة» تصغير البركة.

وأما جزيرة قراف فما زالت ماثلة أمام الميناء (خليج البريكة) وتحمل عند العامة اسم «السلِّجيَّة» بكسر السين المهملة واللام مع تشديدها وبالجيم المكسورة المشددة بعد اللام فياء مفتوحة مشددة فتاء مربوطة[3].

وكان حمد الجاسر[4] يرى أن الرائس هي الجار التاريخية، إلا أنه بعد الدراسة والبحث وقيامه بجولة على الموقع عام 1390هـ تأكد له أن الجار هي البريكة الحالية وشاهد آثارها في مرتفع من الأرض يحفه البحر من جهتيه الغربية والشمالية، حيث يظهر رأس بحر ليس بعميق وتمتد البلدة غرباً في البحر لظهور بعض أساسات البناء القديم قد طمرتها المياه، فشاهد أمكنة

(1) معجم معالم الحجاز، ج2، ص104.

(2) حمد الجاسر: شمال غرب الجزيرة، الطبعة الثانية، 1981.1401، دار اليمامة . الرياض، ص192؛ وانظر لوحة الحجاز الجنوبي: أبحاث جيولوجية، خريطة رقم I-210B، وزارة البترول والثروة المعدنية، خريطة جزيرة العرب: 1: 2000.000؛ وخارطة طرق المواصلات 1: 3000.000، وزارة المواصلات؛ وخرائط ميناء الجار بملاحق البحث، ص381-382.

(3) عبدالقدوس الأنصاري (رحلة الجار): مجلة المنهل، جُدة، جماد الاولى 1391، س37، ص468.

(4) في شمال غرب الجزيرة، ص191.167.

المساكن وأكوام الرماد وكسر الزجاج والفخار وبقايا أسس أبنية، وآثار قناة، وأفواه حفر ضيقة.

ومن الآثار التي شاهدها الأنصاري في رحلته إلى الجار عام 1391هـ وجود آثار رصيف بحري متآكل ومتداعي بفعل الأمواج، وهو مبنى بالحجارة المنقبية البيض المنحوتة بناء قوياً، وأكوام مرتفعة ظهر تحتها حجارة منقبية لعلها أسس قصور ومباني، وآثار سور ممتد من البحر في الجنوب الغربي إلى الشمال الغربي ومن الشمال الغربي إلى الشمال الشرقي ومن الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي كما وجدت شظايا الزجاج الإسلامي متناثرة وملونة، وقطع الفخار الإسلامي القديم. ويرجح الأنصاري أن لسور مدينة الجار عدة أبواب تغلق مساءً وتفتح نهاراً أحدها ناحية المدينة المنورة، وأن في الأبواب أبراج للحراسة والمراقبة لأن سوقها كانت عامرة بالتجارة والبيع والشراء[1].

ويؤكد علي غبان[2] في دراسة آثارية أن بيوت الجار مبنية من الحجر المرجاني المستخرج من البحر أو المقطوع من محاجر الساحل، وأن بعض المستويات السكنية المتتابعة يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام، وأحدثها يرجع إلى القرن الخامس وبداية القرن السادس الهجري، مشيراً أيضاً إلى وجود أنظمة لتصريف المياه المستعملة.

وقد تم الوقوف على تلال هذه المنطقة التاريخية بتاريخ 28/ 3/ 1420هـ، ووجدت كثيراً مما ذكره الباحثون السابقون عن الموقع والميناء والخليج، وبعض الآثار التي طمرتها الرمال الناعمة، ومن بين تلك الآثار قطع الزجاج الملون.

وممن يُنسب إلى الجار من المحدثين أبوعبدالله سعد بن نوفل الجاري، مولى

(1) رحلة الجار، مجلة المنهل (سبق ذكره)، ص474،471، (الحجار المنقبية: الحجار البحرية المستخرجة من الشعاب المرجانية وتميل إلى اللون الداكن).

(2) الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى 1414هـ/ 1993م، ص21،18.

عمر بن الخطاب وعامله على الجار، وروى عنه ابنه عبد الله بن سعد. وعمرو بن سعيد الجاري، وروى عن ابن عمر رضي الله عنه وأبي هريرة، وروى عنه زيد بن أسلم، وعبدالملك بن أعين. ومن المحدثين أيضاً عبدالملك ابن الحسن الجاري الأحول مولى مروان بن الحكم يروى كما يذكر السمعاني المراسيل والمقاطيع، وروى عنه أبو عامر العقدي، وعمر بن راشد الجاري القرشي مولى عبدالرحمن بن أبان بن عثمان، يقال له الساحلي يضع الحديث على مالك وابن أبي ذئب وغيرهما من الثقات، ويشير السمعاني إلا أنه لا ينبغي أن يذكر إلا على سبيل القدح فيه، وسليمان بن محمد بن سليمان الأسلمي العساري الجاري المديني، روى عن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم وإسحاق بن إبراهيم ومالك بن أنس وابن أبي ذئب ونافع بن أبي نعيم، ويحيى بن محمد الجاري يروي عن الداراوردي، روى عنه مؤمل بن إهاب، يذكر السمعاني أنه يقع في المناكير في روايته، ويرى وجوب التنكب عما انفرد به من الروايات وإن احتج به محتج فيما وافق الثقات لم أر به بأساً. وممن نسب إلى الجار الصحابي عبد الله بن سويد الحارثي رضي الله عنه(1).

عوامل اندثار مدينة الجـار :

عاشت الجار في عهود ساد فيها الأمن وتوفرت فيها الخيرات التي تجلب للحجاز من مختلف الأقطار، وطوال تلك الفترة ظلت تعتمد على جيرانها في الطعام والشراب، فكان الطعام يُجلب من مصر والماء من الأدوية المجاورة للجار. لكن مما ساهم مباشرة في انهيار الجار من جملة أسباب أخرى هو اختلال الأمن في منطقة الجار وهجوم بعض القبائل العربية على المنطقة

(1) أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني: الأنساب، تعليق عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى، 1419ـ1998، دار الفكر، بيروت، ج2، ص10؛ ياقوت: معجم البلدان: مادة الجار، ج2، ص93؛ الأنصاري «رحلة الجار» ص494؛ الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص208، 209.

والفتك بها، كما حدث في سنة 230هـ عندما هاجمت قبيلة بني سُليم الجار فأوقعوا بناس من بني كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم، وكان على رأسهم عزيزة بن قطاب السلمي، وكان ذلك في خلافة الواثق بالله العباسي[1].

كذلك قد يعتبر الغزو الصليبي لبعض موانئ الحجاز في القرن السادس الهجري، وعدم قدرة ميناء الجار على صد الهجمات والغارات البحرية مما أدى إلى تفرق وهروب سكان الجار سبباً من الأسباب التي أدت إلى اندثار الجار. إلا أن اتخاذ الأيوبيين لينبع ميناءاً رسمياً للمدينة النبوية في عام 621هـ كان عاملاً مهما في تضاؤل شأن الجار وبالتالي اختفائها كميناء، واستمرت الجار كطريق بري للحِجاج للتزود بالماء من بحيرتها أو بركتها إلى القرن العاشر الهجري[2].

وبما أن ميناء الجار ميناء استيراد فقد أدى عدم وصول السفن من مصر أو غيرها إلى انهيار هذا الميناء. فإن انقطاع وصول السفن مع انعدام خدمة الظهير يؤدي لا محالة إلى زوال أي ميناء، فالموانئ لا يمكن أن تحيا دون تنظيم حركة وصول البضائع والسلع من مراكز الانتاج وبالتالي انتقالها إلى مواقع استهلاكها[3]. فساهم كل ذلك مجتمعاً في هجرة أهالي الجار وخاصة طبقة التجار، مما أدى في نهاية الأمر إلى زوال واندثار مدينة الجار وبقيت أثراً بعد عين وأكواماً من التلال وساحلاً خالياً من الحياة البشرية التي كان يعج بها فسبحان من له البقاء والدوام.

(1) تاريخ الطبري: المجلد الخامس، الطبعة الثانية 1408، 1988، دار الكتب العلمية، بيروت، ص278، وعزيزة المذكور أحد كبار قادة قبيلة بني سليم في زمانه كما يصفه الطبري. (وتفصيل الأحداث ص146).

(2) الأنصاري: رحلة الجار، ص493.486؛ حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص209؛ ضيف الله الزهراني: (الجار ميناء ومدينة) بحث في دررية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار) جمادى الأولى 1414، ص252.251.

(3) محمد أحمد الرويثي: التطور المكاني والتاريخي لموانئ شبة الجزيرة العربية، الطبعة الأولى 94/1995.1415، المدينة المنورة، ص87.86.

4) جُدة [1]:



الجُدُّ بالضم: شاطئ النهر، والجُدة أيضاً وبه سميت المدينة التي عند مكة جُدة. وجُدة كل شيء: طريقته وجُدَّتُه: علامته، وكل طريقة جُدة وجادة[2].

ويقول ياقوت: جُدة بالضم والتشديد، والجُدة في رأيه الطريقة[3]. وذلك موافق لما تبناه الأنصاري؛ وشدد عليه من أن الضبط الصحيح لصيغة جُدة الضم للجيم وتشديد الدال بعدها تاء مربوطة، ونقل عدة آراء لعدد من اللغويين والجغرافيين والمؤرخين تؤكد صحة ما ذهب إليه[4].

وتقع مدينة جُدة عند منتصف البحر الأحمر عند التقاء خط العرض 21، 29 شمالاً والطول 39.07 شرقاً[5]. على السهل الساحلي «سهل تهامة» ويحدها من الشرق مجموعة تلال صغيرة تليها سلاسل غير متصلة من الجبال الموازية

(1) انظر خريطة جُدة في الملاحق، ص383.
(2) ابن منظور: لسان العرب: ج3، ص108.
(3) معجم البلدان: ج2، ص114.
(4) موسوعة تاريخ مدينة جُدة، المجلد الأولى، الطبعة الثانية 1980.1401م، ص45.
(5) عبدالقادر بحيري: جُدة والبحر الأحمر "مقال" (جُدة عروس البحر الأحمر تقدم وحضارة)، إصدار من أمانة مدينة جُدة. الدار العربية للموسوعات، القاهرة، ص68.

لسلسلة جبال الحجاز[1].

ويتأثر مناخ جُدة تأثراً مباشراً بموقعها الجغرافي، فترتفع فيها نسبة الرطوبة غالب أيام العام، وتقل في فصل الشتاء[2].

وموقعها الجغرافي جعلها ملتقى لعدد من طرق المواصلات البرية والبحرية، فتحقق لهذا الموقع أن يكون رابطاً بين البر والبحر، فتبعد جُدة عن المدينة بـ 425كم وعن مكة 75كم وعن العقبة 950كم، وبذلك أصبحت جُدة بوابة مكة المكرمة[3].

أما الجغرافيون الأوائل فيصفونها بأنها فرضة مكة، يقول اليعقوبي (ت 284هـ) أن الخراج والصدقات والميرة تُحمل إلى مكة من مصر عبر ساحلها وهو جُدة[4]. كذلك يصفها الإصطخري (ت 340) بأنها عامرة كثيرة التجارات والأموال، وليس بالحجاز بعد مكة أكثر مالاً وتجارة منها، وجل تجارها في زمانه الفرس[5].

وقد زار ناصر خسرو (ت481) جُدة في عام (442هـ) أثناء إمارة الشريف شكر بن أبي الفتوح الملقب بتاج المعالي، وفي عهد الحاكم العبيدي في القاهرة المستنصر، والقائم بأمر الله العباسي في بغداد، ويصفها بأنها مدينة كبيرة ذات سور حصين، وإن عدد سكانها في زيارته لها يقدرون بنحو (5000) نسمة[6]. قريباً من هذا يصفها الإدريسي (ت560) بأنها عامرة بالتجارة وأهلها مياسير، ولها مراكب كثيرة تتصرف إلى جهات متعددة، وبها مصائد للسمك[7]. إلا أن ابن جبير (ت611) والذي زار جُدة يتحدث في رحلته الشهيرة عن أوضاع جُدة

(1) حمزة إبراهيم عامر: موقع مدينة جُدة وطبيعة أرضها، الدورية السابقة، ص65.
(2) أحمد إبراهيم: المناخ، الدورية السابقة، ص67.
(3) محمد أحمد الرويثي: الموانئ السعودية على البحر الأحمر، ص217.214.
(4) البلدان: ص317.
(5) المسالك والممالك: ص23؛ ابن حوقل، ص31.
(6) سفر نامة: ص135.
(7) نزهة المشتاق في افتراق الآفاق، ج1، ص139.

في زمانه، فيقول: إن أكثر بيوتها من أخصاص (بيوت من القصب والشجر) وأهلها يعيشون في شظف من العيش، مشيراً إلى آثارها ومساجُدها[1]. ووافقه أيضاً الرحالة القاسم بن يوسف التجيبي السبتي (ت730) الذي زار جُدة سنة (696هـ) فيقول بأن أهلها في زمانه من أشد الناس فقراً ومن أكثرهم على الجوع صبراً وقد تهدم أكثر بنائها، وشرب أهلها من جياب منقورة[2].

إلا أن الوضع تحسن كثيراً في القرن التاسع الهجري وما بعده، ويصفها الظاهري بأنه ربما يردها كل سنة ما يزيد عن مائة مركب، ومن ذلك مركب بسبعة قلوع وتؤخذ الموجبات والرسوم تحمل إلى أمير مكة ويشاركه فيها السلطان المملوكي الملك الأشرف أبو النصر برسباي[3]، وقد يصل متحصل جمرك جُدة (200.000) دينار في كل سنة قد يزيد وقد ينقص[4].

ويدل ذلك على زيادة دخلها بزيادة عدد الحجاج وقوة الحركة التجارية[5].

ومما تحدث عنه الرحالة السابقون؛ مساجد جُدة وآثارها فتحدثوا عن قبر حواء وما بُني عليه من قُبة وما قامت حوله من اعتقادات باطلة ما أنزل الله بها من سلطان ..! ومنهم من ذكر أنه موقع مزعوم وهو الصواب، ومن المساجد مسجد منسوب إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وقيل لعمر بن عبد العزيز رحمه الله، ومسجد الأبنوس له ساريتان من خشب الأبنوس وقد نسب إلى هارون الرشيد، وهو على الأرجح مسجد عثمان بن عفان رضي الله عنه وبعض السكان يسميه «زاوية ابن عفان» ومساجد وزوايا أخرى يذكرها ابن فرج[6]

(1) رحلة ابن جبير: ص53، 54.

(2) مستفاد الرحلة والاغتراب: تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا .تونس، 1975م، ص218 .222.

(3) (2) برسباي الدقماقي الظاهري صاحب مصر، جركسي الأصل ويصفه ابن إياس بأنه كان ملكاً جليلاً، إلا أنه يطمع في الأموال، وله أعمال في الحرم المكي. انظر الزركلي: الأعلام، ج2، ص48.

(4) خليل بن شاهين: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، المطبعة الجمهورية، 1894، ص16.13.

(5) علي بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص193.

(6) السلاح والعدة في تاريخ جُدة: تحقيق مصطفى الحدري، الطبعة الأولى 1408. 1988، دار ابن كثير،

والحضراوي[1].

وتحقق الأنصاري مما ذكر من أن صنماً يقال له سعد بجُدة فوجد أن جزيرة مجاورة لساحل جُدة تسمى سعد أو أبي سعد وأمامها سهل أفيح إلى ناحية الشرق، فترجح لديه أن الصنم كان في هذا السهل المقابل للجزيرة، وسميت الجزيرة باسمه.

ويورد قصة الراعي الذي ورد بإبله على الصنم ليتبرك به فلما أدناها من الصنم نفرت وتفرقت في كل وجه وأسف وتناول حجراً فرمى به الصنم «سعداً» وقال:

أتينا لسعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة في تنوفة[2] من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد[3]

وعن سكان جُدة ومن ينسب لها من المحدثين والعلماء يذكر ياقوت الحموي أن قضاعة وأبناءهم أول من سكن جُدة، بل إن من ولده من يسمى جُدة بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[4]. وارتبط اسم جُدة بالفرس في فترات تاريخية لم يثبت منها إلا في القرن الثالث والرابع الهجري «العاشر الميلادي» لكثرة ارتياد تجار الفرس وسيطرتهم على التجارة في الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر حتى أطلق كثير من الجغرافيين اسم بحر فارس على البحر الأحمر، بل واستوطنوا جُدة وغلبوا عليها وبنوا بها قصوراً، فأكثر صناع المراكب وملاحيها من الفرس[5].

دمشق، مكتبة دار التراث، المدينة، ص102.104.

(1) الجواهر المعدة في فضائل جُدة: مجلة العرب، ج11و12، ص13 (جمادى الثانية سنة 1399)، ص125.127.

(2) (3) التنوفة: البرية لا ماء فيها ولا أنيس. انظر المنجد، ص66.

(3) (4) موسوعة تاريخ جدة، ص 71-70.

(4) ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص115.

(5) جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة د/ السيد يعقوب بكر، مطابع دار الكتاب، مكتبة الانجلو المصرية، ص229.230.

وممن ينسب إلى جُدة عبدالملك بن إبراهيم الجدي، وقد قال فيه البخاري «حجازي سمع شعبة وسعيد بن خالد أبوعبدالله مولى بني عبد الدار القرشي مات 205 أو 204»، وزاد محمد بن طاهر المقدسي أنه روى عنه عبد الله بن منير المروزي في الشهادات، وذكره الحافظ المزي وقال: روى له البخاري مقروناً بغيره وأبو داود والترمذي والنسائي.

ومن المنسوبين إلى جُدة قاسم بن محمد الجدي، وكذلك جابر بن مرزوق الجدي[1]. ومن العلماء كذلك في القرن التاسع الهجري أبو المعالي عبدالرحمن الشيرازي، وقد حج الحافظ ابن حجر العسقلاني سنة 806هـ وعاد إلى جُدة وقرأ بها في المحرم سنة 807هـ على أبي المعالي وعاد إلى بلده مصر[2].

ويورد بعض المؤرخين الذين كتبوا عن جُدة كابن فرج[3] والحضراوي[4] عدداً من الأحاديث التي تنسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل جُدة، (وفضل المرابطة بها، ولكن لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم منها شيء) ومنها على سبيل المثال ما ورد في الطبقات، والاستيعاب؛ عن نوفل بن الحارث بن عبدالمطلب أنه لما أُسِرَ ببدر قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: افد نفسك يا نوفل، قال: ما لي شيء افدي به نفسي يا رسول الله، قال: افد نفسك برماحك التي بجُدة، قال: أشهد أنك رسول الله. ففدى نفسه بها وكانت ألف رمح. وأسلم نوفل بن الحارث، وكان أسن من أسلم من بني هاشم[5]. كما ناقش محقق مخطوطه ابن فرج جملة من الأحاديث، وأشار إلى

(1) السمعاني: الأنساب، ج2، ص32؛ مصطفى الحدري: محقق مخطوطة السلاح والعدة لابن فرج، ص23.22.

(2) الأنصاري: موسوعة تاريخ جُدة، ص186.185.

(3) السلاح والعدة في تاريخ جُدة: ص79.77.

(4) الجواهر المعدة في فضائل جُدة: مجلة العرب، العدد، ج5و6 س13، القعدة والحجة، سنة 1398، ص418، العدد، ج7/8 س13، محرم وصفر، سنة 1395، ص547.543.

(5) ابن سعد: دار صادر، بيروت، ج4، ص41؛ ابن عبد البر: الاستيعاب، ج4، ص75.

أنها وردت في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة[1].

5) الشعيبة [2]:



شعيبة تصغير شعبة، والشعبة: المسيل من الارتفاع إلى قرارة الرمل. والشعبة: المسيل الصغير، وقيل الشعبة ما انشعب من القلعة والوادي أي عدل عنه وأخذ في طريق غير طريقه فتلك الشعبة، والجمع شُعب وشعاب[3].

ويرى البلادي أن الشعيبة هي الوادي الذي يعرف اليوم بالشعيبة، ولكن دخل عليه تحريفاً، وفي رأيه أن اسمه القديم الشعبة. والشعيبة الميناء، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم وشهرته التاريخية تقدمه على الوادي[4].

وتقع الشعيبة بقرب الخط 20/59 على الشاطئ في جون من البحر يقع في الشمال الغربي من جبل شداد وعلى الشمال من مستابة «المصطبة» وهو في موقع «الشعيبة المقفلة» لأن الشعيبة الآن موضعان «الشعيبة المقفلة»

(1) مصطفى الحدري: محقق مخطوطة السلاح والعدة في تاريخ جُدة، ص21.20.
(2) انظر خرائط وصور عن ميناء الشعيبة في الملاحق، ص378-380
(3) ابن منظور: لسان العرب، مادة (شعب) ج1، ص499.
(4) معجم معالم الحجاز، ج5، ص73.72.

وغربها في داخل الجون البحري «الشعيبة المفتوحة»[1]. وقد وقف تم الوقوف على الموقعين والتقطت لهما صوراً فتوغرافية بتاريخ 2/ 5/ 1420هـ، ووجدت التسميات المحلية تطلق إما مغلقة أو مسدودة، وكان ذلك بعد الحصول والاطلاع على خريطة جيولوجية[2] وأخرى تخطيطية[3]، وبعد مراجعة ودراسة أبحاث ودراسات الجاسر والأنصاري اتضحت الصورة للموقع الحقيقي للشعيبة. والمتجه لها من جنوب مكة بحي الكعكية على طريق الجنوب الساحلي وبعد 60كم تقريباً ومن نقطة الأمن يُتجه غرباً في حدود 24كم تقريباً ليجد الشعيبة أمامه.

ويذكر الشعيبة ابن خرداذبة (ت 300) في الطريق من عُمان إلى مكة على الساحل مروراً بعدد من المنازل حتى الوصول إلى مكة[4]. ويرى ابن المجاور (ت 691) أن الشعيبة مرسى قديم وأنه كان قبل جُدة لأنه في رأيه لا يوجد في تلك النواحي مرسى أدنى منه ولا آمن عاقبه[5]. ويعلق الأنصاري على ذلك الرأي بأن من الواقع المشاهد أن جُدة أدنى من الشعيبة إلى مكة ولذلك طلبت قريش من الخليفة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه اتخاذ جُدة ميناء لمكة، أما عن قدم الشعيبة على جُدة فلا يمكن الإقرار به إلا إذا قُصد به من فترة اتخاذ عثمان رضي الله عنه جُدة ميناء رسمياً لمكة فبالتالي تعتبر الشعيبة أقدم[6].

(1) الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص173.172.
(2) خريطة رقم I-210B أبحاث جيولوجية، لوحة الحجاز الجنوبي، وزارة البترول والثروة المعدنية. (إن الموضع المسمى في الخريطة «مستابة Mastabah" صوابه "المصطبة" وأنه يقع شمالاً عن موضعه الذي رسم فيه في هذه الخريطة، وأن موقعه ينبغي أن يكتب فيه (الشعيبة المقفلة) إذ اسم الشعيبة يطلق على موضعين بالشاطئ أحدهما هذا الموضع والآخر غربه في داخل الجون ويدعى الشعيبة المفتوحة..) عن حمد الجاسر في شمال غرب الجزيرة: ص172 ولتعليل التسمية: بأن المقفلة يكاد يكون المدخل إليها مقفلاً بخلاف الأخرى، كما تبين الخرائط الملحقة انظرها.
(3) خارطة تخطيطية: 500.0001، لوحة رقم NF37 - SE . وزارة البترول والثروة المعدنية (خريطة مكة المكرمة).
(4) المسالك والممالك: ص148.
(5) تاريخ المستبصر: ص43.
(6) موسوعة تاريخ مدينة جُدة: ص61.59.

وارتبط ميناء الشعيبة تاريخياً بحادثة تجديد بناء الكعبة قبل مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بخمس سنوات، تلك الحادثة التي أوردها الأزرقي (ت 244هـ) تقريباً عندما عزمت قريش في الجاهلية على بنيان الكعبة فتصادف أن سفينة للروم أقبلت حتى إذا كانت بالشعيبة وهي يومئذ ساحل مكة قبل جُدة فانكسرت فسمعت بها قريش فركبوا إليها وأخذوا خشبها ورومياً كان فيها يقال له باقوم نجاراً بنّاء...)[1].

وعن وهب بن منبه قال: إن سفينة دفعتها الرياح إلى الشعيبة وهو مرفأ السفن من ساحل بحر الحجاز، وقد كان مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جُدة، فاستعانت قريش بخشب تلك السفينة في تجديد عمارة الكعبة[2].

وبعد اختيار عثمان بن عفان جُدة سنة 26هـ ميناء لمكة بدأت الشعيبة في الضمور، ثم الاختفاء من ساحة الأحداث، وإن استمرت لما بعد القرن السادس ميناءً صغيراً للسفن الواردة من اليمن، ما عدا حادثة عمارة المسجد الحرام في عهد الخليفة العباسي المهدي الذي أمر بنقل الأساطين من مصر والشام ونقلت بحراً إلى ميناء الشعيبة. وبعدها بقي الميناء لا ترتاده إلا السفن الصغيرة وصيادي الأسماك[3]. وعلى الرغم من الخصائص الطبيعية لميناء الشعيبة التي تميزه عن ميناء جُدة، حيث انعدام الشعاب المرجانية، وتوفر المياه البحرية العميقة التي تتراوح ما بين 200.100م، وبالتالي مرساها محمي من الرياح مما يساعد في وصول السفن إلى البر وذلك للاقتراب من خط الساحل، بخلاف جُدة لأن مرساها تقف فيه السفن بعيدة عن البر إلا أنه تم اختيار جُدة ميناء لقربها من مكة وسهولة الطريق بينها وبين مكة وهو مسامت لمكة من جهة الغرب، ولعل ذلك يعود لأسباب عدة منها السياسية والطبيعية،

---

(1) أخبار مكة: تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الرابعة، 1983.1403، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة، ج1، ص157.
(2) ياقوت: معجم البلدان، ج3، 351 (وسيأتي الحديث عن الهجرة لاحقاً).
(3) الجاسر: شمال غرب الجزيرة، ص174.

ومن ذلك قرب جُدة لمكة، وكذلك معرفة قريش لميناء جُدة قبل الشعيبة، وقد يكون أيضاً نقل الميناء إلى جُدة من طريق اليمن خشية تأثير الحكم اليمني على ميناء الشعيبة، وبالتالي ضرورة رعاية وحماية الثغور والموانئ الإسلامية من قراصنة البر والبحر. وساعد على اندثار الشعيبة النجاح الكبير لميناء جُدة وتدفق التجارة والملاحة ورحلات الحجاج[1].

6) السرين[2]:



السرين بلفظ تثنية السر الذي هو الكتمان مجروراً أو منصوباً[3]. ومن معاني السر: سِرُّ الوادي وهو أكرم موضع فيه، وأرضٌ سِرُّ كريمة طيبة، وقيل هي أطيب موضع فيه[4].

والسرين بكسر السين المهملة المشددة، وفتح الراء المهملة المشددة أيضاً،

(1) الأنصاري: تاريخ جُدة، ص61،60؛ الرويثي: التطور المكاني لموانئ شبه الجزيرة العربية، ص111.105.
(2) انظر خرائط وصور عن موقع وميناء السرين، ص287-389.
(3) ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص216.
(4) ابن منظور: لسان العرب: مادة السر: ج4، ص359.356.

بعدها الياء الساكنة المنقوطة باثنتين من تحتها آخره النون[1]. ورتقة السرين تسمية يوردها الفيروز آبادي[2].

ويطلق السكان الآن على موقع السرين تسمية المصنع أو المصنعة[3]. وفي اللغة الصنع هو الحوض أو شبه الصهريج يجمع فيه ماء المطر. وقال تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾[4] قال بعض المفسرين: هي أحباس تتخذ للماء واحدها مصنعة ومصنع[5].

ويتسم وصف الجغرافيين المتقدمين لموقع السرين الميناء والبلدة بالإجمال والتقريب، فيشير إليها اليعقوبي (ت 284هـ) على أنها من أعمال مكة أي مضمومة إلى عامل مكة[6].

وفي الطريق من عُمان[7] إلى مكة على الساحل يذكر ابن خرداذبة (ت 300) السرين ما بين حلي[8] جنوباً وأعيار[9] شمالاً[10]. أما الهمداني فيذكر السرين في عدة مواضع مشيراً إلى أنها من ساحل كنانة، ويورد قصيدة لشاعر تهامي يقال له أبو الجياش الحجري من الحجر بن الهنو يصف مناطق تهامة ومن

(1) الفقيه: حسن إبراهيم: مدينة السرين الأثرية، الطبعة الأولى، 1413هـ.1992م، ص38.
(2) القاموس المحيط، ج1، ص1143.
(3) الزيلعي: أحمد بن عمر: ميناء السرين (بحث منشور) في مجلة اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة، 1414.1994 (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، ص176.177.
(4) سورة الشعراء: آية رقم (129).
(5) ابن منظور: لسان العرب: مادة صنع، ج8، ص211.
(6) البلدان: ص316.
(7) عُمان: بضم أوله وتخفيف ثانيه بلد عربي على ساحل بحر اليمن والهند، أنظر ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص150. وهي سلطنة عُمان الحالية، إحدى دول الخليج العربي وتطل على خليجي عُمان والخليج العربي.
(8) حلي: بلدة تقع جنوب القنفذة على ساحل البحر الأحمر على بعد 60كم منها. انظر ياقوت ج2، 297، والبلادي: بين مكة واليمن، ص176.
(9) أعيار: وادي صغير يأتي من الجبال الواقعة على السفوح القريبة للسراة فيأخذ مياه جبال ذهب، ثم ينحدر بين الليث شمالاً وجبل عفف جنوباً، ومعظم مياهه تأتيه من جبل عفف. انظر البلادي: بين مكة واليمن، ص52.
(10) المسالك والممالك: ص148.

ذلك قوله: فقنونا [1] فأرض دوقة [2] فالليث[3] فعشم[4] السرين فالسراء[5]

والإصطخري (ت 340) يحدد الحجاز جنوباً بالسرين[6]، وكذلك ابن حوقل (ت 367هـ)[7]. ويصف الادريسي (ت 560هـ) السرين بأنها مدينة ساحلية بينها وبين حلي الواقعة جنوبها خمسة أيام، وأنها حصن حصين، حسن موضعه كثيرة مياهه، ولواليه جباية شيء معلوم ورسم ملزوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالتجارات والمتاع والرقيق[8]. وعمارة اليمنى (ت 596) يذكر السرين عند حديثه عن المساجد التي بناها الوزير اليمني حسن بن سلامة في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في مناطق الساحل إلى مكة[9]. كما يصف ياقوت (ت 626هـ) السرين بأنها بليد قريب من مكة على ساحل البحر بينها وبين مكة كما يرى أربعة أيام إلى خمسة[10].

اما ابن المجاور (ت 691هـ) فيقدر المسافة بين السرين ومكة بحوالي (17) فرسخاً[11]. ويصف الحميري (ت 900) السرين بأنها مدينة عظيمة في طريق مكة

(1) الليث: وادي بأسفل السراة يدفع في البحر، وعليه مدينة بحرية نشأت في القرن السابع الهجري تقريباً بعد اندثار السرين تقع على الطريق بين مكة وجازان وتبعد عن مكة جنوباً حدود 180كم. انظر ياقوت: ج5، ص28؛ البلادي: بين مكة واليمن، ص30.

(2) عشم، بالتحريك، جنوب السرين بالقرب من حلي، وتقع آثارها في صدر وادي قرماء في أول سفوح جبال تهامة، وتقع عند منازل قبيلتي كنانة والأزد، ولم تتطرق لها المصادر الجغرافية بتفصيل لموقعها الداخلي من تهامة، وللأستاذ حسن بن إبراهيم الفقيه دراسة حول آثار مدينة عشم. انظر البلادي، بين مكة واليمن، ص84.

(3) صفة جزيرة العرب، ص336.

(4) قنونا: من أودية تهامة الحجاز، تسيل مياهه من سراة خثعم، وينحدر غرباً ماراً بين وادي الأحبة ووادي يبه، وتصب فروعه شمال وجنوب القنفذة. البلادي: بين مكة واليمن، ص139.

(5) دوقة: بلدة جنوب السرين والأصل اسم الوادي محل من أودية تهامة ثم قامت على مصبه قرية، انظر البلادي، بين مكة واليمن، ص67، والآن هي مركز تابع لمحافظة القنفذة.

(6) المسالك والممالك: ص21

(7) صورة الأرض: ص19.

(8) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق: ج1، ص138.

(9) تاريخ اليمن (المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد..)، تحقيق محمد بن علي ال أكوع، مطبعة السعادة، الطبعة الثانية، 1976.1396، ص78.

(10) معجم البلدان: ج3، ص219.

(11) تاريخ المستبصر: ص53.52. (وتقديره للمسافة غير دقيق)

واليمن وبمقربة من يلملم، وفيها أسواق ومسجد جامع، وسورها في البحر، وأكثر بنائها بالخشب والحشيش، إلا المسجد الجامع فإنه مبنى من المدر، وهي من عمل مكة، وأكثر زروع أهلها الذرة والسمسم[1]. من ذلك يتضح لنا أن بلدة السرين تقع جنوب بلدة الليث بحوالي (43) كم على طريق مكة جازان عند تقاطع خط الطول (33، 40°) شرقاً، بدائرة العرض (54، 19°) شمالاً تقريباً، ولا تتجاوز مساحتها ($\frac{1}{4}$)كم طولاً و($\frac{1}{2}$) كم عرضاً من الشمال إلى الجنوب، ويعتقد أن طرفها الجنوبي لشاطئ البحر أُستخدم رصيفاً لتفريغ البضائع المحملة بالسفن المرساة بساحل السرين[2]. ويمكن الوصول إليها حالياً بعد تجاوز محطة الوسقة الواقعة على طريق مكة جازان الساحلي إلى الجنوب الغربي باتجاه البحر ماراً بحلة الأشراف «البراكيت»، ثم السبخة وإلى الموقع، أو من جنوبي الوسقة باتجاه الجنوب الغربي مباشرة عبر السبخة حتى الوصول إلى تلال رملية مرتفعة تمثل موقع السرين المندثر[3]. والموقع محاط الآن بسياج حديدي من عمل إدارة الآثار وعليه تحذير حكومي من التعدي على المناطق الأثرية، وقد تم الوقوف على تلك التلال وتتبع موقع الميناء والتقطت عدة صور فتوغرافية بتاريخ 8/ 5/ 1420هـ[4].

وعن نشأة السرين لم يتوفر في المصادر المطلع عليها تحديد دقيق لنشأة هذه المدينة، عدا ما ذكره ابن المجاور، أنها من بناية الفرس، إلا أن معلومات

(1) الروض المعطار في خبر الأقطار: ص312.

(2) الفقيه: مدينة السرين الأثرية، ص16؛ وانظر خريطة جزيرة العرب: 1: 2000.000؛ خارطة طرق المواصلات: 1: 3000.000.

(3) الزيلعي: ميناء السرين، ص181.

وللباحثين حسن بن إبراهيم الفقيه وأحمد بن عمر الزيلعي جهوداً قيمة في مجال البحث والمسح الأثري في ساحل تهامة بعامة ومدينة السرين بخاصة منشورة في كتب ودوريات متخصصة ورسائل علمية. (وللفقيه رأي في الجزيرة المسماة في الخرائط الحديثة بـ(سرين) وتقع غرب "دوقة" أنها تسمية خاطئة، بل إن اسمها «أم علي» أو «جزيرة بَيُّوضَة» وهي من الجزر الواقعة في الشمال الغربي من موقع رأس (محيسن) وليس رأس الحسن كما تذكره بعض المراجع، ص11،10).

(4) انظر في الملاحق، ص389.

ابن المجاور تتسم بالاضطراب وعدم الدقة[1].

ولعل أول إشارة للسرين في كتب التراث وردت على لسان الشاعر أبو خراش الهذلي (الشاعر الجاهلي الذي أدرك الإسلام ومات في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه) وقد قال:

غَذَاهُ من السرين أو بطن حلية فروع الأباء من عميم السوائل

مما يشير إلى أن نشأة السرين كانت قبل الإسلام[2].

كما أن الموقع البحري المناسب في منتصف الطريق بين اليمن والحجاز جعل للسرين أهمية تجارية وعسكرية، فهي تستقبل منتجات السروات، وسهول تهامة من حبوب وتمور وغيرها، ثم ما يجلب من الحبشة من الرقيق والمتاع، وأيضاً موقعها كمحطة للحاج اليمني براً وبحراً إلى مكة. إلا أن الملاحظ أن السرين لم تبرز كميناء هام في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، حتى حل القرن الرابع الهجري فبدأت تظهر تباشير هذا الميناء، ووصل قمة مجده في القرنين الخامس والسادس الهجريين، حتى وصفها الرحالة والجغرافيون المسلمون كالمقدسي والبكري والإدريسي والحميري بأنها مدينة عظيمة كما سبق عرضه[3]، ولعل من أبرز أسباب ذلك ظهور أمراء من الأشراف لهذه البلدة عملوا على ازدهارها [4].

وأشارت النقوش الشاهدية التي وجدت في موقع مدينة السرين إلى أسماء رجال كان لهم على ما يبدو إسهامات علمية، ولعل أبرز من ثبت انتسابه إلى السرين من العلماء هو أبو هارون موسى بن محمد بن كثير السريني الذي روى عن عبدالملك بن إبراهيم الجدي روى عنه الطبراني وغيره[5]، وقد

(1) الزيلعي: ميناء السرين، ص187؛ الفقيه، مدينة السرين، ص47.
(2) الفقيه: مدينة السرين، ص2220؛ الزيلعي: ميناء السرين: ص178.
(3) الزيلعي: المرجع السابق، ص191.188؛ الفقيه، المرجع السابق، ص51.49.
(4) (4) راجع ص152 – وما بعدها.
(5) ياقوت: معجم البلدان: ج3، ص319؛ الفقيه: مدينة السرين، ص85.

عاش الطبراني من عام 360.260هـ[1]. مما يرجح أن أبا هارون السريني أيضاً ممن عاش في القرن الثالث الهجري[2]. وممن وردت أسماؤهم في النقوش الشاهدية، ويرجح الفقيه أنهم من العلماء الذين عاشوا في السرين وهب بن موسى بن رزق مولى محمد بن عبد الله بن مسافع المعروف بأبي قتوعد الحجبي، من رجال القرن الرابع الهجري ومحمد بن جعفر بن عبدون أيضاً من رجال القرن الرابع، ومحمد بن الحسين بن أحمد الشافعي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ومحمد بن عبدالرحمن بن محمد بن خلف النبيت ممن عاش في منتصف القرن الرابع، وكذلك علي بن محمد بن زيد النداف، وقد توفى عام 379هـ، ومنصور بن نصر بن منصور، وبالرغم مما تشير إليه الشواهد من لمحات علمية إلا أنها لا تقطع بأنهم علماء. إضافة إلى ما ذكر من موت بعض علماء وفقهاء اليمن في السرين أمثال الفقيه محمد بن منصور الجنيد الفتوحي المشيرقي الصمعي الذي توفي آخر ذي الحجة سنة 581هـ، وكذلك القاضي عمر بن عبد العزيز بن أبي قرة الذي مات بالسرين أثناء عودته من الحج[3].

إلا أن هذه المدينة والميناء بدأت تزول من خارطة الأحداث التاريخية الحجازية منذ نهاية القرن الثامن الهجري، ولعل ذلك يعود لجملة أسباب منها، اضطراب الأمن في المنطقة الحجازية وكثرة الحروب بين أمراء مكة في تلك الفترة، وربما تغير مجرى طريق الحج اليمني قليلاً إلى البر شرقاً عن السرين، وأيضاً قيام مينائي الليث شمالاً ودوقة جنوباً، كل ذلك وغيره ساهم في اندثار المدينة والميناء وزوالهما من ساحة الأحداث، وطغى اسم الواديين اللذين هما (حلية، وعُلْيب) والمعروفين اليوم بالشاقتين الشامية واليمانية على اسم

(1) الطبراني: سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللحمي الشامي، أبو القاسم، من كبار المحدثين، عاش (360.260هـ). الزركلي، الأعلام، ج3، ص121.
(2) الفقيه: المرجع السابق، ص86.
(3) الفقيه: المرجع السابق، ص93.87.

ومنطقة السرين واختفى ذكر السرين نهائياً من كتابات المؤرخين المكيين بعد هذا التاريخ وذلك لاتخاذ بعض أمراء مكة من الأشراف هذين الواديين ملجأ لهم أو مستقراً أو إقطاعاً، وما زال إلى اليوم يسكنهما بعض قبائل الأشراف، وكذلك الموقع المجاور مباشرة للموقع الأثري للسرين أشراف من سلالة أمراء مكة السابقين[1].

(1) انظر الفقيه: مدينة السرين الأثرية، ص104.96؛ الزيلعي: ميناء السرين، ص200.199.

أهم الأحداث السياسية والعسكرية التي ارتبطت بالموانئ الحجازية من البعثة المحمدية إلى نهاية الفترة المملوكية

العهد النبوي: (من البعثة)

كانت أولى أهم الأحداث التي ارتبطت بأحد الموانئ الحجازية ألا وهو «الشعيبة» «حادثة الهجرة إلى الحبشة» وهي أول هجرة في الإسلام، ففي السنة الخامسة لبعثة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم اشتد أذى المشركين لمن أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ورأى أنه لا يقدر أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه[1].

وخرج الذين هاجروا الهجرة الأولى متسللين سراً، وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة، حتى انتهوا إلى الشُعيبة؛ منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان ذلك في شهر رجب من السنة المذكورة[2]. فكان جوارهم بها خير جوار، أمنوا على دينهم، وعبدوا الله لم يؤذوا ولم يسمعوا شيئاً يكرهونه.

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم رضي الله عنهما، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وامرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، وآخرون، ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في الفوج الثاني، وتتابع خروج المسلمين حتى اجتمعوا بأرض الحبشة، فمنهم من خرج بأهله، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص280؛ ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج1، ص204.
(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج1، ص204؛ الطبري: الأمم والملوك، ج1، ص546

معه، وقُدّر عدد المهاجرين بـ(82) رجلاً و11 امرأة[1]. ولكن هل كان الخروج من الشعيبة بحراً إلى الحبشة المسماة «أثيوبيا» حالياً، ممكناً؟ وهي بلد داخلي لا سواحل له! وإن كانت أرتيريا ضمن ممالك الحبشة فميناؤها مصوع المعروف قديماً باسم «باضع» الواقع على الساحل الغربي للبحر الأحمر وهو يقابل جزر دهلك[2] في عرض البحر التي تقابل جزر فرسان[3] القريبة من ميناء جازان[4] على الساحل الشرقي للبحر الأحمر، ويبعد ميناء جازان عن الشعيبة مسافة برية تقدر بـ 650كم تقريباً؟

هذا سؤال أثاره بعض الباحثين، حيث يرجح عبد الله الطيب أن هجرة الصحابة لم تكن ناحية الهضبة الأثيوبية، بل إن أول ساحل نزله الصحابة في رأيه هو ساحل سواكن من أرض السودان، وأنها أول أرض مستها أقدام الصحابة المهاجرين مشيراً إلى أن الحبشة المقصودة في الهجرة هي السودان الممتدة من جنوب مصر، وتشمل السودان الحالي وأرتيريا والصومال والهضبة الأثيوبية[5]. والموقع المقابل لجده والشعيبة في الساحل الغربي من البحر الأحمر هو سواكن، وهو أقرب[6]. إلا أن هناك من الباحثين من أشار إلى أن سفن المهاجرين رست في ميناء (مصدر) أو (معدر) جنوبي ميناء «عدو ليس» الميناء الأرتيري القديم المندثر الذي أسسه الإغريق البطالمة ويقع على بعد

(1) الطبري: الأمم والملوك، ج1، ص547.

(2) جزر دهلك وجزر فرسان: في جنوب البحر الأحمر، وكانت في سابق عهدها منفى للفساق والمخالفين للخلفاء والحكام، وتبعد دهلك عن مصوع 40كم شرقاً.

(3) جزر فرسان تقع جنوب غرب ميناء جازان وتبعد عن الساحل 20.5كم. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص492، ج4، ص250؛ ناصر العرفج: أهمية الممرات المائية، ندوة البحر الأحمر، ص35.

(4) جازان: موضع على طريق حاج صنعاء، وظهرت كفرضة أو ميناء في القرن السابع الهجري، وهي اليوم مدينة مشهورة ومركز لإمارة منطقة جازان. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج2، ص94؛ الرويثي: التطور المكاني والتاريخي، الموانئ شبه الجزيرة العربية، ص123.121.

(5) هجرة الحبشة وما وراءها من نبأ: بحث في إصدار دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين)، جامعة الملك سعود، 1410هـ/ 1989م، ص97.96.

(6) انظر: خريطة جزيرة العرب: 1: 2000.000.

60كم جنوب مصوع، ويسميه العرب باسم (عدو لي). ومن (معدر) أو (مصدر) اتجه المهاجرون نحو «أكسوم» الحبشة[1].

وتوالت الأحداث بحسب ترتيب السنين فمن ذلك (غزوة ودّان) التي وقعت في السنة الثانية من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التسليم، حيث خرج غازياً في شهر صفر حتى بلغ ودان وهي بجوار الأبواء، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة فوادعته فيها بني ضمرة، ووادعة مخشى ابن عمرو الضمري، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة، ولم يلق كيداً، وهي أول غزوة غزاها[2].

ويذكر عبد الكريم الخطيب أن ودان هذه قرية منورة الغربية من ينبع البحر[3]. كما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في شهر ربيع الاول يريد قريشاً حتى بلغ (بواط) من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى[4]. ورضوى كما سبق ذكره جبل بينبع[5]. ومن الرايات التي عقدها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض أصحابه باتجاه ساحل البحر الأحمر بهدف اعتراض قوافل قريش، سرية عبيدة بن الحارث، والتي عدها ابن هشام أول راية عقدها عليه الصلاة والسلام، وسار بها حتى بلغ ماء بالحجاز بأسفل ثنية المرة[6]، ولقي بها جمعاً كبيراً من قريش إلا أنه لم يكن بينهم قتال، إلا أن سعد بن أبي وقاص رضي

---

(1) عبدالشافي غنيم عبدالقادر: البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية: البحر الأحمر في التاريخ والسياسة، جامعة عين شمس، القاهرة، 1980، ص76؛ ناود: محمد سعيد: العروبة والإسلام بالقرن الأفريقي، ص32، ص139.

(2) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق طه عبدالرؤوف سعد، 1975، دار الجيل، بيروت، ج2، ص171.170.

(3) تاريخ ينبع، ص185.

(4) ابن هشام، السيرة النبوية، ج2، ص176.

(5) مع العلم أن ودان وبواط ليستا بحريتين.

(6) ثنية المرة بالكسر وتشديد الراء، قرب ماء يدعى الإحياء من رابغ، انظر السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1167.

الله عنه رمى فيها بسهم، فكان أول سهم رُمي به في الإسلام[1]. وتلت هذه السرية سرية حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه إلى سيف البحر من ناحية العيص من المهاجرين، ولقي أبا جهل في ثلاثمائة راكب من أهل مكة إلا أن مجدي بن عمرو الجهني حجز بينهما، وكان موادعاً للفريقين، فلم يقع قتالٌ[2].

غزوة العُشيرة:

نزل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العشيرة من بطن ينبع غازياً، فأقام بها جمادى الأولى وليالي من جمادي الآخرة، من السنة الثانية للهجرة وادع فيها بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً في تلك الغزوة وقال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه مالك يا أبا تراب؟ لما يرى عليه من التراب، فقد حدث عمار بن ياسر رضي الله عنه قال: كنت أنا وعلي بن أبي طالب رفيقين في غزوة العشيرة؛ فلما نزلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأقام بها؛ رأينا أُناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم وفي نخل. فقال لي علي بن أبي طالب: يا أبا اليقظان، هل لك في أن نأتي هؤلاء القوم، فتنظر كيف يعملون؟ قال: قلت: إن شئت؛ قال: فجئناهم، فنظرنا إلى عملهم ساعة، ثم غشينا النوم. فانطلقت أنا وعلي حتى اضطجعنا في صدر من النخل وفي دقعاء من التراب فنمنا، فوالله ما أهبنا إلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يحركنا برجله. وقد تتربنا من تلك الدقعاء التي نمنا فيها، وبعد قوله يا أبا تراب قال: ألا أحدثكما بأشقى الناس رجلين؟ قلنا: بلى يا رسول الله؛ قال: أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي على هذه- ووضع يده على قرنه حتى يبل منها هذه. وأخذ بلحيته[3].

(1) ابن هشام: السيرة النبوية، ج2، ص171.
(2) ابن هشام، ج2، ص174.
(3) ابن هشام: السيرة النبوية: ج2، ص177.176، إلا أن وصف علي بن أبي طالب رضي الله عنه بأبي تراب ورد في حديث سهل بن سعد. قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، بيت فاطمة فلم يجد

عودة مهاجري الحبشة:

ارتبطت هذه الحادثة بميناء المدينة «الجار»، فلما كان شهر ربيع الأول سنة سبع من هجرة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة كتب إلى النجاشي كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام وبعث به مع عمرو بن أمية الضمري، فلما قُرئ عليه الكتاب أسلم وقال: لو قدرت أن آتيه لأتيته، وكتب إليه رسول الله أن يزوجه أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب وكانت فيمن هاجر إلى أرض الحبشة إلا أن زوجها عبيد الله بن جحش اعتنق النصرانية بالحبشة ومات عليها، فزوجه النجاشي وأصدق عنه، وكتب إليه رسول الله أن يبعث إليه من بقي عنده من أصحابه، ويحملهم ففعل وأعدلهم سفينتين مع مندوب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الضمري، فأرسلوا بهم إلى ساحل بولا[1] المحتمل أنه الجار، وقدموا المدينة فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد فتح خيبر[2].

وقدم وفد الأشعريين على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهم خمسون رجلاً فيهم أبو موسى الأشعري وإخوة له ومعهم رجلان من عك، وقدموا في سفن في البحر وخرجوا بجُدة فلما دنا الوفد من المدينة أخذوا يرددون:

غداً نلقي الأحبة محمداً وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله في سفره بخيبر، ثم لقوه وبايعوا وأسلموا[3].

علياً في البيت. فقال: «أين ابن عمك؟» قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِلْ عندي. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لإنسان: «انظر أين هو» فجاء، فقال: يا رسول الله! هو في المسجد راقد. فجاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه ترابٌ. فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يمسحه عنه، ويقول: «قم أبا تراب! قم أبا تراب» متفق عليه، وأخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب نوم الرجال في المسجد، انظر محمد فؤاد عبدالباقي: اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج3، ص133.

(1) يحتمل أنه اسم قديم للجار إلا أنه لم يرد لا في لسان العرب ولا في القاموس في مادة (بول) ولا معجم البلدان، ومعجم ما استعجم، سواء في مادة بولا أو الجار؛ الأنصاري: رحلة الجار، ص487.

(2) ابن سعد: الطبقات الكبرى: ج1، ص207؛ الطبري: الأمم والملوك، ج2، ص132.

(3) ابن سعد، الطبقات الكبرى: ج1، ص348.

وارتبطت بجُدة أيضاً سرية علقمة بن مجزز المدلجي في السنة التاسعة للهجرة من شهر ربيع الآخر عندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أناساً من الحبشة تراياهم أهل جُدة فبعث إليهم علقمة في ثلاثمائة، ووصل بهم إلى البحر وخاضه إلى جزيرة في البحر فهربوا منهم[1].

أما أيلة فقد وصل صاحبها يحنة ابن رؤبة إلى رسول الله في تبوك في السنة التاسعة للهجرة من شهر رجب وصالح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأعطاه الجزية، فكتب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كتاباً لهم فهو عندهم: ونصه:

(بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسيارتهم في البر والبحر لهم ذمة الله، وذمة محمد النبي، ومن كان معهم من أهل الشام، وأهل اليمن، وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنه لا يحول ما له دون نفسه، وإنه طيب لمن أخذه من الناس، وإنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه، ولا طريقاً يريدونه، من بر أو بحر.[2])

ويضيف ابن سعد أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم كساه بردة يمنية وأمر بإنزاله عند بلال، ووضع عليهم من الجزية ثلاثمائة دينار[3].

من خلال النص السابق لكتاب رسول الله لصاحب أيلة يظهر مدى اهتمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بموقع أيلة البحري الاستراتيجي والاقتصادي على رأس خليج العقبة، فأراد أن يأمن ذلك الطريق، كما أراد أن يمارس أهلها وهم رواد بحر ومن يأتيهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر نشاطهم التجاري البحري بكل حرية في التنقل براً وبحراً، وبذلك يضمن المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم استمرار دور أيلة الاقتصادي في تجارة البحر الأحمر

(1) ابن سعد، المصدر السابق، ج2، ص162.
(2) ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص125.
(3) الطبقات الكبرى: ج1، ص290.289.

وانتفاع المسلمين من ذلك الدور فهذه المدينة تربط ما بين الحجاز والشام ومصر[1].

ومما سبق عرضه يتبين الدور الهام الذي لعبته بعض موانئ الحجاز في العهد النبوي سياسياً وعسكرياً.

العهد الراشدي : 11هـ ـ 40هـ

حدثت في العام (18هـ) في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مجاعة شديدة وسُمي ذلك العام عام الرمادة، وكانت الريح تسفي تراباً كالرمادة، وقد اشتد الجوع بالناس، وضرب الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أروع الأمثلة في الإيثار وأقسم أن لا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيا الناس، وقال: كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يصبني ما أصابهم؟ رضي الله عنه وأرضاه فلقد أتعب من أتى بعده إلى يوم القيامة.! وكتب إلى أمراء الأمصار يستغيثهم لأهل المدينة ومن حولها، فحمل الطعام من الشام ومصر[2]، ومن ذلك ما كتب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر أن يبعث إليهم الطعام على الإبل، وفي البحر حتى يصل به إلى ساحل الجار، فحمل الطعام إلى القلزم في عشرين مركباً (ثلاثة آلاف إردب) حتى وافى الجار، ولما علم عمر رضي الله عنه قدم إلى الجار ومعه عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فنظر السفن، ثم وكل من قبض ذلك الطعام، وبني قصرين وجعل ذلك الطعام فيهما، ثم أمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم وأمره أن يكتب لهم صكاكاً من قراطيس ثم يختم أسافلها[3].

(1) غوانمة: يوسف حسن درويش: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص32.
(2) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، الطبعة الرابعة، 1403، 1983، دار الكتاب العربي، بيروت، ج2، ص389.388.
(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج3، ص311؛ اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر العباسي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، ج2، ص154.

من ذلك نلاحظ مساهمة ميناء «الجار» في نقل البضائع والسلع من مصر إلى المدينة، كما ذكرت بعض المراجع أن الخليفة عمر بن الخطاب وافق عمرو بن العاص على حفر قناة تراجان لتربط النيل بالبحر الأحمر منطلقاً إلى الشمال من حصن بابليون بقليل حتى يمر بعين شمس، ثم وادي الطميلات إلى موضع القنطرة حتى يتصل بالبحر الأحمر عند مدينة القلزم، وساهمت تلك القناة التي سميت بخليج أمير المؤمنين في نقل المؤن من مصر إلى القلزم ومنه إلى الجار ميناء المدينة[1].

ويتواصل دور الموانئ الحجازية في حركة الأحداث السياسية والعسكرية في العهد الراشدي.

ولمتابعة حركة الفتوحات الإسلامية في الشام يخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه من المدينة وقد استخلف عليها علياً رضي الله عنه، ومر في طريقه بأيلة «العقبة» فنزل بها ومعه المهاجرون والأنصار، وما أن وصل إلى تلك البلدة ومن طول المسير تمزق قميصه الذي يرتديه حتى تأخر عن قعدته، وقدمه إلى أسقف أيلة وطلب منه أن يغسله ويرقعه، فقام الأسقف بذلك وزاد عليه بأن خاط لعمر بن الخطاب قميصاً آخر مثله وذهب به إلى عمر فقال ما هذا؟ قال الأسقف: أما هذا فقميصك قد غسلته ورقعته وأما هذا فكسوة لك مني، فنظر إليه عمر ومسحه، ثم لبس قميصه ورد عليه ذلك القميص، وقال: هذا أنشفهما للعرق[2].

وعوداً إلى جُدة ميناء مكة وإلى علقمة المدلجي عندما هاجم الأحباش ساحل جُدة للمرة الثانية، وما الأحباش في المرتين إلا قراصنة بحر وليسوا جيشاً من قبل دولة الحبشة، إلا أن جيش علقمة هلك في بحر جُدة في سنة 20هـ للهجرة،

(1) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، الطبعة الثانية، دار المجمع العلمي، جُدة، 1399هـ. 1979، ص75.

(2) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ج2، ص490.489؛ بن الأثير: الكامل، ج2، ص393.

ولما علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه جعل على نفسه ألا يحمل في البحر أحداً أبداً(1).

وفي عهد الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه شجعته قريش على اتخاذ جُدة ميناءً وبندراً رئيسياً لمكة بدل الشعيبة لقربها من مكة، فخرج بنفسه رضي الله عنه إلى جُدة واغتسل من البحر وأمر من معه بالغسل منه، وأمر بنقل البندر إليه، وكان ذلك في العام السادس والعشرين من الهجرة(2).

وقد سبقت الإشارة إلى أن الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم قد أقطع علياً رضى الله عنه أربع أرضين بينبع، ثم أقطعه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَنْبُع.

فعن عمار بن ياسر قال: أقطع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً بذي العشيرة من يَنْبُع، ثم أقطعه عمر بعدما تولى الخلافة قطيعة، وأضاف عليٌّ إليها قطيعة، فكانت أموال علي بينبع عيوناً متفرقة تصدق بها. وسُرَّ علي رضي الله عنه بينبع وكان أول شيء عمله فيها البغيبغة، ثم قال: هي صدقة على المساكين وابن السبيل وذوي الحاجة الأقرب، واشترط في كتاب له إلا أن يحتاج إليهما الحسن أو الحسين، فهما طلقٌ لهما ليس لأحد غيرهما(3).

ومع الأيام أصبحت يَنْبُع النخل مستقراً للكثير من أبنائه وسلالاتهم، وسكنوا قراها كما تفرقوا على ساحل ينبع البحر يتنقلون في مياهها ومراعيها(4).

---

(1) الطبري: ج2، ص517؛ ابن الأثير: ج2، ص398؛ وانظر: أبوبكر: علي الشيخ أحمد: معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، الطبعة الأولى، 1413.1993، مكتبة التوبة، الرياض، ص245.242.

(2) الفاكهي: محمد بن إسحاق بن العباس، تاريخ مكة أو (أخبار مكة)، الطبعة الثانية، 1414، دار خضر، بيروت، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ج3، ص231؛ الفاسي: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، الطبعة الأولى، 1417، مكتبة الباز والمكتبة التجارية، ج1، ص182؛ السنجاري: منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق د/ جميل المصري، ج1، 530؛ الأنصاري، موسوعة تاريخ مدينة جُدة، ص61.59.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1334 وج4، ص1150؛ حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص23.

(4) الخطيب: تاريخ ينبع، ص193.

العهد الأموي: 41هـ-132هـ

واستكمالاً لما سبق الحديث عنه بشأن يَنْبُع وبالذات «البغيبغة» فقد ذُكر أن معاوية بن ابي سفيان رضي الله عنه كتب إلى واليه بالمدينة مروان بن الحكم يطلب منه أن يخطب لابنه يزيد، ابنة عبد الله بن جعفر «أم كلثوم» وكانت أمها زينب بنت علي فأوكل عبد الله أمر ابنته لخالها الحسين بن علي رضي الله عنهما، وكان في ينبع فلما قدم الحسين وأخبر بأمر الخطبة، دخل على إبنة أخته ورغبها في الزواج من القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب وأحقيته بها، ونحلها «البغيبغات»، فلما حضر مروان للخطبة وتحدث برغبة معاوية تكلم الحسين رضي الله عنه وزوجها القاسم بن محمد بن جعفر بن أبي طالب.

فلم تزل هذه الضيعة في يدي عبد الله بن جعفر من ناحية أم كلثوم يتوارثونها، حتى استخلف المأمون فذكر ذلك له. فقال: كلا! هذه وقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ولد فاطمة رضي الله عنهم، فانتزعها من أيديهم وأبدلهم عنها وردها إلى ما كانت عليه[1].

وبعد موت يزيد بن معاوية وتولى ابنه معاوية الخلافة لمدة يسيرة تنازل بعدها عنها، وتمت البيعة لعبدالله بن الزبير بالخلافة في مكة. على إثر ذلك اجتمع بنو أمية وبايعوا مروان بن الحكم خليفة في شهر ذي القعدة من عام 64هـ، وكانت قد سيطرت قوات ابن الزبير على مصر بعد الحجاز، فأرسل مروان ابنه عبد العزيز في جيش إلى أيلة على أمل أن يدخل مصر من تلك الناحية، واستعد والي مصر من قبل ابن الزبير وهو عبدالرحمن بن عتبة بن جحدم لمقاتلة مروان وابنه، ومن ذلك ما بعثه إلى أيلة جيشاً بقيادة زهير بن قيس البلوي ليمنع عبد العزيز من المسير إليها والتقى الجيشان ببُصَاق وهي

---

(1) الفيروز آبادي: المغانم المطابة في معالم طابة: تحقيق حمد الجاسر، ص60.59.

سطح عقبة أيلة، وانهزم جيش ابن الزبير[1].

وفي خلافة عبدالملك بن مروان والصراع ما زال مستمراً على الخلافة بين ابن الزبير وبني أمية، كان محمد بن الحنفية بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما بمكة فطلب منه ابن الزبير المبايعة فرفض ابن الحنفية، ثم غادر مكة فعلم بذلك عبدالملك بن مروان وبعث كتاباً إلى محمد بن الحنفية يدعوه إلى جواره، فسار حتى نزل بأيلة ومعه أتباعه ويقدرون بسبعة آلاف رجل وكان ذلك في العام التاسع والستين للهجرة، واستقر به المقام في أيلة حتى أن أهلها أحبوا أبا القاسم حباً شديداً وعظموه وأصحابه، فأمر بالمعروف فيهم ونهى عن المنكر ولا يظلم أحد بقربه ولا بحضرته، إلا أن هذه المنزلة والمكانة لم تكن لتريح عبدالملك بن مروان، وهو يعلم طموح آل علي رضوان الله عليهم للخلافة، فما كان منه إلا أن طلب من ابن الحنفية المبايعة أو الانصراف عنه إلى داخل الحجاز، فقال له في كتاب: (إنك قدمت بلادي فنزلت في طرف منها وهذه الحرب بيني وبين ابن الزبير كما تعلم وأنت لك ذكر ومكان، وقد رأيت أن لا تقيم في سلطاني إلا أن تبايع لي فإن بايعتني فخذ السفن التي قدمت علينا من القلزم وهي مائة مركب فهي لك وما فيها ولك ألف ألف درهم أعجل لك منها خمسمائة ألف وألف ألف وخمسمائة ألف آتيتك مع ما أردت من فريضة لك ولولدك ولقرابتك ومواليك ومن معك، وإن أبيت فتحول عن بلدي إلى موضع لا يكون لي فيه سلطان).

فكتب إليه محمد بن الحنفية بكتاب:

(من محمد بن علي إلى عبدالملك بن مروان سلام عليك فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد:

فقد عرفت رأيي في هذا الأمر قديماً، واني لست أسفهه على أحد، والله

(1) الكندي: أبي عمر محمد بن يوسف: الولاة وكتاب القضاة، تحقيق رفن كست، مطبعة الآب اليسوعيين، بيروت، 1908، ومكتبة المثنى ببغداد، ص42. 43.

لو اجتمعت هذه الأمة عَليَّ إلا أهل الزرقاء ما قاتلتهم أبداً، ولا اعتزلتهم حتى يجتمعوا، نزلت مكة فراراً مما كان بالمدينة فجاورت ابن الزبير فأساء جواري وأراد مني أن أبايعه فأبيت ذلك حتى يجتمع الناس عليك أو عليه، ثم أدخل فيما دخل فيه الناس فأكون كرجل منهم، ثم كتبت تدعوني إلى ما قبلك فأقبلت سائراً فنزلت في طرف من أطرافك والله ما عندي خلاف ومعي أصحابي فقلنا بلاد رخيصة الأسعار، وندنوا من جوارك ونتعرض صلتك فكتبت بما كتبت به ونحن منصرفون عنك إن شاء الله)[1].

العصر العباسي: 132ـ656هـ

لعل أول وأهم الأحداث التي ارتبطت بالحجاز وأحد موانئه في العهد العباسي «ثورة محمد بن عبد الله ذي النفس الزكية».

وهو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبو عبد الله الملقب بالأرقط، وبالمهدي، وبالنفس الزكية، ولد ونشأ بالمدينة، وكان يقال له صريح قريش، لأن أمه وجداته لم يكن فيهن أم ولد،[2].

ولما أعلن أبو العباس السفاح الخلافة عباسية رفض النفس الزكية مبايعته، ولما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة لم تكن له همة إلا طلب النفس الزكية والسؤال عنه، واختار أبو جعفر رجلاً من رجاله يقال له عقبة بن أسلم، أعده لمهمة كشف حقيقة ما يخبئه آل علي له، واستطاع عقبة هذا أن يأخذ ما أراد من عبد الله بن الحسن بالحيلة والدهاء وعرف منه أن ابنيه محمد وإبراهيم خرجا لطلب الخلافة، فنقل ذلك لأبي جعفر، وفي رحلة حج للمنصور سجن عبد الله بن الحسن، ولم يكتف بذلك، بل بعث عيناً له

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج5، ص106ـ109.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج5، ص12؛ وابن الطقطقا: محمد بن علي بن طباطبا: الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية، دار صادر.بيروت، 1386هـ1966م، ص165ـ166؛ الزركلي: الأعلام، ج6، ص220.

وكتب معه كتاباً على ألسنة الشيعة، إلى محمد يذكرونه طاعتهم، ومسارعتهم، وبعث معه بمال وألطاف، فقدم الرجل المدينة، فدخل على عبد الله بن حسن فسأله عن محمد فذكر له أنه في جبل جهينة (أي جبل رضوى بيَنْبُع) وقال: امرر بعلي بن حسن، الرجل الصالح، الذي يدعى الأغر وهو بذي الإبر، فهو يرشدك، فأتاه فأرشده. ولكن كان لأبي جعفر كاتب على سره متشيعاً، فكتب إلى عبد الله بن حسن بأمر ذلك العين، وما بُعث له، فقدم الكتاب على عبد الله، فارتاعوا وبعثوا أبا هبار إلى علي بن الحسن وإلى محمد ليحذرهم الرجل، فخرج أبو هبار حتى نزل بعلي بن حسن، فسأله فأخبره أن قد أرشده إليه، قال أبو هبار: فجئت محمد إلى موضعه الذي هو به، فإذا هو جالس إلى كهف معه عبد الله بن عامر الأسلمي، وابني شجاع وغيرهم، والرجل معهم أعلاهم صوتاً، وأشدهم انبساطاً، فلما رآني ظهر عليه بعض النكرة، فجلست مع القوم، فتحدثت ملياً، ثم أصغيت إلى محمد، فقلت: إن لي حاجة فنهض، ونهضت معه فأخبرته بخبر الرجل، فاسترجع، وقال: فما الرأي؟ فقلت: إحدى ثلاث أيها شئت فافعل، قال: وما هي؟ قلت، تدعني فأقتل الرجل قال ما أنا بمقارف دماً إلا مكرهاً: أو ماذا؟ قلت توقره حديداً وتنقله معك حيث انتقلت قال: وهل بنا فراغ له من الخوف والإعجال: وماذا؟ قلت تشده، وتوثقه وتودعه بعض أهل ثقتك من جهينة. إلا أن هذا الرجل عين أبي جعفر هرب منهم وأبلغ المنصور بأمرهم. واشتد طلب المنصور لمحمد بن عبد الله، وخرج إلى محمد النفس الزكية والي ينبع من قبل المنصور بالخيل والرجال، فهرب النفس الزكية من جبل رضوى، وأثناء ذلك أفلت له ولد صغير من الجبل فتقطع[1].

ولما حج المنصور سنة 144هـ وفي عودته من الحج أخذ معه بني الحسن وجعلت القيود والسلاسل في أرجلهم وأعناقهم، وكان يراقب هذا الموقف

(1) الطبري: الأمم والملوك، ج4، ص412402 (أحداث سنة 144).

جعفر الصادق من وراء ستر وهو يبكي ودموعه تجري على لحيته وهو يدعو الله ثم قال: والله لا يحفظ الله حرميه بعد هؤلاء، وكان محمد وأخوه إبراهيم يأتيان إلى أبيهما ويستأذنانه بالخروج ويقول لا تعجلا حتى يمكنكما ذلك.

وسجنهم المنصور بقصر ابن هبيرة شرقي الكوفة، وأحضر المنصور محمد بن إبراهيم بن الحسن . وكان أحسن الناس صورة. فقال له: أنت الديباج الأصغر: قال: نعم قال: لأقتلنك قتلة لم أقتلها أحداً ثم أمر به فبنى عليه اسطوانة وهو حي فمات فيها، وكان إبراهيم بن الحسن أول من مات منهم، ثم عبد الله بن الحسن. وذكر أن المنصور أمر بقتلهم وقيل بل سقوا سماً[1].

دفعت هذه الأحداث، وإلحاح المنصور في طلبه محمداً أن يخرج فخرج قبل وقته الذي فارق عليه أخاه إبراهيم، فأنكر ذلك، ولكن إبراهيم تأخر عن وقته لجدري أصابه، وقد خرج في أول يوم من رجب (145هـ) وفي رواية لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة، واستطاع السيطرة على المدينة[2].

كلف أبو جعفر المنصور عيسى بن موسى بقتال النفس الزكية وقال: لا أبالي أيهما قتل صاحبه، وأرسل معه 4000 من الجند وكتب إلى عيسى بن موسى من لقيك من آل أبي طالب فاكتب إلي باسمه ومن لم يلقك فأقبض ماله، فقبض عين أبي زياد «في ينبع»، وكانت لجعفر بن محمد «الصادق»، فلما قدم على أبي جعفر كلمه جعفر، قال: ما لي قال: قد قبضه مهديكم[3].

وأمر أبو جعفر بالبحر فأقفل على أهل المدينة فلم يحمل إليهم من ناحية (الجار) شيء، حتى كان المهدي فأمر بالبحر ففتح لهم[4].

وتؤوب مسيرة الأحداث إلى جُدة، حيث أغار في العام 151هـ الأحباش على

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج4، ص376.374.

(2) الطبري: الأمم والملوك، ج4، ص422. 423.

(3) المصدر السابق، ج4، ص437.

(4) الطبري: المصدر السابق، ج4، ص450، ولم ترد لفظة "الجار" بل "البحار" وأرى أنها تصحيفاً، والأصح «الجار» كما أوردها حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص209؛ الأنصاري: رحلة إلى الجار، مجلة المنهل، جُدة، جمادى الأولى، 1391هـ، س37، ص488.

جُدة في البحر، ولما عاد المنصور من مكة إلى البصرة في العام 153هـ جهز جيشاً لحرب الأحباش في بحر جُدة[1].

وفي عام 161هـ أثناء عمارة المهدي الخليفة العباسي للمسجد الحرام نقلت أساطين الرخام في السفن حتى أنزلت جُدة، ثم جُرَّت بالعجل من جُدة إلى مكة[2].

وما زالت جُدة تتعرض لغزو قراصنة البحر من الأحباش ففي سنة 183هـ هاجم الأحباش جُدة، وخرج أهل مكة للدفاع عن جُدة يتقدمهم أميرهم عبد الله بن محمد بن إبراهيم من بني العباس غزاة في البحر[3].

وفي عام 185هـ استأذن يحيى بن خالد البرمكي الرشيد في العمرة، فاعتمر في رمضان وتوجه إلى جُدة مقيماً فيها بنية الرباط إلى وقت الحج[4].

بعد سلسلة الأحداث التي توالت على جُدة تظهر مدينة الجار في خضم الأحداث ففي عام 230هـ هاجم بنو سُليم الناس حول المدينة، وأوقعوا بناس في «الجار» من بني كنانة وباهلة فأصابوهم وقتلوا بعضهم، وجرى ذلك في جمادى الآخرة من العام المذكور، وتزعمهم عُزيزة بن قطّاب السلمي، فوجه إليهم عامل المدينة العباسي حماد بن جرير الطبري الذي لقي بني سُليم وأغلبهم من بني عوف من بني سليم إلا أن حماد قتل وعامة أصحابه، فاستولت بنو سليم على سلاحهم وثيابهم واشتد أمر بني سليم، فاستباحت القرى والمناهل فيما بين مكة والمدينة، فوجه لهم الخليفة العباسي قائده التركي بُغا الكبير أبا موسى في الشاكرية والأتراك والمغاربة، فوصل في شعبان إلى حرة بني سليم، والتقى بهم وقُتِل منهم خمسون رجلاً وأُسِر مثلهم فانهزم من تبقى منهم، فدعاهم إلى

(1) الطبري: الأمم والملوك، ج4، ص504.498؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار ام القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، 1404، 1983م، مكتبة الخانجي، القاهرة، إصدار مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ج2، ص191.190.

(2) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص80؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج2، ص209.

(3) ابن فهد: المصدر السابق، ج2، ص232.

(4) المصدر السابق: ج2، ص233.

الأمان والنزول على حكم الخليفة العباسي الواثق[1].

وفي سويقة بينبع في خلافة المتوكل قُضي على ثورة لآل علي، وكان يقودها محمد بن صالح بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن حسن بن حسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه [2]، فوجه له المتوكل قائده أبا الساج في جيش كبير فظفر به وبجماعة من أهله، فأخذهم وقيدهم وقتل بعضهم، وأخرب سويقة وعقر نخلها وخرب منازل بني الحسن، ونُقل محمد بن صالح إلى سامراء[3].

ويعبر أحد الشعراء عن خراب سويقة بقوله:

إني مررت على دار فأحزنني	لما مررت عليها منظر الدار
وحشاً خراباً كأن لم تغن عامرة	بخير أهل، لمعتد، وزوار
لا يبعد الله قوماً كان يجمعهم	جنباً سويقة أخياراً لأخيار
الرافعين لساري الليل نارهم	حتى يؤم على ضوء من النار
والدافعين عن المحتاج خَلّتَهُ	حتى يحوز الغنى، من بعد إقتار[4]

أما جُدة فقد قطعت بنو عقيل طريقها، فقاتلهم أمير مكة وكان ذلك في العام 251هـ، فقتل من أهل مكة نحو 300 رجل، وقد أدى قطعهم الطريق إلى غلاء في الأسعار بمكة.

وفي هذا العام أيضاً خرج بمكة اسماعيل بن يوسف بن إبراهيم الحسني،

(1) الطبري: الامم والملوك، ج5، ص278، أحداث سنة 230؛ وانظر: الأنصاري: رحلة إلى الجار، مجلة المنهل، سبق ذكره، ص489، وحمد الجاسر: شمال غرب الجزيرة، ص209.
ولم يرد لفظ "الجار" في الطبعة التي بين يدي للطبري وهي الطبعة الثانية، 1408. 1988، دار الكتب العلمية، بيروت. ولا شك أنها سقطة مطبعية. (الخطأ في فترة الأحداث في العهد العباسي، وقد سبق ذكر الجار في مواضع أخرى منها، ج2، ص132).

(2) (2) من أمراء وشعراء وشجعان آل علي رحمهم الله، ولي المدينة للواثق العباسي229هـ، وعزله المتوكل فخرج عليه، وحبسه المتوكل في سامراء ثلاث سنين وأطلقه، ومات في أيام المقتدر العباسي. انظر الزركلي: الأعلام، ج6، ص162.

(3) ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص286 مادة سويقة؛ السمهودي: وفاء الوفاء، ج4، ص1239؛ حمد الجاسر، بلاد ينبع، ص24. 25.

(4) البكري: معجم ما استعجم: ج3، ص768. 769.

فاضطر عامل مكة العباسي للهرب، فنهب الحسني أموال بني العباس في مكة وقَتل وأحرق واستولى على ما في الكعبة من ذهب، وذهب إلى المدينة، ثم عاد إلى مكة فحاصر أهلها حتى كادوا أن يموتوا جوعاً، وتوجه إلى جُدة وأخذ أموالالتجار وأصحاب المراكب، ومات سنة 252هـ بالجدري(1).

أما الجار فوقعت بجوارها في المدينة فتنة تركت آثارها عليها، وكانت الفتنة بين بني جعفر وبني علي، وذلك في العام 266هـ، فقد قام إسحاق بن محمد بن يوسف الجعفري بتولية عامل من قبله على وادي القرى، فقتله أهل الوادي، وقتلوا أخوين لإسحاق، ولما خرج لهم مرض ومات، فتولى أمر المدينة أخوه موسى، فثار عليه عدد من بني علي فقتل موسى الجعفري، ودخل المدينة أحمد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد فضبط المدينة، وكانت قد ارتفعت بها الأسعار واشتد الغلاء، فوجه الحسني لتجار «الجار» من يطمئنهم على أموالهم، ورفع الجباية، فرخصت الأسعار وسكنت المدينة(2). وفي عام 268هـ تعرضت جُدة لمحنة أخرى عندما هاجمها محمد بن عيسى بن محمد المخزومي أثناء ثورة الزنج في العراق، فنهب الطعام بجُدة وأحرق بيوت أهلها، حتى صار الخبز بمكة الأوقيتان بدرهم، حتى تمكن العباسيون من القضاء عليه في ذلك العام(3).

العهد العبيدي «الفاطمي» 358ـ567هـ

للحديث عن أهم الأحداث التي ارتبطت بالموانئ الحجازية في العهد العبيدي؛ نشير إلى أن الحكومات التي قامت في مصر وانفصلت عن الخلافة العباسية، كانت تهتم بالسيطرة على الحجاز سياسياً واقتصادياً لما له من مكانة دينية

(1) الطبري: الأمم والملوك، ج5، ص405؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص329ـ331.
(2) الطبري: الأمم والملوك، ج5، ص525.
(3) ابن فهد إتحاف الورى بأخبار ام القرى، ج2، ص342ـ343؛ السباعي، أحمد: تاريخ مكة، الطبعة السادسة، 1404، نادي مكة الثقافي الأدبي، ص166.

وموقع استراتيجي يربط غرب آسيا بأفريقيا، وكذلك رغبة في إعطاء ولايتهم الصبغة الشرعية بإشرافهم على الحرمين الشريفين؛ والدعاء باسمهم على منابرهما.

وكانت أولى الدول التي انفصلت عن الخلافة العباسية وحكمت مصر الدولة العبيدية منذ سنة 358هـ عندما دخل قائدهم جوهر الصقلي مصر، فاهتموا بالسيطرة على الحجاز سياسياً واقتصادياً، وكانوا يرضون من حكام الحجاز الأشراف بإعلان التبعية الإسمية لهم والدعاء لهم في الخطبة بالحرمين الشريفين، ويفعل حكام الحجاز ذلك حتى تصلهم المعونات والمساعدات المختلفة، وتفاوتت هذه السيطرة من ضعف إلى قوة ومن قوة إلى ضعف حسب الأحوال السياسية لحاكم مصر وحاكم الحجاز، واستمر نفوذ حكام مصر على الحجاز بعد الفاطميين في العهد الأيوبي، ثم العهد المملوكي.

ولقد كانت الحجاز تتمتع باستقلالها بحكومة محلية من أسر الأشراف إلا أن إشراف حكومات مصر كان واضحاً، ولعل ذلك مرده إلى عوامل سياسية واقتصادية متعددة منها:

1. ضعف الحكومات التي قامت في مكة والمدينة سياسياً وعسكرياً وكثرة الاضطرابات والصراعات فيما بينها.
2. ضعف الموارد الاقتصادية الداخلية للحجاز، مما جعلها تضطر إلى الاستعانة بالخارج، فكانت أقوى الحكومات الإسلامية خارج الحجاز وأقربها حكومات مصر.
3. قوة الحكومات التي قامت في مصر سياسياً وعسكرياً بدءًا من الفاطميين ومروراً بالأيوبيين وانتهاءً بالمماليك، ودخولهم في صراعات سياسية وعسكرية إقليمية وخارجية جعلت منهم في فترات متعددة قوى كبيرة في المنطقة الإسلامية فالفاطميون دخلوا في تنافس وصراع سياسي وديني مع العباسيين نجحوا فيه إلى حد كبير، في حين قابله ضعف

سياسي عباسي. ثم خلف الأيوبيون حكومة العبيديين في مصر وتمتعوا بقوة كبيرة، وكان اصطدامهم بالصليبيين، الذي حققوا فيه النجاح باستعادة بيت المقدس. وتلا الأيوبيين المماليك الذين تربوا على يد الأيوبيين وكانوا قوتهم الضاربة، والذين أيضاً دخلوا في صراعات قوية مع المغول ونصرهم الله عليهم، ثم مع الصليبيين وكانت لهم نجاحات بارزة، واستمر حكمهم «275» عاماً تقريباً ويدل ذلك على قوة هذه الدولة.

فكانت هذه الدول الثلاث القوية التي توالت على حكم مصر تشرف على الحجاز سياسياً واقتصادياً مع بقاء حكومة الأشراف في الحجاز (مكة والمدينة).

وكان قيام حكومة الأشراف في الحجاز «مكة». بعد موت كافور الإخشيدي الذي حكم مصر باسم العباسيين من 357.355هـ، فقد قام جعفر بن محمد بن الحسن بإمارة مكة. واختلف المؤرخون في التاريخ الدقيق لقيام جعفر بن محمد بتأسيس إمارته في مكة ما بين 357. 358هـ، ولكنهم مجمعون على أن قيام أول حكومة للأشراف في الحجاز بعد موت كافور الإخشيدي. وقد تزامن قيام حكومة الأشراف مع سقوط مصر في يد العبيديين[1].

وهذه الأسرة تمثل الطبقة الأولى من أربع طبقات من الأشراف حكموا مكة وأجزاء كبيرة من الحجاز في فترات متعددة منذ قيام إمارتهم حتى القرن الرابع عشر الهجري، وتسمى الطبقة الأولى «الموسويون» نسبة إلى جدهم (موسى الجون)[2]. كما قام

(1) هو جعفر بن محمد بن الحسين بن محمد الثائر بن موسى الثاني بن عبد الله الثاني بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(2) عن أول طبقة من طبقات الأشراف حكام مكة ونسب مؤسسها، انظر الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص279؛ وعزالدين عبد العزيز بن عمر بن محمد بن فهد الهاشمي القرشي: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، 1406 . 1986م. دار التراث بجُدة، من إصدارات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ج1، ص480؛ أحمد زيني دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، مصر، 1305هـ، ص16؛ وانظر: السباعي: تاريخ مكة، ص191؛ أيوب صبري باشا: مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى 1419. 1999م، دار الآفاق العربية،

للأشراف الحسينيين إمارة في المدينة أولهم (طاهر بن مسلم الحسيني من سلالة الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وذلك في سنة 360هـ.

ولا تمدنا المصادر بكثير معلومات سياسية عن الموانئ البحرية الحجازية في العصر العبيدي مما ينبئ عن قلة الاهتمام بهذه الثغور، وضعف مشاركتها في الأحداث العامة حتى تسجل أخبارها.

لكن تبرز مدينة السرين الميناء البحري الحجازي مع قيام حكومة الأشراف في مكة، فظهر عدد من الامراء لهذه البلدة، حيث وجدت أسماؤهم في نقوش شاهدية على القبور في مقبرة السرين، إضافة إلى ما ذُكر في بعض المصادر والمراجع. فالسرين في تلك الفترة كانت من موانئ مكة الهامة ومن أعمالها، وهي صلة الوصل بينها وبين اليمن، فقد كانت تستقبل مختلف السلع والأمتعة والرقيق، وكان لصاحب السرين رسم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن[1].

وقد عُرف من خلال شواهد القبور التي وُجدت في بلدة السرين أسماء بعض ولاة السرين، وهم من أسر الأشراف التي حكمت مكة، حيث وجد نقش باسم يحيى بن علي بن الحسين، ويرجح أنه أول ولاة السرين في عهد حكومة الأشراف الموسويين، وقد توفي سنة 361هـ[2]. وتلاه الأمير عبد الله بن علي بن الحسين، ولا يعرف على التحقيق تاريخ وفاته، ولكن يرجح أنه مزامناً لوفاة جعفر بن محمد أمير مكة أو بداية فترة حكم عيسى بن جعفر ما بين

ص101.93؛ محمد جمال الدين سرور، النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، ص13. 15؛ سليمان عبدالغني مالكي: بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، الرياض، 1983.1403، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، ص30 وص60؛ المستشرق: ك. سنوك هور خرونيه، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة د/ علي عوده الشيخ، صياغة د/ محمد السرياني ود/ معراج مرزا، إصدار دارة الملك عبد العزيز. الرياض، 1419هـ/ 1999م، ج1، ص147. 149.

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص25.

(2) انظر الفقيه: مدينة السرين، ص61؛ أحمد الزيلعي: أضواء جديدة على الأسرة الموسوية من خلال ثلاثة نقوش كوفية من موقع السرين الأثري، بحث بمجلة العصور، المجلد السادس، ج1، 189.169 (1991م)، ص174؛ انظر ابن عنبه: عمدة الطالب: ص157، والسباعي: تاريخ مكة، ص192.191.

384.380هـ[1]. وأعقبه الأمير الحسين بن علي[2].

وتلاه الأمير يحيى بن الحسن بن علي بن الحسين الأمير بن محمد الثائر، واتصف هذا الأمير بالقسوة والعنف حتى أنه قتل ابنه. وهو آخر من عُرف من امراء السرين من الأسرة الموسوية حكام مكة[3]. ثم ظهر من الطبقة الثالثة من أمراء مكة الأشراف «طبقة الهواشم» نسبة إلى أبي هاشم محمد بن جعفر بن محمد حفيد الحسين الأمير وهو بذلك يجتمع في الحسين مع الطبقة الاولى وامتد حكمهم من (597.455) أو (598هـ)[4]. وعُرف واحد فقط من هذه الأسرة حكم السرين، ولا يشترط أن يكون الوحيد فمن المرجح لدى عدد من الباحثين في تاريخ هذه البلدة أن هناك عدد من الأمراء لم تذكر أسماؤهم في المصادر ولم توجد في الشواهد القبورية، ولعلها اندثرت بشكل أو بآخر.

فمن أمراء الهواشم الذين حكموا السرين الأمير محمد بن قاسم بن أبي هاشم محمد، فوالده وجده تقلدا إمارة مكة وكذلك أخوه فليته.

وهؤلاء الأمراء هم فقط من توصلت إليهم الأبحاث الآثارية في موقع السرين الأثري من خلال النقوش الشاهدية، أو من إشارات بعض المصادر على قلتها عن أمراء السرين[5].

وفي عام 439هـ حج ناصر خسرو الفارسي صاحب رحلة «سفرنامه» منطلقاً من مصر معظماً لحكامها العبيديين لتوافقه المذهبي معهم، فقد رافق كسوة الكعبة التي أرسلت عن طريق بحر القلزم «البحر الأحمر» حتى وصلت بهم

(1) الفقيه: المرجع السابق، ص62؛ الزيلعي: المرجع السابق، ص175.174؛ ابن عنبه، المصدر السابق، ص157.

(2) الفقيه: المرجع السابق، ص63، والزيلعي: المرجع السابق، ص175؛ ابن عنبه: المصدر السابق، ص157.

(3) الفقيه: مدينة السرين، ص63؛ الزيلعي: تاريخ الأسرة الموسوية، المرجع السابق، ص175؛ وانظر: ابن عنبه: عمدة الطالب، ص157.

(4) تقي الدين الفاسي: العقد الثمين، ج2، ص133 . 135؛ عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج1، ص516.509، وانظر السباعي: تاريخ مكة، ص202.

(5) الفقيه: المرجع السابق، ص63؛ الزيلعي: ميناء السرين، مرجع سبق ذكره، ص197.

الباخرة إلى ميناء الجار، ثم اتجه بعدها إلى المدينة براً.

وفي العام 441هـ حج الرحالة المذكور إلى أرض الحجاز، وفي هذه الرحلة يصف بعض ما لاقاه في البحر من عيذاب إلى جُدة، ويصف جُدة بأنها مدينة كبيرة ذات سور حصين، وأن عدد سكانها نحواً من 5000نسمة، وأمير جُدة من مماليك أمير مكة وهو «تاج المعالي بن أبي الفتوح» الذي تمكن من السيطرة على المدينة النبوية في تلك الفترة[1].

وفي العام 459هـ وقعت زلزلة بالشام والحجاز على ما يذكر ابن تغري بردي تأثرت بها الرملة وبيت المقدس، وتأثر بها الحجاز، وانشقت في أيلة الأرض وانفجرت منها عين ماء فأهلكت الناس بها[2].

العهد الأيوبي: 567 - 648هـ

الغزو الصليبي للموانئ الحجازية: (في القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) من 510/ 1116. 578هـ/ 1182).

كانت الحروب الصليبية علامة فاصلة في حياة الأمة الإسلامية، ومحنة ابتلي بها المسلمون أيما ابتلاء، وجثى على صدورهم استعمار بغيض لبلادهم في الشام ما يزيد على مائتي عام من 491هـ/ 1097م إلى 692هـ/ 1292م.

وتعرضت موانئ الحجاز للغزو حتى كاد يصل الغزو لمكة والمدينة لولا أن حفظهما الله عز وجل.

وللحديث عن هذه المرحلة من تاريخ الأمة الإسلامية سنطرح بشيء من الإيجاز تعريفاً للحروب الصليبية وجملة من أبرز أسباب هذه الحروب كتمهيد للغزو الصليبي للحجاز.

(1) خسرو: سفرنامه، ص119، وص135. 136.

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص106 في حوادث سنة 460هـ؛ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر. مصر، ج5، ص80.

فالحروب الصليبية: عدة حملات شنها نصارى أوروبا على الشرق العربي الإسلامي، بهدف انتزاع الأماكن المقدسة في فلسطين من أيدي المسلمين، وبالتالي استعمار بلاد الشرق الإسلامي الغنية بخيراتها، وثرواتها، وذات الموقع الاستراتيجي الهام.

ولعل من أبرز أسباب هذه الحروب ما يلي:

1. ضعف الدولة الإسلامية في تلك الفترة: والذي تمثل في ضعف الدولة العباسية وتفككها وانقسامها إلى دويلات مستقلة متنازعة ومتصارعة فيما بينها.
2. روح التعصب الديني: الذي غلب على النصارى في تلك الفترة ضد ما هو إسلامي، فأخذوا يرددون مزاعم أن المسلمين يتعرضون للنصارى بالأذى لدى زيارتهم لأماكنهم المقدسة بفلسطين، فأخذ بابا النصارى في روما يؤجج هذه الروح الشريرة في نفوس المسيحين، ويستحثهم على تخليص وإنقاذ الأماكن المقدسة لديهم من أيدي المسلمين، وهو يسعى من باب خفي إلى دعم سلطته الدينية، ونفوذه على ملوك أوروبا وأمرائهم في ذلك الحين.
3. سوء الأحوال الاقتصادية في أوروبا: فقد ساهم النظام الإقطاعي في أوروبا المعتمد على النشاط الزراعي إلى تسلط طبقة من النبلاء والأمراء والملوك على رقاب الشعوب الأوروبية في اضطهادها، وفي المقابل سيطر المسلمون على التجارة خاصة في حوض البحر المتوسط، فوجد تجار أوروبا وخاصة تجار المدن الإيطالية في الحروب الصليبية فرصة سانحة لتأسيس مراكز تجارية لهم وفتح أسواق جديدة لتجارتهم، فكان أن قدم هؤلاء التجار كل المساعدة الممكنة للجيوش الصليبية لغزو الشرق الإسلامي ليحققوا طموحاتهم وأطماعهم.

4. سوء الاحوال الاجتماعية في أوروبا: فقد كان المجتمع الأوربي يتكون من ثلاث طبقات هي: طبقة رجال الدين برئاسة بابا النصارى، وطبقة النبلاء والفرسان، وطبقة الأقنان (وهم رقيق الأرض)، فكانت العلاقة بين هذه الفئات الثلاث تقوم على التسلط والاستعباد والعداء، ولهذا تجاوبت فئات المجتمع الأوروبي مع دعوة البابا رغبة في الخلاص من الآخر.
5. توغل السلاجقة الأتراك في آسيا الصغرى: فقد كان انتصار السلاجقة بقيادة «ألب أرسلان» على الروم البيزنطيين في معركة «ملاذكرد أو منزكرت» سنة 462هـ (1071م) وتهديدهم للقسطنطينية سبباً في تخوف الامبراطور البيزنطي «الكسيوس كومنين الأول» واستنجاده ببابا روما وملوك أوروبا.

فكانت الحملة الصليبية الأولى عام 491هـ (1097م) بقيادة عدد من الأمراء الذين التقوا في القسطنطينية، ثم زحفوا على بلاد المسلمين وانتصروا على السلاجقة، وكونوا مستعمرات لهم في بلاد الشام وهي: إمارة الرها، وإمارة أنطاكية، وإمارة طرابلس، ومملكة بيت المقدس[1].

وجدير بالذكر أن يشار إلى أن أول من رفع راية الجهاد ضد الصليبيين وأقام علمه هو عماد الدين زنكي الذي أسس إمارة له في الموصل شمال العراق وتلاه ابنه نور الدين زنكي، ثم كانت ذروة جهاد الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي مؤسس دولة بني أيوب في مصر والحجاز والشام واليمن وفاتح بيت المقدس.

من هذا التمهيد عن الحروب الصليبية يتعرض البحث لأول ثغر حجازي تعرض للغزو الصليبي ألا وهو «أيلة. العقبة».

فقد قام بلدوين الأول ملك مملكة بيت المقدس الصليبي بهدف توسعة

(1) عاشور: سعيد عبدالفتاح: الحركة الصليبية، الطبعة الثالثة، 1978، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة، ج1، ص99.19.

حدود مملكته الاستعمارية في عام 510هـ/ 1116م في إحدى حملاته بالاستيلاء على أيلة مسيطراً بذلك على ساحل خليج العقبة، وبنى له في أيلة قلعة حصينة بهدف التحكم في الطريق البري للقوافل بين مصر والشام، كما قام أيضاً ببناء قلعة أخرى في جزيرة فرعون الواقعة أمام أيلة في الخليج. وسقوط أيلة في إيدي الصليبيين مكنهم من قطع طريق القوافل بين القاهرة من ناحية ودمشق وبغداد من ناحية أخرى، كما أسهم في تهديد حجاج بيت الله وهم في طريقهم إلى الأراضي المقدسة، فصار طريق المواصلات مقطوعاً بين مصر والشام، مما أدى إلى انقطاع الصلة بين مصر والشام، ونور الدين في الشام وصلاح الدين في مصر فيما بعد[1]، وزاد الأمر سوءاً عندما تزايدت اعتداءات الصليبيين على القوافل السائرة بين الحجاز ومصر والشام[2].

ولكن المسلمين تمكنوا من استعادة أيلة بعد ستة وخمسين عاماً من الاحتلال الصليبي، وكان ذلك على يد صلاح الدين الأيوبي عام 566هـ بعدما سيطر على مصر في خلافة العاضد الفاطمي العبيدي، وأرسل لنورالدين زنكي أن يرسل أباه نجم الدين أيوب وأهله إليه بالقاهرة، ولما خرجت القافلة بهم من دمشق خاف صلاح الدين عليهم من الصليبيين فخرج في النصف من ربيع الأول سنة 566 (1170م) متوجهاً إلى أيلة فأنشأ المراكب وحملها مفصلة على الجمال إلى أيلة، وعلى مقربة من هذا الميناء أمر صلاح الدين بتركيب المراكب وشحنها بالمقاتلة وزحف بها على القلعة براً وبحراً، وفي شهر ربيع الثاني استولى على أيلة وقضى على حاميتها الصليبية، وأسكن بها من يثق به وأمدهم بما يحتاجون من السلاح والمؤن، وبقى صلاح الدين بأيلة حتى اجتمع بأهله، ثم سار بهم إلى القاهرة التي وصلها في جمادى الأولى من العام المذكور[3].

---

(1) مع العلم أن صلاح الدين دخل مصر مع عمه أسد الدين شيركوه عام 560هـ/ 1164م. انظر عاشور، المرجع السابق، ج2، ص664،662.

(2) عاشور: المرجع السابق، ج1، ص319،318 وص330، وج2، ص691.

(3) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج9، ص110، أحداث سنة 566؛ ابن خلدون ديوان المبتدأ والخبر في

وقد ورد ذكر أيلة وتحرير صلاح الدين لها من النصارى في قصيدة لمجد الدين محمد بن الظهير الإربلي[1] يمدح فيها صلاح الدين ويسجل فتوحاته، حيث يقول:

مليك من القوم الذين رماحهم ... دعائم هذا الدين في كل مشهد
هم نصروا التوحيد نصراً مؤزراً ... به عز في الآفاق كل موحد
وهم قهروا غلب الفرنج ببأسهم ... فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد
وردوا إلى البيت المقدس نوره ... وقد كان في ليل من الشرك أسود
وقد ركبت فرسانه بحر أيلة ... يخوضون في بحر من الكيد مزبد
وهم رجّعوا مصراً إلى دعوة الهدى ... بعزم ورأي في العظائم محصد
وهم شيدوا ركن الخلافة بالذي ... أعادوه من حق طريف ومتلد[2]

وكانت المحاولة الصليبية الخطيرة التي هدفوا من ورائها إلى ضرب المدينتين المقدستين مكة والمدينة، بقيادة الأمير الصليبي الذي تسميه المصادر الإسلامية «أرناط» وهو «الأمير رينودي شاتيون»، أحد الأمراء الفرنسيين، وقد اتصف بالغدر وعدم الوفاء بالعهد، وجاء هذا الأمير مع الحملة الصليبية الثانية عام 542هـ/ 1147م، وتمكن نور الدين زنكي من القبض عليه وسجنه، وبقي في سجنه 16 عاماً من (556هـ/ 572هـ)، فأطلق سراحه، ثم أصبح أميراً

تاريخ العرب والبربر، المسمى (تاريخ ابن خلدون)، تحقيق خليل شحادة، الطبعة الأولى 1401.1981، دار الفكر، بيروت، ج5، ص333.332؛ ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج5، ص386.385؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج22، ص693؛ أحمد رمضان أحمد: شبه جزيرة سيناء في العصور الوسطى، 1397هـ. 1977، ص108.

(1) هو محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبي شاكر الإربلي، مجد الدين ابن الظهير، شاعر أديب، من فقهاء الحنفية. ولد بإربل، وتنقل في العراق والشام، ومات بدمشق، ومن مصنفاته (تذكرة الأريب وتبصرة الأديب»، و«مختصر أمثال الشريف الرضى»، و«ديوان شعر». ويرجح الزركلي أنه حياته امتدت ما بين 602هـ. 677هـ انظر الأعلام، ج5، ص323.

(2) أبو شامة: شهاب الدين عبدالرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المقدسي: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق إبراهيم الزيبق، الطبعة الأولى، 1997، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج2، ص197.

على الكرك بعد زواجه من أميرة الكرك[1].

ويصفه ابن الأثير بأنه كان من شياطين الإفرنج ومردتهم وأشدهم عداوة للمسلمين[2].

فكانت حملته الأولى عام 577هـ/ 1181م البرية في فصل الشتاء تلافياً لحرارة الصيف في البرية العربية حتى وصل إلى تيماء بهدف الوصول إلى المدينة، وقد سلب إحدى القوافل التجارية، فما كان من نائب صلاح الدين على دمشق عزالدين فروخشاه إلا أن هاجم إمارة الكرك ونهبها وخربها واكتسح نواحيها، مما دفع بأرناط إلى العودة سريعاً إلى إمارته، وقطع مشروعه بمهاجمة الحرمين الشريفين وبهذا فشلت المحاولة الأولى[3]. إلا أنه استفاد من هذه التجربة الفاشلة بالتعرف على طبيعة البرية العربية ودروبها وممراتها.

ولما علم صلاح الدين غضب مما فعله أرناط، فأرسل إلى ملك بيت المقدس الصليبي يلومه على فعلة أرناط ويذكره بالهدنة المعقودة بينهما، ويطالب برد ما سلبه أرناط من القافلة التجارية من أموال وأسرى، إلا أن أرناط رفض رد المسلوبات ولم يرضخ لطلب بلدوين الرابع ملك بيت المقدس وقابلهم صلاح الدين بالاستيلاء على سفن نصرانية تحمل عدد من النصارى فأسرهم وعرض مبادلتهم بالأسرى المسلمين فرفض أيضاً أرناط، فاضطر صلاح الدين للاحتفاظ بالأسرى النصارى[4].

ثم كانت المحاولة الثانية لأرناط لغزو الحرمين الشريفين والسيطرة على البحر الأحمر هي الغزو بحراً، وقبيل تلك المحاولة توجه صلاح الدين إلى

(1) أحمد رمضان أحمد: شبه جزيرة سيناء، ص113.112.
(2) ابن الاثير: الكامل في التاريخ: ج9، ص153.152، حوادث سنة 577هـ.
(3) عاشور: الحركة الصليبية، ج22، ص742.740؛ حمدي محمد راجح، المحاولة الصليبية لغزو الحجاز: رسالة ماجستير، جامعة الملك عبد العزيز، 1985.1405، ص162.161؛ أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء، ص117.116؛ وانظر: المقريزي: السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، 1418هـ.1997م، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص187، حوادث سنة 775هـ.
(4) عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص743.742.

دمشق في سنة 578هـ عبر طريق أيلة وأُخبر أن الصليبيين يجتمعون بالكرك لقطع الطريق إلى دمشق فأرسل إلى ابن أخيه عزالدين فرخشاه وأمره بمهاجمة مناطق الصليبيين لإشغالهم عنه حتى يواصل طريقه إلى دمشق، ونجح في ذلك، وتحرك صلاح الدين من أيلة بالجنود، وأخذ يهاجم أطراف بلاد الصليبيين حتى دخل دمشق وفي هذه الاثناء واستغلالاً لانشغال صلاح الدين بهجماته في الشمال[1]، تحرك أرناط باتجاه أيلة والاستيلاء عليها، وهدف كذلك إلى السيطرة على جزيرة فرعون فبنى عدة سفن حملت أجزاؤها مفككة على ظهور الجمال حتى خليج العقبة وتمكن من محاصرة الجزيرة، وأوقف أمامها مركبين لمنع أهالي القلعة بالجزيرة من جلب ماء الشرب، وواصلت بقية السفن زحفها في البحر الأحمر باتجاه ميناء عيذاب الواقع على الساحل المصري المقابل للساحل الحجازي[2]، فأحرقوا في البحر 16 مركباً،

وفي عيذاب نفسها أخذوا مركباً آتياً بالحجاج من جُدة، كما استولوا على قافلة برية قادمة إلى عيذاب من قوص، واستولوا على مركبين لتجار قادمين من اليمن، وقتلوا وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت معدة لمكة والمدينة[3].

ولم يقف أرناط عند ذلك الحد، بل انتقل من الساحل المصري إلى الساحل الحجازي متوجهاً إلى المدينة، وساعده في معرفة الدروب والنواحي بعض البدو، وهذه المحاولة أحدثت رعباً وخوفاً لدى كثير من المسلمين وخاصة أهالي المدينة النبوية، حتى ذكر المؤرخون أنه نزل بساحل الحوراء[4].

(1) ابن الاثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص155، أحداث سنة 578؛ أبو شامة: الروضتين، ج23، ص105؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص190.189؛ عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص755.743؛ أحمد رمضان أحمد: شبه جزيرة سيناء، ص118.117.

(2) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، ج3، ص134؛ أحمد رمضان أحمد، شبه جزيرة سيناء، ص118. 119؛ راجح: المحاولة الصليبية لغزو الحجاز، رسالة ماجستير، ص167.164.

(3) ابن جبير: الرحلة: ص34.

(4) الحوراء: تقع على الساحل الحجازي على بعد 10كم شمال مدينة أملج، انظر علي غبان: الآثار

وأكد عدد من المؤرخين على أنه لم يبقَ بينهم وبين المدينة سوى مسيرة يوم واحد، وكان أرناط قد أخذ الحيطة من إرسال مدد بري، فأرسل فرقة عسكرية إلى تبوك، فما كان من نائب قلعة أيلة إلا أن أرسل كتاباً إلى صلاح الدين وهو في الموصل يخبره بما جرى على ساحل الحجاز، فأمر صلاح الدين أخاه العادل بمصر بإعداد الأسطول لرد الغزاة، وأعد العادل قائده حسام الدين لؤلؤ لهذه المهمة، وحملت المراكب المفككة على ظهور الجمال إلى مدينة أيلة، وفي البحر قسم أسطوله إلى فرقتين فرقة حاصرت المحاصرين لقلعة أيلة في جزيرة فرعون واستولت على مراكب الصليبيين وقتلت أكثر رجالها إلا من هرب إلى الهضاب أو الشعاب، فتولى العربان تتبع آثارهم وإحضارهم، فلم يفلت منهم أحد، وفريق من الأسطول توجه إلى ميناء عيذاب، فاستطاع أن يُطلق سراح الأسرى، ورد المسلوبات، وتوجه إلى الساحل الحجازي فوجد بعض الصليبيين في ساحل الحوراء، وأدرك الباقين في الطريق إلى المدينة، فهرب أدلتهم من البدو لما شاهدوا الجيش الأيوبي فما كان من الصليبيين الغزاة إلا أن لجأوا إلى جبل يعصمهم من الجيش الأيوبي ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله، وتساقطوا فاستسلموا وحملوا إلى القاهرة، واثنان من أعيانهم حُمِلا إلى منى ونحرا هنالك كما تُنحر «البُدن» هدايا الحجاج، وقد أمر صلاح الدين بقتل أولئك الأسرى ليكونوا عبرة لكل من تحدثه نفسه بالاعتداء على حرم الله وحرم رسوله عليه الصلاة والسلام[1].

ويتبين لنا مدى الجرأة التي بلغت بالصليبيين لمهاجمة الحرمين الشريفين، وقد أشار عدد من المؤرخين إلى أن من أهداف هذا الغزو الصليبي للحجاز السيطرة على البحر الأحمر وتجارته، ثم الوصول إلى المدينة ونبش قبر النبي

الإسلامية في شمال غرب المملكة، ص24.

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص190؛ ابن الاثير: الكامل، ج9، ص159؛ أبو شامة: الروضتين، ج3، ص140.133؛ وانظر: عاشور: الحركة الصليبية، ج2، ص761.755؛ أحمد رمضان: شبه جزيرة سيناء، ص121.118؛ راجح: المحاولة الصليبية لغزو الحجاز، ص200.167.

صلى الله عليه وآله وسلم ونقل جثمانه إلى بلادهم، وتدمير الحرمين إن أمكنهم ذلك بما يعتمل في صدورهم من حقد صليبي أسود على الإسلام والمسلمين ومقدساتهم[1].

وعوداً على الأحداث الداخلية في الحجاز، فإن نجد أثناء الصراعات بين أمراء مكة أن تعرضت جُدة للاعتداء والنهب بجيش من هذيل يقوده الشريف مالك بن فليتة في صراعه مع أخيه الشريف عيسى بن فليتة في العام 567هـ[2].

وإن من مآثر السلطان صلاح الدين الأيوبي يرحمه الله إبطال المكوس على الحجاج في مينائي عيذاب وجُدة في عام 572هـ، وكان يؤخذ من كل حاج مبلغ سبعة دنانير ونصف مصرية في عيذاب ومن لم يدفع تؤخذ منه في جُدة عنوة وتحت التعذيب، فأوقف ذلك صلاح الدين وعوض أمير مكة ألف دينار، وألفي إردب من القمح وإقطاعيات بصعيد مصر وجهة اليمن تحمل إليه كل عام، بعد أن بين له أمير مكة حاجتهم لهذا المكس واضطرارهم إليه لعدم وجود مورد مادي لمكة غير ذلك، فأبطلت المكوس على الحجاج من ذلك العام[3].

وفي العام 579 وصل إلى جُدة الرحالة المغربي الأندلسي ابن جبير حاجاً، وكان ذلك في شهر ربيع الآخر من العام المذكور، ووصف جُدة بأن أكثر بيوتها من الأخصاص، وأكثر سكانها أشراف علويون (حسنيّون وحسينيّون وجعفريّون) وهم في رأيه في شظف من العيش بحال يتصدع له الجماد إشفاقاً مُبدياً حسرة على وضع أهل البيت في جُدة في زمانه[4].

ومن قرية العلقمية بينبع ظهر مؤسس الطبقة الرابعة من أمراء مكة

(1) ابن الاثير: المصدر السابق، ج9، ص160؛ أبو شامة: المصدر السابق، ج3، ص139؛ عاشور: المصدر السابق، ج2، ص759.758؛ راجح: المصدر السابق، ص165.163.
(2) السنجاري: منائح الكرم، ج2، ص253؛ انظر السباعي: تاريخ مكة، ص222.
(3) النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج2، ص540.538؛ ابن جبير: الرحلة، ص31.30؛ عبد العزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج1، ص540؛ السنجاري: ج2، ص258؛ السباعي: تاريخ مكة، ص224؛ سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ج1، ص166.165.
(4) ابن جبير: الرحلة، ص53.

الأشراف في العام 597هـ (الشريف قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبدالكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبدالله بن محمد بن موسى بن عبدالله بن موسى بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب ويكنى أبا عزيز الينبعي المكي) وكان هو وأهله يسكنون العلقمية من ينبع، وأصبح في قومه رئيساً، فجمعهم، وأركبهم الخيل، وحارب الأشراف بني حراب، من ولد عبدالله بن الحسن بن الحسن، وبني علي، وبني أحمد، وبني ابراهيم. ومن دوافع توجهه إلى مكة ما وصله من أخبار بني عمه الهواشم بني فليته من انهماكهم في اللهو، وتبسطهم في الظلم، وأعد نفسه وقومه وتوجه إلى مكة وقيل إنه لم يذهب بنفسه، بل بعث ابنه حنظلة فملك مكة، وخرج منها مكثر بن عيسى بن فليته آخر أمراء مكة من الهواشم (وهم الطبقة الثالثة).

وكان قتادة مهيباً، وقوراً قوي النفس شجاعاً مقداماً، فاضلاً وله شعر، ومن شعره عندما طلبه الخليفة العباسي الناصر أن يُقدم عليه ببغداد وافق في أول الأمر ثم تراجع خشية أن يُغدر به:

ولي كف ضرغام أصول ببطشها ... وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظل ملوك الأرض تلثم ظهرها ... وفي بطنها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الثرى ثم أبتغي ... خلاصاً لها إني إذاً لرقيع
وما أنا إلا المسك في كل بلدة ... أضوع وأما عندكم فأضيع

ويذكر ابن الأثير أن ولايته اتسعت من حدود اليمن إلى المدينة، وله قلعة بينبع، وأكثر من العسكر والمماليك، وخاف العرب في تلك البلاد منه خوفاً عظيماً، وكان أول ملكه حسن السيرة، فقد أزال عن مكة العبيد المفسدين، وحمى البلاد، فأحسن إلى الحجاج وأكرمهم، إلا أنه بعد ذلك وفي آخر أيامه ساءت سيرته، وتوفي في 617 أو 618هـ في شهر جمادى الأولى أو الآخرة[1].

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص345 حوادث سنة 618هـ ؛ ابن عنبه: عمدة الطالب، ص166؛

وبعد تولى قتادة الحسني أمر مكة، دخلت بعض ثغور الحجاز كجُدة وينبع في جملة من الأحداث السياسية والصراعات المتعددة، وكجزء من طموح هذا الأمير لتوسيع حدود إمارته دخل في صراع مع بني عمه بني الحسين أمراء المدينة أملاً في السيطرة عليها بدءاً من عام 601هـ حتى وفاته 617هـ أو 618هـ، فقد ذكر ابن الأثير في حوادث سنة 601هـ بدء القتال بين قتادة الحسني وسالم بن قاسم الحسيني أمير المدينة، وكانت هذه الجولة لغير صالح قتادة فقد هُزم فيها وعاد إلى مكة[(1)].

في سنة 612هـ وفي خضم الصراع بين الأميرين، وأثناء توجه الأمير سالم الحسيني إلى مكة توفي بالطريق، فتولى ولد أخيه جماز الإمارة وأكمل المسيرة إلى مكة، وخرج له قتادة في وادي الصفراء، فكان الانتصار لأمير المدينة وهرب قتادة منهزماً إلى ينبع فتتبعه المهاجمون وحاصروه في قلعته بينبع[(2)]. وفي العام الذي يليه، وفي سلسلة الحروب بين أميري مكة والمدينة، قام نواب الكامل الأيوبي بتسلم ينبع من نواب قتادة خشية عليها من قاسم الحسيني، وكان قد استولى على مناطق أخرى كان يسيطر عليها قتادة[(3)]. وفي نفس العام 613هـ أغار الشريف قاسم الحسيني على جُدة، فخرج له قتادة وانتصر عليه يوم عيد النحر[(4)].

وفي العام 619هـ توالت الأحداث السياسية والصراعات العسكرية لتنال

تاريخ ابن خلدون، ج4 ص136.134؛ الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص475.463؛ عبدالعزيز بن فهد، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج1، ص555.550؛ عبدالملك بن حسين وانظر العصامي: النجوم العوالي في أنباء الاوائل والتوالي، 1379، المطبعة السلفية، القاهرة، ج4، ص214.207؛ السنجاري: منائح الكرم، ج2، ص269.266؛ الدحلان خلاصة الكلام، ص23؛ سنوك: صفحات من تاريخ مكة، ج1، ص176.173؛ وانظر: السباعي: تاريخ مكة، ص227.224.

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص269؛ الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص464.

(2) أبو شامة: تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بـ» الذيل على الروضتين«، الطبعة الثانية، 1974، تحقيق محمد زاهد الكوثري والسيد عزت العطار الحسيني، دار الجيل، بيروت، ص90.89.

(3) المصدر السابق، ص92.

(4) المقريزي: السلوك، ج1، ص305 حوادث سنة 613هـ.

الثغور نصيباً منها، فقد وصل صاحب اليمن الملك المسعود يوسف بن الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب إلى مكة، وكان يتولى إمرتها الشريف حسن بن قتادة، الذي ساءت سيرته في مكة، وكان برفقة الملك المسعود الشريف راجح بن قتادة فوصل في ربيع الأول وقاتل حسن، فانتصر عليه، فما كان من حسن إلا أن توجه إلى ينبع ليعاود الكرة بالهجوم على مكة واستردادها إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ومكافأة لراجح الذي ساعد الملك المسعود ولاّه السرين وحلي ونصف المخلاف[1]. إلا أن الزيلعي يرجح أن راجحاً يتولى إمرة السرين قبل تولية الملك المسعود له في عام 619هـ، وما كانت هذه التولية إلا منح الصفة الرسمية لراجح لحكم السرين، مستنداً إلى رواية ابن الأثير أن راجحاً كان يسكن بظاهر مكة عند الأعراب، ورواية ابن فهد أنه يسكن بالواديين وتطلق على المنطقة المحيطة بالسرين، وبالتالي فسكناه وأهله بالسرين تجعل منه أميراً عليها، ولعل أخاه حسن أقصاه عن الإمارة، فولاه المسعود إمارة السرين أو أعاده إليها، وتلك من الأسباب التي دفعت براجح أن يتعاون مع المسعود ضد أخيه حسن بن قتادة، بل وانفرد الزيلعي برأي؛ أن راجح بن قتادة لم يتولّ إمرة مكة وإنما قد يكون حصل له نفوذ بمكة في بعض السنين ولفترات قصيرة[2]. بالرغم من أن الفاسي وابن فهد يشيران إلى توليه إمارة مكة أوقاتاً متعددة[3].

وفي العام 621هـ وفي خضم التنافس بين حكام مصر وحكام اليمن على مكة اشترى الأيوبيون في مصر ينبع من الأشراف بني الحسن وقصدوا بذلك الإشراف المباشر على ميناء ينبع، وقدر المبلغ الذي تم دفعه للأشراف بأربعة

(1) ابن فهد: إتحاف الورى: ج3، ص35،34؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص333.

(2) الزيلعي: حاكم السرين (راجح بن قتادة) ودوره في العلاقات المصرية واليمنية في مكة، بحث في مجلة العصور، المجلد الأول، الجزء الأول، 1986م، ص24،21؛ انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج9، ص345.

(3) العقد الثمين، ج4، ص78، وغاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج1، ص616؛ السنجاري: منائح الكرم، ج2، ص315؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص36.

آلاف مثقال، ولم تزل بأيدهم إلى سنة 630هـ، وأقاموا فيه بعض الإنشاءات، ورغم استعادة الأشراف السيطرة على الميناء إلا أن الأيوبيين استرجعوه وبنوا فيه قلعة حصينة ووضعوا فيه عسكراً لحمايته، وبالتالي أصبحت ينبع الميناء سيدة الأحداث القادمة، أُتخذت الميناء الرئيسي للمدينة وأصبحت في المرتبة الثانية بعد جُدة[1]. وبالرغم من سيطرة الأيوبيين بقيت ينبع ملاذاً لأمراء مكة في صراعاتهم الداخلية، فكانت أحياناً تؤوب إليها الأحداث من مكة، وأحياناً تنطلق منها بخروج أمير من بني الحسن منها أو بدخول أمير من بني الحسن إليها كما سيتبين من الأحداث التالية أيضاً.

وعوداً إلى الشريف راجح بن قتادة أمير السرين الذي اتخذ من هذه البلدة قاعدة عسكرية في صراعه مع إخوته في مكة، وأقام قريباً من هذه البلدة قلعة له يُرجح أنها بقرية الصهوة الواقعة في الطرف الشمالي أسفل وادي عليب، حيث يوجد موقع أثري يقع شرقاً بمقدار 14 كم ويوجد به آثار أساسات حجرية ترجح هذه الاحتمال[2].

ومن الأحداث السياسية والعسكرية التي ارتبطت بالسرين أو انطلقت منها ما كان عام 629هـ[3] عندما شجع الشريف راجح بن قتادة حاكم اليمن عمر بن علي بن رسول الذي أعلن

نفسه ملكاً وتلقب بالمنصور (مؤسس الدولة الرسولية في اليمن) [4] على دخول مكة وطرد الوالي الأيوبي طغتكين، فلبى دعوته كجزء من الصراع بينه وبين الأيوبيين في مصر ورغبة في ضم مكة إلى ملكه، فأعد جيشاً بقيادة ابن

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص337؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص39؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص49.
(2) الفقيه: مدينة السرين، ص69.
(3) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص79.78؛ فهد: إتحاف الورى، ج3، ص49؛ الزيلعي: حاكم السرين (راجح بن قتادة) بحث في مجلة العصور، سبق ذكره، ص25.
(4) (1) اسمه (محمد) ابن هارون الغساني التركماني، أحد الدهاة والشجعان، ولد بمصر ونشأ أديبًا فاضلاً، دخل مع الأيوبيين اليمن ولما مات الملك المسعود الأيوبي استولى على اليمن وحارب الأيوبيين ودامت الدولة الرسولية 232 عاماً. انظر الزركلي: الأعلام، ج 5، ص56.

عبدان، ومعه خزانة إلى الشريف راجح.

واستطاع راجح أن يستميل أهل مكة ودخل الجيش اليمني مكة، وخرج الحاكم الأيوبي فاراً إلى ينبع التي أصبحت قاعدة أيوبية فتلقى مدداً عسكرياً من الملك الكامل، فعاد في رمضان وسيطر على مكة وأخرج منها الجيش اليمني الرسولي وعاقب أهل مكة. إلا أن راجحاً لم ييأس من تكرار المحاولة، فعاود الكرة في العام التالي 630هـ[1] واستعاد مكة بمدد عسكري من الملك المنصور الرسولي حاكم اليمن في شهر صفر، وفر منها الحاكم الأيوبي فخر الدين ابن الشيخ، وفي آخر هذه السنة عاد الجيش المصري للاستيلاء على مكة وإخراج راجح والجيش اليمني، وفي سنة 631هـ[2] جهز الملك الرسولي جيشاً برفقة الشريف راجح واستطاع الاستيلاء على مكة وأخرجوا المصريين، إلا أن السيطرة على مكة عادت إلى سلطة الأيوبيين، وتوجه راجح إلى اليمن، وعادت المحاولات فعاد الشريف راجح سنة 633هـ[3] بجيش للمنصور الرسولي وعدد من الأعراب من سكان السرين وتهامة وفي الطريق بين مكة والسرين التقى مع الجيش المصري، فانهزم الجيش اليمني والأعراب الذين برفقه راجح، وفي سنة 635هـ أو 636هـ[4] دخل المنصور مكة واستولى عليها، ولكن ما أن حل عام 637هـ حتى خرج منها الجيش اليمني ودخلها الشريف شيحه بن قاسم بن مهنا الحسيني أمير المدينة في ألف فارس من مصر، إلا أن المنصور الرسولي لم ييأس وكرر المحاولة واسترد مكة، ثم عاود الجيش المصري السيطرة على

(1) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص79؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص25؛ الزيلعي: حاكم السرين، المرجع السابق، ص26.

(2) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص81؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص25؛ السنجاري: منائح الكرم، ج2، ص299؛ الزيلعي: حاكم السرين، المرجع السابق، ص26.

(3) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص81؛ الدحلان: المصدر السابق، ص26؛ السنجاري: المصدر السابق، ج2، ص300.299؛ الزيلعي: حاكم السرين، المرجع السابق، ص26.

(4) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص82؛ النجم عمر بن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص55.53؛ الزيلعي: المرجع السابق، ص27.

مكة سنة 638هـ[1] وفي سنة 639هـ[2] بعث المنصور بجيش كبير برفقة الشريف راجح إلا أن راجحاً علم بوصول مدد للجيش الأيوبي في مكة فتراجع إلى السرين وطلب المدد من المنصور، فتقدم المنصور على رأس جيش كبير، ولما علم الأيوبيون خرجوا من مكة بعد أن خربوا دار السلطنة، فدخلها الملك المنصور في نفس السنة، وكان برفقة المنصور، علي بن قتادة، وأرسل يستميل صاحب ينبع أبي سعد الحسن بن علي بن قتادة واستطاع المنصور الرسولي أن يشتري منه قلعة ينبع التي يسيطر عليها الأيوبيون، وأمر بهدمها، وعينه والياً على وادي فاطمة وولى مكة مملوكه الأمير فخرالدين الشلاح، وعاد إلى اليمن سنة 640هـ[3].

وانتقلت ولاية مكة إلى ابن المسيب نيابة عن الملك المنصور، إلا أن أبا سعد الحسن بن علي دخل مكة عام 647هـ واستولى عليها وقيد ابن المسيب وصادر أمواله وفر راجحاً الموالي للملك المنصور إلى السرين، رغم إعلان أبي سعد ولاءه للملك المنصور[4]. وما كان من راجح بن قتادة إلا أن توجه إلى المدينة واستعان بأميرها من بني حسين وأعانه بـ 700 فارس، إلا أن أبا سعد تمكن من قطع الطريق عليه بأن أرسل إلى ابنه أبي نُمي في ينبع الذي لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، فالتقى أبا نُمي براجح ورجال المدينة في الطريق بين المدينة ومكة واستطاع التغلب عليهم فغادروا من حيث أتوا[5]. وفي هذه الفترة ينتهي العهد الأيوبي، وتظهر دولة المماليك في مصر وتبسط سلطانها على الحجاز

(1) الفاسي: المصدر السابق: ج4، ص82؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص57.55؛ الزيلعي: المرجع السابق، ص27.

(2) الفاسي: المصدر السابق: ج4، ص82؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص58.57؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص26؛ السنجاري: منائح الكرم، ج2، ص302؛ الزيلعي: المرجع السابق، ص27.

(3) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص82؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص26، وانظر الزيلعي: حاكم السرين، ص27.

(4) الفاسي: العقد الثمين: ج4، ص82، ج3، ص399.397؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص26؛ الزيلعي، المرجع السابق، ص28.

(5) الدحلان: المصدر السابق، ص26؛ السباعي: تاريخ مكة، ص237.

تبعاً لذلك كما سنوضحه في المبحث التالي:

العهد المملوكي: 648 ـ 923هـ

واستمراراً للأحداث السابقة وفي عام 651هـ لم يهنأ أبو سعد الحسن بن علي بن قتادة في الحكم، إذ خرج عليه الشريف جماز بن حسن بن قتادة بعد أن طلب العون من الأيوبيين بدمشق، فدخل مكة واستولى عليها وقتل الحسن بن علي في شهر شعبان أو رمضان، إلا أنه هو أيضاً لم تستقر له الأمور بمكة إذ خرج عليه صاحب السرين راجح بن قتادة صاحب المحاولات العديدة، فما كان من الشريف جماز إلا أن خرج من مكة وفر إلى ينبع التي تعتبر ملاذاً لبني قتادة في صراعاتهم السياسية[1].

ولم يهنأ الحاكم الجديد لمكة بالأمر، فخرج عليه ابنه الشريف غانم بن راجح وانتزع منه إمارة مكة 652هـ[2]، فما كان من راجح إلا أن عاد إلى مقره القديم السرين[3]، ولكن الأمور أيضاً لم تستقر لابنه غانم في مكة فخرج عليه إدريس بن قتادة وابن أخيه أبو نمي في نفس السنة[4].

فلم يرق ذلك لحاكم اليمن الملك المظفر الرسولي، فاستولى على مكة بقيادة ابن برطاس في ذي القعدة 652هـ[5]، فما كان من إدريس وأبي نمي إلا أن أعادا المحاولة واستعانا بأمير المدينة جماز بن شيحه الحسيني، واستطاع الثلاثة دخول مكة والتغلب على ابن برطاس والقبض عليه فافتداه الشريف راجح بن قتادة أمير السرين الموالي لحكام اليمن الرسوليين، وعاد ابن برطاس

(1) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص75.74؛ العصامي: سمط النجوم العوالي، ج4 ص221.220؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص27؛ الزيلعي: حاكم السرين (راجح بن قتادة) سبق ذكره، ص28.

(2) ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص75؛ الزيلعي، ص28.

(3) الزيلعي: المرجع السابق، ص28.

(4) ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص76؛ المقريزي: السلوك، ج1، ص486؛ الدحلان: المصدر السابق، ص27؛ الزيلعي: حاكم السرين، ص28.

(5) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص77؛ الزيلعي: حاكم السرين، ص28.

إلى اليمن عام 653هـ[1] إلا أن الأحداث لم تنتهِ إلى ذلك فقد تنازع الأميران إدريس وأبو نُمي على الإمارة، وانفرد أبو نمي بالإمارة، وتوجه ادريس إلى راجح بن قتادة أمير السرين، فتوجه معه إلى مكة وتمكن من أن يعقد بينهما صلحاً به يمكنهما حكم مكة اشتراكاً وكان ذلك في العام 654هـ، وكانت تلك السنة هي نهاية الشريف راجح بن قتادة أمير السرين إذ توفي فيها[2].

وبالرغم من وفاة الأمير راجح بن قتادة أهم أمراء السرين في مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في الحجاز، إلا أن السرين لم تختفي من الأحداث نهائياً، إلا أنها بدأت في التراجع السياسي والدخول في ظل الأحداث حتى الاندثار النهائي وبدأ يطغى على اسم السرين اسم «الواديين». وادي حلية ووادي عليب اللذان يصبان عند بلدة السرين ويسميان الآن «الشاقة اليمانية والشاقة الشامية». ويرجح الفقيه أن ابنا أبي نمي حُميضة أو رُميثة قد توليا إمرة السرين بعد وفاة راجح بن قتادة 654هـ[3].

وفي سنة 669هـ اختلف الأميران إدريس وابن أخيه أبو نمي على الإمارة بمكة فتمكن إدريس من السيطرة على مكة، فما كان من أبي نمي إلا أن توجه إلى يَنْبُع وجمع منها جمعاً وعاد إلى مكة وتمكن من قتل عمه إدريس والانفراد بمكة[4]. في عام 691هـ قبض الأمير بكتوت العلائي من مماليك الأشرف خليل على الشريف راجح بن إدريس في ينبع وذهب به إلى مصر[5].

وفي عام 693هـ قرر أبو نُمي أمير مكة التوجه إلى مصر للقاء السلطان الملك الاشرف فمر بينبع، وهناك التقى بأميرها الشريف راجح بن إدريس الذي تنازل

(1) ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص78؛ الدحلان: المصدر السابق، ص27؛ الزيلعي: حاكم السرين، ص28؛ ريتشارد موتيل، الأحوال السياسية والاقتصادية في مكة في العصر المملوكي، الناشر عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، الطبعة الأولى، 1985.1405، ص53.51..

(2) الزيلعي: حاكم السرين، سبق ذكره، ص29.

(3) مدينة السرين: ص70.

(4) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص99؛ العصامي: سمط النجوم العوالي، ج4، ص223.

(5) المقريزي: السلوك، ج2، ص237؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص122.

له عن إمارة ينبع، وفي أثناء ذلك وصل الخبر بمقتل السلطان الملك الأشرف، فعاد أبو نُمي من ينبع إلى مكة[1].

وفي سنة 700هـ نال ينبع خيراً عندما نزل بها الأمير بكتمر الجو كندرا وأنفق في حجته خمسة وثمانين ألف دينار، فقد جهز سبعة مراكب في البحر الأحمر تحمل الغلال والدقيق وأنواعاً من العسل والسكر والزيت والحلوى وغير ذلك، وعند وصوله ينبع وصل من هذه المراكب ثلاثة ففرق كثيراً من محتوياتها بين الحجاج الذين يمرون ينبع بحراً أو براً، وكذلك نال أهل ينبع منها نصيباً، وكذلك فعل في جُدة ومكة، ولم ينسَ أيضاً حجاج الشام[2].

وفي عام 704هـ قدم الأمير سلار أيضاً إلى الحجاز بأحمال من النفقات والخيرات ليفرقها بين الحجاج والمجاورين في مكة وجُدة ومن لقيه في الطريق، ووصلت مراكبه جُدة، ويصف المقريزي ما فعل سلار من توزيعه الأموال والغلات بأنه لم تبق بمكة امرأة ولا رجل ولا صغير ولا كبير ولا غني ولا فقير، عبد أو حر، شريف أو غير شريف إلا عمه ذلك الخير، وبعث رجاله إلى جُدة ففرقوا فيها كما فرقوا بمكة من الخيرات والغلال والأموال، حتى أصبح الناس في الحرمين يرددون «يا سلار كفاك الله هم النار»[3].

وحج في هذا العام فقيه يمني يدعي علي بن أحمد العسيل الحبيشي، ولما انتهى من حجته توفاه الله في أواخر شهر ذي الحجة في جُدة[4].

وفي العام 718هـ و719هـ وفي ظل الصراع بين أبناء أبي نُمي حُميضة ورمُيثة وعطيفه وأبي الغيث، وفي سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون تمكن حميضة من السيطرة على الأمور في مكة، وقطع الخطبة في مكة عن الناصر

(1) المقريزي: المصدر السابق، ج2، ص256؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص125.
(2) المقريزي: السلوك، ج2، ص342؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص132.
(3) السلوك: ج2، ص378؛ علي بن حسين السليمان: العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، 1973.1393، ص136.
(4) ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص143؛ السلاح والعدة في تاريخ جُدة لابن فرج، ص45.

وخطب لأبي سعيد بن خدابندا ملك التتار، مما أثار الناصر فأرسل جيشاً لإحضار حميضة، إلا أن أحد القادة المماليك ويدعى بهادر الإبراهيمي الذي يذكر العصامي أنه من أهل ينبع يبدو أنه تساهل في القبض على حميضة حتى فر وساعده في هذا التساهل رميثة أخو حميضة، فما كان من العسكر إلا أن ألزموهما واتهموهما بتعمد التغاضي عن هروب حميضة وقرروا القبض على رميثة، وذهبوا به إلى مصر، ولكنه تمكن من الهرب فأصر السلطان الناصر على إعادته وألزم بعض مشايخ العرب وكتب إلى شيخ آل حرب[1] يلزمه بإحضار رُميثة وفعلاً تمكنوا من القبض عليه وهو نائم بالقرب من العقبة (أيلة) وكان ذلك في العام 719هـ[2].

وفي هذا العام أيضاً أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بإصلاح طريق الحج في عقبة أيلة من الصخور، حتى أمكن سلوكها بدون مشقة[3].

وكذلك حج هذا العام السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وحمل معه الشيء الكثير من الغلال والخيرات براً وبحراً، ونُقلت في البحر في مركبين إلى ينبع ومركبين إلى جُدة إضافة إلى ما حمل براً[4].

وفي بدء عام 732هـ وأثناء عودة قافلة الحج إلى مصر توفي الأمير مغلطاي الجمالي في عقبة أيلة فُصّبر وحمل إلى القاهرة ودفن فيها.

وفي طريقه للحج قدّم السلطان الناصر محمد بن قلاوون الأمير أيتمش إلى عقبة أيلة وبرفقته مائة رجل من الحجارين حتى وسع طريق العقبة وأزال

(1) قبيلة حرب يمانية النسب حجازية الوطن، كما يصفها البلادي، فهي: حرب بن سعد بن خولان، واستوطنت وسط الحجاز في القرن الثاني الهجري، واصبحت تسيطر على الطريق بين مكة والمدينة، معجم قبائل الحجاز، ص107.

(2) سمط النجوم العوالي: ج4، ص230.229.

(3) أبو المحاسن ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج9، ص60؛ الغوانمة: أيلة (العقبة)، ص75؛ راشد سعد راشد القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، 1994.1414، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ص41.40.

(4) المقريزي: السلوك: ج3، ص18.

صخورها، حتى سهل صعودها[1].

ولدى وصول السلطان إلى ينبع من العام المذكور استقبله الأشراف وقدم عليه الشريف أسد الدين رميثة من مكة، فأكرمهم السلطان وأنعم عليهم، وساروا معه إلى مكة[2].

وكما كانت ينبع ملاذاً وانطلاقاً لأحداث هامة في تاريخ الحجاز، كانت أيضاً السرين ملاذاً ومهرباً لمن يختلف من أمراء الأشراف مع إخوته أو بني عمه قبل أن تندثر السرين نهائياً في نهاية القرن الثامن الهجري، ففي عام 737هـ اصطلح رميثة وعطيفة على المشاركة في إمارة مكة، ثم انسحبا من مكة إلى الواديين (منطقة السرين) وترك عطيفة ولده مباركاً بمكة، ليستمر التنافس والصراع بين أبناء أبي نمي[3]، ولعل اختيارهما للسرين يدل على أن لهما بها مقر إقامة، أو أن أميرها في تلك الفترة من أبنائهما، وقد يكون عجلان بن رميثة، وفضلا الابتعاد حسماً للنزاع[4]. والأمير عجلان بن رميثة تولى إمرة مكة أكثر من مرة ما يقارب ثلاثين سنة، مستقلاً مرة، ومشاركاً لأخيه ثقبة مرة ولابنه أحمد مرة، فقد اشترى وأخوه ثقبة إمارة مكة من أبيهما بستين ألف درهم في العام 744هـ، وفي عام 746هـ أعطى أخويه مغامساً ومباركاً السرين، ولعل ذلك يدل على مكانة السرين لديه، إلا أنه يبدو أنهما لم يبقيا في السرين وشاركا في أحداث خارجها، حتى كان عام 749هـ هاجم مبارك مكة منطلقاً من السرين إلا أنه لم يتمكن من دخولها، وكانت هذه الحادثة خاتمة الأحداث السياسية في مدينة السرين، ولم يعد لها ذكر في المصادر المكية[5].

(1) المقريزي: السلوك، ج3، ص160؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج9، ص104.
(2) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص199؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج9، ص104.
(3) الفاسي: العقد الثمين، ج4، ص107؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص208.
(4) الفقيه: مدينة السرين، ص73.72؛ الزيلعي: ميناء السرين، بحث منشور في مجلة اتحاد المؤرخين العرب، سبق ذكره، ص199.
(5) الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص191.189؛ الفقيه: مدينة السرين، ص75.73؛ الزيلعي: ميناء السرين، ص199؛ النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص237.

وفي خضم الصراع والتنافس بين أمراء المماليك على السلطنة في مصر والشام ظهرت بوادر ثورة لبيبغاروس في العام 751هـ وانتهت عام 754هـ بمقتله، ونالت أيلة «العقبة» نصيبها من أحداث هذه الثورة وكتب السلطان إلى أمرائه بالاحتراس من بيبغا (والقبض عليه) بعدما وصلته أخبار برغبته في التمرد والثورة عليه، ومن ذلك ما كتبه إلى الأمير طاز وإلى الأمير بزلار يخبرهما بما وقع خاصة بعدما نزل سطح العقبة، وسلم الكتاب إلى بيبغا في العقبة إلا أنه قبل بالأمر، وتحايل للخروج منه بدعوى رغبته في أداء الحج، وزاد الأمر سوءاً عندما كثرت الأراجيف والشائعات بأن الأمير طاز قد تحالف مع الأمير بيبغاروس بعقبة أيلة، فما كان من الأمير فياض وعيسى ابني حسين أمير العائد إلا أن خرجا ليقيما على عقبة أيلة خشية بيبغاروس، وكذلك شجع السلطان العرب في منطقة جنوب الأردن وشمال الحجاز بإرسال رجالهم إلى العقبة[1].

وفي عام 778هـ عاشت (العقبة) جزءاً من أحداث مقتل السلطان الأشرف شعبان بن حسين الذي تولى السلطنة من عام 765.778هـ، وبدأت محاولة قتله عندما أراد السفر للحج في هذا العام، وخرج برفقة عدد كبير من أمرائه ومماليكه إلا أن هؤلاء الأمراء ولدى وصوله إلى «عقبة أيلة» ثاروا عليه وطالبوه بأموالهم، فرفض، فهاجموه وكاد أن يُقتل في ذلك الهجوم، لكنه فر إلى القاهرة ليلقي حتفه هناك، حيث وجد أمامه الثورة قائمة ضده في القاهرة، فاختفى في أحد المنازل إلى أن تم القبض عليه يوم الجمعة الثالث من ذي القعدة عام 778هـ[2].

وبدءاً من عام 784هـ قامت دولة المماليك الجراكسة وكان أول سلاطينها السلطان برقوق، ويرى علي السليمان أن العلاقة بين مصر والحجاز أو

(1) المقريزي: السلوك، ج4، ص126؛ النجوم الزاهرة، ج10، ص222221.

(2) المقريزي: السلوك، ج5، ص12؛ تاريخ ابن خلدون: ج5، ص529.526؛ راشد القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، ص53.

بين سلاطين الجراكسة وأمراء الحجاز (مكة والمدينة) اتخذت طابعاً مغايراً لاهتمامات من سبقهم في تغليب الجانب السياسي، والتدخل المسلح في كثير من الصراعات بين أمراء مكة والمدينة. أما الجراكسة فقد غَلّبوا الجانب الاقتصادي والتجاري بخاصة على الجانب السياسي، ولم يهتم الجراكسة كثيراً بمن يتولى أو يعزل، بل انصب اهتمامهم بتأمين الموانئ الحجازية في البحر الأحمر وسير القوافل التجارية التي تشق الحجاز جيئة وذهاباً قاصدة الأراضي المقدسة للمشاركة في مواسم الحج، ووصل بهم الأمر إلى احتكار بعض السلع، فصارت تجمع لهم بشكل مشروع وغير مشروع، حتى أصبحت الرشوة من عوامل العزل والتولية[1].

إلا أن هذا الرأي يقتصر على جانب العلاقات بين سلاطين الجراكسة وأمراء مكة والمدينة، أما الأحداث السياسية الداخلية في الحجاز فبقيت على حالها تهدأ حيناً وتثور أحياناً، فمنذ أن تولى برقوق السلطنة، كان في مكة الشريف أحمد بن عجلان، فنازعه الأمارة ابنا عمه الشريف عنان بن مغامس، والشريف حسن بن ثقبه، وفي عام 786هـ[2]، توجها إلى مصر يشكوان أمير مكة إلى السلطان أن يشركهما معه في الأموال، ولم يحقق لهما مرادهما، فعادا إلى مكة، وعاد الصراع والتنافس، وعرف الأميران أن أحمد بن عجلان يريد بهما أمراً، فهرب عنان إلى ينبع ولحقه حسن وأقنعهما أمير الحاج المصري أبوبكر بن سنقر الجمالي بالعودة إلى مكة ولقاء الأمير أحمد بن عجلان، وكان برفقته محمد بن عجلان وشجعه للذهاب مع الاثنتين والتقوا ثلاثتهم في مكة بالأمير أحمد، إلا أن الأمير أحمد لم يوافقهم وقرر القبض عليهم وقيد الثلاثة وسجنهم، وكان ذلك في سنة 787هـ[3]، وحاولوا الهرب من السجن فلم ينجح إلا

(1) العلاقات الحجازية المصرية، ص43.41.

(2) ابن فهد: إتحاف الورى: ج3، ص344.343؛ الدحلان: خلاصة الكلام: ص34.

(3) الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص417.416؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص348.347؛ الدحلان: خلاصة الكلام: ص34.

عنان وفر هارباً إلى ينبع فتزوج بها وأقام عند زوجته ليلة أو أكثر، ثم سافر إلى مصر في جمادى الأولى عام 788هـ[1]. وتوالت الأحداث سراعاً، وقرر السلطان مساعدة عنان على تولي إمرة مكة وكان قد مات أحمد بن عجلان، فسيطر على الأمور بمكة كبيش بن عجلان وبالرغم من أن السلطان أرسل إلى مكة يوافق على تولية محمد بن احمد بن عجلان، إلا أن عنان أُعد ليتولى إمرة مكة وصحب الحاج المصري وكان أميره آقبغا المارديني، في تلك الأثناء فر كبيش إلى جُدة رغبة في ألا يكون بعيداً عن الأحداث، وقتل الأمير محمد بن أحمد بن عجلان وأعلن عنان أميراً لمكة فما كان منه إلا أن أرسل إلى جُدة من يخرج منها كبيشاً، ورغم هروبه منها إلا أنه عاود الكرة، وجمع جمعاً من الأعراب واستولى على جُدة وسيطر على صهاريج جُدة، فخرج عنان بنفسه لملاقاته وعسكر شرقي جُدة وتعرضوا لعطش شديد، واستمر بقاؤهم ثلاثة عشر يوماً لم يحصل بينهم قتال، وضعف أمر كبيش فقرر الفرار إلى خارج جُدة، ودخلها عنان وعين عليها نائباً عنه محمد بن عجلان وأكرم عَبَيدْ أحمد بن عجلان وجعلهم بجُدة، إلا أنه جعل عليهم عيناً هو مولى أبيه محمد بن بركتي[2]. وتوالت الأحداث في السنة التالية 789هـ بما يرتبط بجُدة، فقد أنكر مولى الأمير عنان الذي وضعه عيناً على آل عجلان على محمد بن عجلان تقصيره وأبلغ ذلك الأمير عنان، فما كان منه إلا أن زجر وغلظ لنائب جُدة، فكانت الفرقة، وتجمع آل عجلان وسيطروا على جُدة، وحضر كبيش معيناً لهم وبدعوة منهم، ثم نهبت أموال التجار والغلة المخزونة للأمراء المماليك بجُدة، ووصل إليهم على بن مبارك بن رميثة برفقة عدد من الأشراف، فما كان من آل عجلان إلا أن أمروه عليهم ومنحوه نصف ما حصلوه من جُدة، وتوجه لمكة لمحاربة عنان إلا أن أمرهم

(1) الفاسي: المصدر السابق، ج5، ص418.417؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص351؛ السباعي: تاريخ مكة، ص285.

(2) الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص419.418؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج5، ص358؛ العصامي: سمط النجوم العوالي، ج4، ص249.247.

تفرق قبل دخول مكة، وبقي عبيدهم في أطراف مكة يتعرضون للناس وبلغ ذلك السلطان المملوكي برقوق، فأمر بعزل عنان وتوليه على بن عجلان الأمارة، ودخل عنان في صراعات متعددة مع آل عجلان تمكن من الانتصار في بعضها،وبعد سفر الحاج من العام المذكور استولى عنان على جُدة[1].

وما زال الحديث عن الشريف عنان الذي استمر يصارع من أجل الوصول إلى الإمارة، ففي عام 792هـ وفي طريق عودته من مصر يرافقه مندوب تركي من السلطان لتقليده الإمارة بمكة مر بينبع، فشجعه أمير ينبع وبير بن مخبار على مشاركته في قتال بني إبراهيم حتى انتصروا عليهم، فتوجه عنان بعد ذلك إلى مكة[2].

وفي العام 794هـ عين الشريف علي بن عجلان أميراً على مكة، لكن الأشراف بمكة كانوا على خلاف معه ولم يساندوا إمارته، فتركوا مكة عام 795هـ إلى بحرة قرب جُدة فلحقهم على بن عجلان إلى بحرة فرحلوا إلى جُدة أملاً في أن يستولوا على مركب سلطاني قادم من مصر، فلما علم بذلك اضطر إلى إعطائهم 400 غرارة قمح فلم يرضوا فزادهم مائة أخرى فرضوا وخرجوا من جُدة. وأدت هذه الصراعات إلى تضعضع الأمن في مكة وجُدة فما كان من التجار إلا أن نقلوا تجارتهم إلى ميناء ينبع[3].

وفي يَنْبُع وفي سنة 798هـ اضطر أميرها وبير بن مخبار إلى تسليم مبلغ ثلاثين ألف درهم مقابل ما استولى عليه من القمح وغيره إلى الشريف حسن بن عجلان الذي قدم من مصر وبرفقته جماعة من الترك ليقلدوه الأمارة في مكة بعد أن هدد أمير ينبع بالحرب[4].

(1) الفاسي: العقد الثمين، ج5، ص420.419؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص368؛ العصامي: سمط النجوم العوالي، ج4، ص250.249.
(2) الفاسي: المصدر السابق، ج5، ص421؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص377.
(3) ابن فهد: إتحاف الورى: ج3، ص389.388؛ الدحلان: خلاصة الكلام، ص36.
(4) الفاسي: العقد الثمين: ج3، ص349؛ ابن فهد: إتحاف الورى: ج3، ص398،

وفي العام الذي يليه شجع الشريف حسن بن عجلان تجار اليمن على العودة إلى ميناء جُدة وأسقط عنهم ثلث الجباية، فرحبوا بذلك فتوالى التجار عوداً على ميناء جُدة، ونال الشريف حسن مكاسب كثيرة من جراء ذلك، وتمكن أيضاً من إخراج الأشراف من جُدة، فهربوا إلى خليص، ورغم محاولاتهم العودة إلى جُدة إلا أنهم لم يمكنوا منها[1].

وفي العام 806هـ عين الشريف حسن بن عجلان عاملاً له على جُدة، هو جابر بن عبدالله الحراشي، ومنحه صلاحيات واسعة في جميع ما يصل من جهة الشام واليمن، واهتم بعمله أيما اهتمام وعمر فرضة جُدة أسوة بميناء عدن، وحدد لبني حسن الرسوم التي يأخذونها من التجار بالإضافة إلى الجباية، فبذلك خفف على التجار[2].

وفي سنة 809 تم القبض على عامل جُدة جابر الحراشي بأمر من أمير مكة، فصودرت أمواله وسجن بمكة، ثم أُخرج من السجن بشفاعة صاحب صنعاء، وأعيد إليه جزء من ماله، وتوجه إلى اليمن، وذكر النجم ابن فهد أن مكاسب أمير مكة من التجار والحراشي بلغت قرابة 40.000 مثقال[3].

وفي نفس العام في شهر رمضان وصل أميرا ينبع الشريفان وبير ومُقبل ابني مخبار إلى أمير مكة حسن معلنين ولائهما له، وزال ما بينهم من خلاف[4].
وفي عام 812هـ عاد الحراشي إلى الأحداث وسعى جاهداً للانتقام من حسن بن عجلان بالذهاب إلى مصر وتشجيع السلطان على عزله إلا أن سعيه باء بالفشل، وأثناء عودته من مصر مع الحاج سكن ينبع وتقرب إلى ولاتها، وبنى لهم بها قلعة وسوراً ورغم ما اكتسبه من مال، لكنه ما زال يرغب في العودة إلى

(1) الفاسي: المصدر السابق، ج3، ص351؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص405،404.
(2) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص358؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص436،435.
(3) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص359؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص451،450.
(4) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص360؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص452.

مكة[1].

وفي العام 815هـ غضب أمير مكة من جابر الحراشي وسعى إلى إخراجه من ينبعَ لما بلغه من أنه يشجع حاكم اليمن على صرف المراكب من ميناء جُدة إلى ميناء ينبع، فكان أن خرج الحراشي من ينبع إلى مصر وأخذ يحرض السلطان المملوكي على أمير مكة حسن بن عجلان فلم تنجح محاولته وأُعيد إلى الحجاز برفقة الحاج مكبلاً بالحديد فعفا عنه أمير مكة، بل وفوض إليه أمر جُدة مرة أخرى، وساهم ذلك في تحسن العلاقات مع اليمن وبالتالي وفود التجار إلى جُدة. وقبل تولية الحراشي لأمر جُدة تواصلت الرسل بين أمير مكة وصاحب اليمن وما استقرت الأمور حتى قبل أمير مكة بأن يدفع مبلغاً من المال ثلاث سنوات مقابل ما استولى عليه من تجار اليمن، وبتولية الحراشي استقرت الأمور بجُدة[2].

وفي نفس هذا العام وقبل تولي الحراشي جُدة وقع خلاف بين أبناء الشريف محمد بن عجلان وعمهم الشريف حسن بن عجلان عندما ضرب أحدهم نائب جُدة مسعود الصبحي فغضب منهم الأمير، فخرجوا إلى ينبع ومنها إلى مصر يريدون الاستعانة عليه ولما عادوا إلى ينبع منعهم الأمير حسن من دخول مكة، فاضطروا للإقامة في ينبع حتى تحين فرصة للعودة[3].

وعوداً إلى الحراشي الذي كانت نهايته عام 816هـ، فقد انقلب عليه أمير مكة حسن بن عجلان لما بلغه من مساعدة الحراشي لابن أخيه رميثة في الثورة عليه وكان الحراشي قد سعى بالصلح بين الطرفين وفشل الصلح فتحمل تبعاته، إضافة إلى ما وقع منه من مخالفات أخرى، فقتل في شهر ذي الحجة من العام المذكور[4].

(1) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص261؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص478.
(2) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص261، ص366؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص494،498.
(3) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص366؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص493،494.
(4) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص261؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص507.

وقد تعرضت جُدة في هذا العام لهجمات رميثة ابن أخي أمير مكة حسن بن عجلان وتدخل صاحب ينبع مقبل بن مخبار لمساعدة أمير مكة ضد ثورة أبناء أخيه رميثة وإخوته[1].

وفي سلسلة التجاذب بين حسن بن عجلان وأبناء أخيه تعرضت جُدة لعدة هجمات، ومن ذلك ما جرى عام 818هـ، عندما تقدم حسن بن عجلان إلى إخراج رميثة من جُدة وتمكن من ذلك، إلا أن الأمر السلطاني قد وصل بتولية رميثة أمر مكة[2].

وتوالت هجمات حسن بن عجلان على جُدة واستيلائه على مكوس وجبايات المراكب الواردة إليها والمتجهة إلى ينبع[3].

وتواصل الصراع، وكان لسلاطين المماليك دور مخزي في تأجيجه، فمن يدفع أكثر من أمراء مكة للسلطان يتولى الإمارة عكس ما كان يجري في العهد الأيوبي وعهد المماليك البحرية، فقد كان ملوك وسلاطين مصر يدفعون لأمراء مكة وأهلها ويكرمونهم، ويحدون من تجاوزاتهم، فانقلب الحال وأصبح سلاطين مصر يأخذون من أمراء مكة ما كان ينالهم من نصيب من مكوس وجبايات تجار جُدة ومكة والمراكب التجارية التي تمخر عباب بحر جُدة وينبع، ورغم ما يدل ذلك على ازدهار تجارة جُدة، وتجارة البحر الأحمر في هذه الفترة، إلا أن ذلك لا يبرر دعم السلاطين للصراعات الداخلية في مكة لمصلحة من يدفع أكثر. فما تردد السلطان الملك المؤيد أبو النصر شيخ المحمودي الظاهري أن قبل عرضاً مالياً من حسن بن عجلان يقدر بثلاثين ألف مثقال فأنعم عليه بإمرة مكة..!! عام 819هـ..![4]

وفي العام 821هـ نالت جُدة نصيبها من الصراعات السياسية، إلا أن تجار

(1) الفاسي: العقد الثمين، ج3، ص369؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص506.505.
(2) والفاسي: العقد الثمين، ج3، 376؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص526.
(3) الفاسي: العقد الثمين، ج3، 377؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص531.
(4) الفاسي: العقد الثمين، ج3، 377؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص531.

جُدة والمراكب القادمة إليها لم تتعرض لسوء هذا العام وتساهل أمير مكة حسن بن عجلان مع التجار مما انعكس على التجار بالارتياح[1]. وتوالت الأحداث، ونال جُدة منها نصيباً وافراً لكثرة ما يردها من المراكب التجارية مما يجعلها مطمعاً لكل طامح للإمارة، ولسلاطين المماليك، وينال ينبع كذلك نصيباً من هذه الصراعات ومن ذلك ما حصل عام 825هـ عندما نزل الأمير جانبك الخازن دار ينبع في شهر ذي الحجة لقتال الشريف مقبل أمير ينبع، وبرفقته عقيل بن وبير الحسني الذي منحه السلطان إمرة ينبع، واضطر مقبل بقبول عقيل شريكاً له في الإمارة، فما أن غادر الحاج ينبع حتى عاد القتال بين الأميرين، وانتصر مقبل على عقيل ابن أخيه، ولما عاد الحاج إلى ينبع هاجم المماليك الأمير مقبل، وقتل في ذلك جماعة من الأشراف من بني حسن وكثر السلب والنهب في ينبع في الأشراف وغيرهم، وما إن خرجوا من ينبع حتى عاد مقبل لقتال ابن أخيه عقيل على الأمارة، إلا أنه لم يتمكن من ذلك وهزم في عام 828 وحمل الشريف مقبل في الحديد إلى الإسكندرية وسجن بها[2].

وما زالت يَنْبُع منطلقاً لبعض الأحداث، فتقبل إليها الأحداث وتدبر فتحل في مينائها حملات الحجيج ويصطدم أمراؤها بأمراء الحج، فيسيرون معهم أو يسيرون ضدهم، وما زالت ملاذاً لأمراء مكة والثائرين من أشرافها، فلا يمر عام دون أن يكون هناك ذكر لينبع في أحداث الحجاز الداخلية وفي العام 827هـ وصل أمير الحاج المصري الأمير قرقماس في ربيع الاول إلى ينبع يحمل أمراً بعزل حسن بن عجلان وتولية علي بن عنان وأشرك معه أهل ينبع والصفراء والمدينة، فالتقى بهم الأمير الجديد في ينبع ودخلوا مكة في جمادى الأولى، وتوجه الأمير الجديد إلى جُدة لملاطفة التجار القادمين إليها وتشجيعهم

(1) الفاسي: العقد الثمين، ج3، 378؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص555.
(2) المقريزي: السلوك، ج7، ص68.67، ص116.

على الرسو في ميناء جُدة[1].

وأصبحت جُدة هدفاً لأنها صارت بندراً عظيماً كما يصفها المقريزي في أحداث سنة 828هـ، وبطل بندر عدن، حتى ازداد طمع سلاطين المماليك في السيطرة على هذا الميناء، وأصبح للسلطان المملوكي نائباً له على جُدة لتحصيل الرسوم والمكوس والجبايات الباهظة على التجار والحجاج[2]. يقول المقريزي في أحداث سنة 829هـ: (واشتدوا على جميع القادمين من التجار والحجاج، واستقصوا تفتيش محايرهم، وأحمالهم، وأخرجوا سائر ما معهم من الهدية، وأخذوا مكسها، حتى أخذوا من المرأة الفقيرة مكس النطع [البساط من الأديم] الصغير عشرة دراهم فلوساً)[3]. ويؤكد على أن من يجبي المكوس مندوب السلطان وأنها أصبحت وظيفة سلطانية، ويعلق على ذلك بتعجب شديد: (فجاء للناس ما لا عهد بمثله، فإن العادة لم تزل من قديم الدهر في الجاهلية والإسلام أن الملوك تحمل الأموال الجزيلة إلى مكة لتفرق في أشرافها ومجاوريها، فانعكست الحقائق، وصار المال يُحمل من مكة، ويلزم أشرافها بحمله.... ولعمرى لقد سمعت عجائز أهلنا وأنا صغير يقلن إنه ليأتي على الناس زمان يترحمون فيه على فرعون، فبرغم إن مضين وخلفت حتى أدركت وقوع ما أنذرنا به قبل، ولله عاقبة الأمور)[4].

وما زال سعد الدين إبراهيم ابن المرة القبطي المصري ناظر جُدة ومباشر الديوان من قبل السلطان المملوكي يرتاد جُدة في موسم الحج لأخذ المكوس، وفي عام 830هـ حمل مراسيماً بعمارة الحرم المكي وترميمه، وعمر في جُدة جامعاً، ورتب فيه أرباب الوظائف من إمام وخطيب، ومؤذن، ووقاد وفراش

(1) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص604.
(2) المقريزي: السلوك، ج7، ص112.
(3) السلوك: ج7، ص128؛ ابن فهد: إتحاف الورى ،ج3، ص622.
(4) السلوك: ج7، ص129؛ ابن فهد: المصدر السابق ج3، ص621.

ومكبر، وجعل رواتبهم من مكوس المراكب، وبدأ في ميضأة للجامع ولم يتمها[1].

وتوالت سيطرة المماليك على المراكب في جُدة، فبمجرد حدوث أمر ما قل أو كثر يصادر كل ما يحمله المركب ويملكه صاحبه، ففي عام 831هـ قتل تاجر هندي راكباً معه، فعُرف خبره في ينبع وجُدة، وصودرت أمواله، وأُبلغ السلطان فأمر بجلب كافة محتويات أموال التاجر الهندي، وأنعم على أمير ينبع بخشب المركب، وقتل التاجر الهندي في جُدة شنقاً، ولم يُكتفى بذلك، بل أصبحت أموال الراكب المقتول من حق السلطان، وكأنها آلت إليه وراثة[2].

ويظهر ذلك مدى جشع وظلم هؤلاء السلاطين، ومخالفتهم للقواعد الشرعية في الإرث، ولكن في رأي المؤرخين وسخريتهما من هذه التصرفات ما يغني عن المزيد من التعليق. وفي عام 834هـ وصل إلى مكة حاجاً أو معتمراً المؤرخ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي برفقة ناظر جُدة سعد الدين إبراهيم بن المرة[3].

وباشر جُدة وهو (الموظف الذي يكلف بإدارة العمل) إضافة إلى سعد الدين بن المرة سنقر العزي وداود الكيلاني في عام 835هـ[4].

وتزايدت ضغوط السلطان الأشرف برسباي على التجار القادمين إلى ميناء جُدة وذلك من أجل تزايد مكاسبه من العشور المتحصلة من التجار، فكان يصدر بين الحين والآخر قرارات تعسفيه لمصادرة بضائع التجار، يراجع في بعضها ويتراجع، وتنفذ الأخرى، وكان ذلك في عام 838هـ واستبدل مباشر جُدة ابن المرة بـ نكار الخاصكي[5].

وتوالت مصادرة أموال التجار في بحر جُدة بشتى الطرق وبمختلف

(1) ابن فهد: المصدر السابق، ج3، ص638،637.
(2) النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج4، ص18،17.
(3) المصدر السابق، ج4، ص55.
(4) المصدر السابق، ج4، ص62.
(5) المصدر السابق، ج4، ص83،81.

الأسباب[1].

وفي العام 840هـ وقع بجُدة حريق كبير أتلف ممتلكات وأنفس[2].

ووصل الطمع حداً بالسلطان المملوكي أن أصدر مراسيماً بأن مكوس مراكب التجار القادمين إلى ميناء جُدة ليس لأمير مكة منها إلا الربع فقط والباقي للسلطان، وأن جميع من مات بمكة من غير أهلها ليس لأمير مكة من ميراثه شيء، بل كله للسلطان وأن ليس لأمير مكة إلا ميراث من مات من أهل مكة..!!! كان ذلك في العام 843هـ، الذي صدرت فيه فتوى أربعة من قضاة السلطان بجواز أخذ المكوس من التجار، وقرئت الفتوى بالحرم المكي على الناس، ويعلق المقريزي وابن فهد سخريه؛ وتعجباً على هذه الفتوى، بأن الألسن انطلقت بالوقيعة في هؤلاء القضاة الذين اعتادوا اتباع أهواء الملوك خوفاً على مناصبهم، ويريان أن ما يؤخذ من التجار مكس لا يحل شرعاً تناوله والأكل منه، وأن الآكل منه فاسق لا تقبل شهادته، لسقوط عدالته..!! ويسخر المؤرخان من تجرؤ القضاة على إعلان فتواهم في الحرم الشريف وعلى رؤوس الأشهاد. ويستشهد المقريزي في حادثة مشابهة في نفس عهد هذا السلطان بقول الشاعر:

إذا جاء الأمير وصاحباه	وقاضي الحكم داهن في القضاء
فويل ثم ويل ثم ويل	لقاضي الأرض من قاضي السماء[3]

وعاشت جُدة في العام 846هـ موجة من الصراع بين أمراء مكة على بن حسن بن عجلان والشريف بركات، ونال التجار وأصحاب المراكب جزءاً وافراً من العناء، وبعد شد وجذب انتهى الصراع بانتصار على بن حسن علي بركات

(1) ابن فهد: إتحاف الورى، ج4، ص9493.
(2) المصدر السابق، ج4، ص101.
(3) المقريزي: السلوك، ج7، ص450، ص465، وابن فهد: إتحاف الورى، ج4، ص143، ص146.

وفرار الأخير صوب اليمن[1].

وتواصلت أعمال النواب المسؤولين عن تحصيل المكوس بجُدة في الإجحاف بالتجار وتتبعهم واللحاق بهم ولو كانوا يطوفون حول البيت الشريف والمصاحف على رؤوسهم[2].

وفي العام 858هـ أصدرت عدة مراسيم عن جُدة منها تولية شادٍ لجُدة (وهو المتولي وظيفة استخلاص ما يتقرر على الطوائف والأفراد من المعاملات المالية)[3] وكان جاني بك، وتعيين قاض لجُدة هو كمال الدين بن أبي البركات بن ظهيرة خلفاً لابن عمه القاضي أبي الفضل بن ظهيرة[4].

وكانت ينبع تمارس دور حلقة الوصل السياسية بين مصر ومكة والمدينة وبالتالي هي محطة عبور للأحداث السياسية ما بين مصر والحجاز، فكانت المراسيم السلطانية وأمراء الحاج ينزلون بينبع ومنها ينطلقون إلى مكة أو المدينة بعد إشراك أمراء ينبع وأهلها في أي حدث سياسي لمعرفتهم بالعلاقة التاريخية الوطيدة بين أمراء مكة من الأشراف وينبع، وبقدر ما قد ينال أهل ينبع من أذى وأضرار إلا أنهم أيضاً تنالهم الخلع السنية السلطانية والهدايا، وإذا وزع على الحجاج في ينبع معونات نالت أهالي ينبع منها نصيباً، وما يكتسبونه من نزول وارتحال الحاج بمينائهم الهام. إلا أن ميناء جُدة هو الأبرز تجارياً والأحداث السياسية والصراعات المختلفة التي حامت حوله كلها تدور حول السيطرة على تجارة الميناء خاصة في القرنين الثامن والتاسع الهجريين.

وفي العام 872هـ وصلت الأخبار إلى دار السلطنة المملوكية بأن عرب بني عقبة وشيخهم مبارك أخذوا إقامة الحاج (معونته) التي تلتقي به في عقبة أيلة فغضب السلطان، وجرد عسكره في 23 محرم من هذا العام وعين الأمير

(1) ابن فهد: إتحاف الورى، ج4، ص181.178.
(2) المصدر السابق، ج4، ص268.266 أحداث سنة 851هـ.
(3) المصدر السابق، ج4، ص16 (الحاشية).
(4) المصدر السابق، ج4، ص339.338.

أزبك والأمير جانبك وعدة مماليك لمحاربة مبارك شيخ عرب بني عقبة، وتمكن العسكر المملوكي من الإمساك بشيخ بني عقبة ومجموعة الأعراب الذين كانوا برفقته ونقلهم إلى القاهرة، فانتهت فتنته[1].

وفي هذا العام أيضاً عادت ينبع إلى واجهة الأحداث معلنة بداية صراعات مسلحة وأحداث سياسية متلاحقة، عندما قتل سبع وسباع ولدى هجار من أمراء ينبع، ويشير ابن فهد إلى أنهما قتلا في صراع مع قطاع طرق للحج، ويذكر ابن إياس أن أمير ينبع خنافر بن وبير قتلهما، فكانت تلك الحادثة بداية سلسلة من الصراعات انطلقت من ينبع[2].

وفي عهد الشريف محمد بن بركات بن الحسن بن عجلان بن رميثة بن محمد أبا نُمي الأول الذي تولى الإمارة بعد وفاة أبيه عام 859هـ إلى أن توفي عام 903هـ عاشت الحجاز فترة من الاستقرار الداخلي بفضل قوة الأمير محمد بن بركات وحملاته المتواصلة على الخارجين على حكمه في جنوب وشمال وشرق مكة وفوض إليه نيابة السلطنة في الحجاز ونيابة المدينة وينبع، وخطب باسمه على منبر المدينة[3]. ومن ذلك الاستقرار ما نال جُدة من تعاقب القضاة والنواب والمباشرين المسئولين عن تحصيل المكوس دل على شيء من الاستقرار عاشته جُدة في تلك الفترة، وكان ما يهم سلاطين المماليك وأمراء مكة بشأن جُدة هو استمرار جباية المكوس وتدفق الأموال عليهم من هذا الميناء الهام، وذلك يتطلب استقرار سياسياً وأمنياً في هذا الميناء يدفع التجار إلى دخوله وإنزال بضائعهم فيه وتسويقها في جُدة ومكة والمدينة، فتحقق لجُدة في تلك الفترة

(1) ابو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج16، ص360.301.300.

(2) النجم ابن فهد: إتحاف الورى، ج4، ص485، وانظر: محمد بن أحمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الثانية، القاهرة، 1963.1383، ج3، ص16.15.

(3) العصامي: سمط النجوم العوالي، ج4، ص278، وانظر الدحلان: خلاصة الكلام، ص44، وانظر السباعي: تاريخ مكة، ص308، وانظر: ريتشارد موتيل: الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ص54.53.

شيئاً من الاستقرار النسبي[1].

وفي عام 875هـ أقر السلطان الأشرف قايتباي في إمرة ينبع الشريف سبع بن خنافر[2]. ونال هذا الشريف أيضاً خِلَع السلطان عام 883هـ، وتقرير ما له في إمارة ينبع[3].

وبما أن العقبة حلقة وصل ونقطة التقاء بين الحجاز ومصر والشام، وملتقى حجيج الشام ومصر المتجهين إلى الأراضي المقدسة، ومحطة استراحة قوافل الحجيج وكذلك استراحة سلاطين المماليك بعد عودتهم من الحج.

فمما ساقه ابن إياس في حوادث سنة 885هـ من بعض أعمال وإنشاءات السلطان قيتباي ومآثره أنه له في كل سنة عدة شقادف محملة على جمال تحمل الطعام والماء، تستقبل به الحجاج العائدين من الأراضي المقدسة في العقبة[4].

إلا أن هذا الاستقرار النسبي الذي عاشته الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، لم يشمل القرن العاشر الهجري، فمنذُ بدايات هذا القرن تضعضع الأمن في الحجاز، وعادت الصراعات السياسية الداخلية تعكس انشغال المماليك في صراعاتهم داخل مصر والشام.

ففي ينبع قام الأمير دراج (من نسله الأشراف ذوي هجار القاطنين بينبع النخل إلى الوقت الحاضر). بدور نبيل في حفظ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم من عبث أميرها حسن بن الزبير الذي تهجم على مخزون الحجرة الشريفة، ودخل المدينة في شهر ربيع الأول من عام 901هـ وسيطر على الأوضاع بالمدينة واطمأن الناس بوصوله إليها[5].

(1) ابن فهد: إتحاف الورى: ج4، حوادث سنة 860، حوادث سنة 901.
(2) ابن إياس: بدائع الزهور: ج3، ص60.
(3) ابن إياس: المصدر السابق: ج3، ص147.
(4) بدائع الزهور: ج3، ص885.
(5) ابن إياس: وبدائع الزهور: ج3 ص318؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص5251.

إلا أن هذا الأمير دراج توفي عام 902هـ، وتنازع أبناؤه على إمرة ينبع فبرز منافس قوي من الأشراف لأبناء دراج على الإمارة فتح باباً لصراع سياسي وعسكري فترة من الزمن هو يحيى بن سبع، وبالرغم من توليه الإمارة في جمادى الآخرة من عام 903هـ إلا أن ذلك لم يصدر من السلطان المملوكي، إنما من أمير مكة فحمل هذا الأمير الينبعي على المماليك ودخل معهم في صراع مسلح مستعيناً بقبائل ينبع وما جاورها في قطع طريق قوافل أمراء الحج المماليك[1].

ودخل في حلبة هذا الصراع أمير مكي خارج على إخوته هو أحمد بن محمد بن بركات المعروف بالجازاني، وعاشت الحجاز فترة من الصراع الحامي حتى هُزِم ابن سبع عام 912هـ[2].

وهذا الاضطراب الأمني لم يقتصر على الحجاز الداخلي، بل شمال الحجاز فكانت بعض القبائل العربية تقطع طريق الحاج[3]، ففي عام 908هـ في شهر صفر وعند وصول الحجاج إلى العقبة تصدى لهم جماعة من بني لام وأعاقوهم من صعود العقبة وفرضوا عليهم 3000 دينار فأضطر أمير الحاج لدفعها لهم لإنقاذ الحاج.

وتواصلت الصراعات في مكة وما حولها بسبب الجازاني وابن سبع في هذا العام وما بعده، ونال جُدة منها نصيباً، فما أن يخرج أمير من مكة حتى يهاجم جُدة ليسيطر على تجارتها ويجبي مكوسها ويمول عسكره ورجاله استمراراً للصراع المسلح[4]. وقتل الجازاني عام 909هـ في شهر رجب وهو يطوف بالبيت العتيق[5].

وواصل أمير ينبع ابن سبع صراعه المرير مع الحجاج والمماليك، فما كان من

(1) بدائع الزهور: ج3، ص386؛ حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص54.53.
(2) ابن إياس: بدائع الزهور: ج4، ص36؛ حمد الجاسر: ص56.
(3) ابن إياس: بدائع الزهور: ج4، ص38.
(4) ابن إياس: بدائع الزهور: ج4، ص48.47؛ العصامي: سمط النجوم العوالي: ج4، ص286.285.284.
(5) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص62؛ العصامي: المصدر السابق ج4، ص288.

السلطان قانصوه الغوري إلا أن أعد عدة حملات إحداها إلى مكة لقتال ابن سبع والأخرى إلى الكرك لقتال عرب بني لام حول العقبة والأخرى للهند لقتال البرتغاليين الذين أخذوا يهاجمون بلاد المسلمين في الهند وسواحل شرق أفريقيا، ثم زحفاً إلى السواحل العربية في اليمن والحجاز. ويشير ابن إياس إلى البنائين والنجارين الذين توجهوا لجُدة لبناء السور حولها[1].

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى مقدمات الغزو البرتغالي لبلاد المسلمين الذين خرجوا من ديارهم بروح صليبية حاقدة مغلفة بدوافع اقتصادية للتعدي على بلاد المسلمين ومصادرة أراضيهم وممتلكاتهم والتحكم في حركة التجارة الدولية فالتفوا حول إفريقية مروراً برأس الرجاء الصالح ما بين عامي 904،903هـ حتى وصلوا إلى الهند[2].

وقد باركت البابوية الحملات البرتغالية واصفة الإسلام بالطاعون وتواصلت حملاتهم في منطقة المحيط الهندي قتلاً ونهباً، حتى تطلعوا للزحف على الجزيرة العربية من مداخلها البحرية الجنوبية بدءاً من عام 911هـ، فأخذوا يهددون سواحل جُدة رغبة في دخولها، ثم الدخول إلى الأراضي المقدسة وضرب مقدسات المسلمين[3] كما فعل أو حاول أسلافهم الصليبيون في القرن السادس الهجري.

وعوداً على الأحداث الداخلية وفي خضم الصراع الذي أحدثه ابن سبع أمير ينبع، أقر السلطان في العام 912هـ الشريف هجار بن دراج أميراً لينبع. أملاً في الحد من قوة يحيى بن سبع[4].

وفي رمضان من نفس العام تمكنت حملة مملوكية من هزيمة يحيى بن سبع

(1) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص82، ص84، أحداث سنة 911هـ.
(2) فائق بكر صواف، ومصطفى محمد رمضان: أهمية ثغر جُدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، بحث مجلة الدارة، العدد الثاني للسنة السادسة، ربيع أول، 1401هـ/ يناير 1981م، الرياض، ص200.
(3) فائق صواف ومصطفى رمضان: أهمية ثغر جُدة، مصدر سبق ذكره، ص201.
(4) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص101.

وجماعته وأتباعه إلا أن يحيى بن سبع استطاع الهرب[1]. وتواصل الصراع وفي شوال وذي القعدة هاجم جيش مملوكي ينبع ودارت رحى معركة كبيرة بين الطرفين كانت الهزيمة على يحيى بن سبع، وقد غالى المماليك في الفتك والقتل بأهالي ينبع، ولما وصل الخبر إلى القاهرة احتفل احتفالاً كبيراً بهذا النصر، وحملت رؤوس أشراف ينبع على الرماح يُدار بها في شوارع القاهرة[2].

وفي حملة أخرى عام 913 تمكن المماليك من الانتصار على يحيى بن سبع وأعوانه من الأعراب وحملت إلى القاهرة ثمانمائة رأس من رؤوس العرب من بني ابراهيم الذين قتلوا في المعركة، وأشهرت على رؤوس الرماح في شوارع القاهرة[3].

ويرى السيد محمد بن عبدالله الحسيني الشهير بكبريت المدني صاحب «رحلة الشتاء والصيف» أن من أسباب انهيار دولة المماليك، ومقتل قانصوه الغوري مبالغته في قتل أشراف ينبع حتى بنى من رؤوسهم مسطبة، جلس عليها أمراء عسكره[4].

وفي نفس العام توجهت حملة مملوكية إلى عرب بني لام في الكرك ونابلس، وقد كانوا يقطعون طريق الحاج في العقبة، فانتصر عليهم الجيش المملوكي، ففرحت بهذا النصر القاهرة وعلقت فيها الزينات[5].

ولما دخل العام 914هـ، سعى يحيى بن سبع للتقرب من السلطان المملوكي طالباً الصفح فأرسل ابنه، فأُعطى الأمان، وأُخلع عليه، وطلب منه إحضار أبيه. وفي رجب حضر يحيى بن سبع، فأرسل إليه السلطان أماناً، فدخل القاهرة، وأخلع عليه السلطان، ومنع من التعرض له[6].

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص104.
(2) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص106.
(3) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص116.
(4) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص64؛ عبدالكريم الخطيب: تاريخ ينبع، ص240.
(5) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص117.
(6) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص130، وص138.

وخروجاً من هذه الصراعات المسلحة إلى المآثر العمرانية للسلطان قانصوه الغوري، ففي هذا العام كلف السلطان أحد المماليك وهو خاير بك المعماري بالتوجه إلى العقبة برفقة عدد من البنائين والمهندسين، وشُرع في بناء خان بالعقبة وبروج في طريق الحاج، وعمر رصيفاً على البحر عند العقبة وأصلحت العراقيب بالعقبة التي كان يعاني منها الحجيج[1].

وبما أن هذا المشروع لتسهيل طريق الحاج وتوفير الخدمات الضرورية له إلا أنه أيضاً بسبب الغزو البرتغالي الذي أخذ يهاجم المداخل الجنوبية للبحر الأحمر[2]. كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

ولتنامي الخطر البرتغالي في البحر الأحمر، تمت الإشارة فيما تقدم إلى حملة مملوكية للتصدي للزحف البرتغالي في عام 911هـ، وكان هدفها أولاً تحصين جُدة لمواجهة أي خطر أو عدوان مفاجئ عليها.

فكان عزم السلطان المملوكي على بناء سور حول جُدة لحمايتها من الخطر البرتغالي ويرى بعض المؤرخين إضافة إلى ذلك للتصدي لهجمات الأعراب من بني إبراهيم مع يحيى بن سبع أمير ينبع، والجازاني، وقد تقدم الحديث عنهما.

ويشير القطبي إلى الامرين دفع خطر البرتغاليين، وخطر الأعراب عن جُدة إلا إنه يختلف مع ابن فرج في أنه بُدءَ في بناء السور في عام 917هـ، أما ابن فرج فيرى أنه بُدءَ في عام 911هـ أو 912هـ وانتهى في تسعة أشهر، إلا أن أغلب المصادر والمراجع التي اطّلَعَ عليها الباحث ترجح أنه تم بناؤه في عام 917هـ، وقد اشتد حسين الكردي في بنائه، حتى قيل أنه بنى على أحد البنائين جداراً لتأخره عن البناء لفترة وجيزة، وكانت نهاية هذا الأمير وخيمة، فقد أُغرق في بحر جُدة سنة 923هـ/ 1517م بأمر من السلطان العثماني سليم الأول لكثرة مظالمه.

(1) ابن إياس: المصدر السابق، ج4، ص133.
(2) يوسف غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص76.

أما عن بناء السور، فقد شارك فيه أهل مكة وجُدة يتقدمهم أميرهم الشريف بركات، الذي أمر بنزع بعض ملكيات البيوت القريبة من منطقة السور فكان الأمير يتابع مع الأهالي عملية البناء ويقف عليها بنفسه مشجعاً ومعيناً وبلغ ارتفاع السور 12 ذراع، وطول محيطه من ناحية مكة واليمن 3000 ذراع، وعرض جداره 4 أذرع، وكان عدد الأبراج ستة ومحيط كل برج 16 ذراعاً وارتفاعه 15 ذراعاً، ومنها أبراج قبْلية وبحرية ويمانية وشامية، وأُحيطت جُدة بخندق من جميع جوانبها(1).

وتواصل الخطر البرتغالي، وحاول المماليك التصدي له، فكانت الهزيمة التي تعرض لها الجيش المملوكي في معركة (ديو البحرية) 915هـ في المحيط الهندي، فتزايد الزحف البرتغالي، وأخذوا يهاجمون السواحل العربية في جنوب الجزيرة العربية، فخربوا ميناء عدن في بداية عام 919هـ، واستولوا على جزيرة كمران وخربوها، واتجهوا إلى جُدة، ويشاء الله عز وجل ويسلط عليهم ريحاً عاتية صرفتهم عن جُدة، فواصلوا تخريبهم في منطقة جنوب البحر الأحمر. حتى كان عام 921هـ عادت حملة برتغالية لمهاجمة جُدة، فما كان من السلطان الغوري إلا أن بادر عاجلاً إلى إرسال حملة بقيادة الكردي الذي كان في السويس يعد أسطولاً بحرياً لمواجهة البرتغاليين، فباشر الكردي لدى وصوله إلى تقوية دفاعات جُدة. ويشاء الله ويصرف البرتغاليين عن جُدة بقيام ثورة في جزيرة «هرمز» التي استولى عليها البرتغاليون في وقت سابق في الخليج العربي «الفارسي». فعادت الحملة البرتغالية إلى هرمز وسيطرت على الأوضاع، وعاجلت الوفاة قائد الجيش البرتغالي في الهند، وحفظ الله الأماكن المقدسة(2).

(1) عبدالكريم بن محب الدين القطبي: أعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، المدون على هامش كتاب: الدحلان خلاصة الكلام، ص166.165، وانظر ابن فرج: السلاح والعدة، تحقيق مصطفى الحدري، ص88.87؛ السنجاري: منائح الكرم، ج3، ص172؛ سنوك: صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ص205؛ السباعي: تاريخ مكة، ص316؛ فائق صواف ومصطفى رمضان، أهمية ثغر جُدة، بحث في مجلة الدارة، سبق ذكره، ص203.202.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور، ج4، ص308.307؛ القطبي: الإعلام على هامش خلاصة الكلام، ص167.166؛

ويذكر ابن إياس من مآثر السلطان الغوري العمرانية عدة مآثر منها إصلاحه طريق العقبة وحفر الآبار في طريق الحاج، وإنشاء سور جُدة، وإنشاؤه على ساحل ينبع سوراً وأبراجاً منيعة[1].

وآذنت دولة المماليك بالزوال، وزحف العثمانيون باتجاه بلاد الشام وقبيل هذه النهاية هدأت الأوضاع إلى حد ما في ينبع بعد أن أمر السلطان المملوكي بإطلاق يد الشريف بركات أمير مكة على ينبع يولي من يشاء ويعزل من يشاء، رغم بقاء الإمارة في أبناء الشريف دراج[2].

وقتل السلطان الغوري علي يد العثمانيين في معركة مرج دابق، وفي شهر ذي الحجة من عام 922هـ سقطت دولة المماليك نهائياً في موقعة الريدانية بمصر، ودخل العثمانيون القاهرة بقيادة السلطان سليم الأول مع مستهل عام 923هـ[3].

فائق صراف ومصطفى رمضان، أهمية ثغر جُدة، ص205.204.

(1) بدائع الزهور في وقائع الدهور: ج5، ص95.

(2) ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، ج4، ص455.

(3) ابن إياس: المصدر السابق: ج5، ص148.146.145.

الفصل الثالث

- الملاحة وصناعة السفن وأنواعها بالبحر الأحمر

أ) الملاحة وعقباتها بالبحر الأحمر بين الثغور المصرية والسودانية من جهة والثغور الحجازية من الجهة المقابلة.

ب) صناعة السفن وأنواعها بالبحر الأحمر.

مدخــل:

سيتم الحديث في هذا الفصل إن شاء الله عن الملاحة وعقباتها في البحر الأحمر في (المبحث الأول) وأهم الأهوال التي تعرض لها الحجاج في هذا البحر خلال الفترة الإسلامية، مع بيان مدى ارتباط المسلمين بالبحر الأحمر حتى نهاية العهد العباسي وانتهاءً بالحديث عن التجارة الشرقية التي ازدهرت في العصور الوسطى عبر البحر الأحمر والتي شكلت العماد الاقتصادي والركيزة الأساسية للأحداث الاقتصادية للبلاد الإسلامية المطلة على ساحلي البحر الأحمر شعوباً وحكومات.

وفي المبحث الثاني سيتم الحديث عن نشأة صناعة السفن عند المسلمين وأهم سفن البحر الأحمر وما تميزت به عن السفن الأخرى، وذكر طاقم السفينة العربية، وانتهاءً بأهم انواع السفن العربية التي جرت في البحر الأحمر.

وقبل اختتام الفصل رأيت أنه من المناسب أن أعرض بشيء من الإيجاز للتاريخ الملاحي للمسلمين حتى نهاية القرن العاشر بهدف تكامل العرض التاريخي للملاحة وصناعة السفن في البحر الأحمر.

أ ـ الملاحة وعقباتها بالبحر الأحمر بين الثغور المصرية والسودانية من جهة والثغور الحجازية من الجهة المقابلة:

1) معنى الملاحة:

الملح ما يطيب به الطعام يؤنث ويذكر، والتأنيث فيه أكثر. وماء ملح، ولا يقال مالح إلا في لغة رديئة،

والمَلاَّحةُ: منبت الملح،

والملاَّح: صاحب السفينة لملازمته الماء الملح.

والمِلاحُ: الريح التي تجري بها السفينة وبه سمي المَلاَّحُ مَلاَّحاً. وقيل: سمي السّقَّان مَلاَّحاً لمعالجته الملح بإجراء السفن فيه[1].

وعلم الملاحة البحرية في رأي ابن ماجد والمهري علم «عقلي تجريبي» فمنه ما هو تجريبي بحت، ومنه ما يدرك بنظر العقل وحده، ومنه ما يجمع التجربة ونظر العقل معاً[2].

كما تفسر الملاحة البحرية على أنها التي تتم عملياً في البحر بأوصافه الطبيعية والجغرافية والجيولوجية، وتختلف إلى حد ما عن الملاحة الداخلية في الأنهار والقنوات والبحيرات[3].

ويشير ابن ماجد إلى أهمية علم البحر بأنه يدل على معرفة القِبْلة، وأنه قد درس على يديه عدد من علماء الفرائض لمعرفة القِبْلة واستحسنوه وعملوا به دون غيره من العلوم[4].

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج، ص599، 601.

(2) شهاب: حسن صالح: فن الملاحة عند العرب، مركز الدراسة والبحوث اليمني، صنعاء، دار العودة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1982، ص75. (سيأتي التعريف بابن ماجد والمهري لاحقاً)

(3) راشد البكر، حجم التبادل التجاري بين المملكة ودول البحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، ص80.

(4) شهاب الدين أحمد بن ماجد ابن أبي الركائب النجدي: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، العلوم البحرية عند العرب، تحقيق إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1390هـ

2) عقبات الملاحة في البحر الأحمر:

والبحر الأحمر مجال البحث تبلغ مساحته 178 ألف ميل مربع، ويبلغ طول سواحله من الشمال من خليجي العقبة والسويس إلى الجنوب 3069 ميلاً، ومتوسط اتساعه 170 ميلاً، ويضيق كلما اتجهنا شمالاً أو جنوباً وأكثر مناطقه اتساعاً 190 ميلاً، وتمتد بين مصوع في أرتيريا على الساحل الافريقي، وجازان على ساحل الجزيرة العربية جنوب الحجاز، وأضيق مناطقه 40 ميلاً بين عصب في أرتيريا والمخا في اليمن، وينتهي جنوباً بباب المندب[1].

والساحل الحجازي على وجه الخصوص، وجزئه الشمالي يمثل ساحلاً صخرياً، حيث تطل في معظم جهاته الشمالية الحافات الانكسارية الوعرة على مياه خليج العقبة، وتصطدم أمواج البحر بأطرافها السفلى، ورغم ميل الساحل إلى الاستقامة الظاهرية، إلا أنه يضم عدد من الرؤوس، أهمها رأس القلاع ورأس أبو علي، ورأس سويهل الصغير، ورأس سويهل الكبير، ورأس الشيخ حميد، وأيضاً عدد من الشروم والخلجان الصغيرة. ويشتهر هذا الساحل بكثرة شعابه المرجانية التي تشكل خطراً على الملاحة فيه، والبحر الأحمر من أفضل البيئات الصالحة لنمو الشعب المرجانية، من حيث ارتفاع درجة الحرارة، والأعماق الضحلة، وصفاء المياه، وارتفاع نسبة الملاحة، وتتركز الشعاب المرجانية في النصف الجنوبي للبحر الأحمر وكذلك في نصفه الشمالي عند مدخل خليج العقبة[2].

ويشير ابن حوقل إلى وجود جبال كثيرة في البحر الأحمر قد علاها الماء، ورغم معرفة طرق السفن بينها، إلا أن ربان السفن لابد لهم من أن يتخللوا هذه الطرق نهاراً، ولا يمكنهم أن يسلكوها ليلاً، رغم صفاء مياه البحر الأحمر

. 1971م، ص43.

(1) مدني: محمد عمر: البحر الأحمر واتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار، ندوة البحر الأحمر، ص165.

(2) الرويثي: الموانئ السعودية، ص57.52.

وأخطر موقع فيه هي جزر تاران جنوب خليج العقبة، وتتعرض فيه المراكب للمخاطر إلا من سلمه الله[1].

ويقول ابن ماجد: «بحر القلزم أوسخ بحور الدنيا»، ويعود ذلك الوصف بلا شك إلى كثرة الشعب المرجانية والصخور في هذا البحر ذات الرؤوس الحادة الكامنة تحت مياه البحر، والمتناثرة حول الجزر الصخرية والرملية حتى باتت الملاحة مجازفة ومخاطرة حتى لو كان الملاح ذو خبرة سابقة في معرفة المواقع الخطرة وغير الخطرة،

ولديه من القدرة والمهارة ما يستطيع تصريف سفينته في أجواء هذا البحر قد يعرض حياته ومن معه للخطر والهلاك، لذا كانت السفن والمراكب الشراعية لا تسير إلا نهاراً فقط[2].

ويصف حوراني البحر الأحمر وخاصة النصف الشمالي منه بأنه ينطوي على عقبات كأداء، مشيراً إلى الشعاب المرجانية الضخمة التي تحف كلا الساحلين؛ وتغوص إلى داخل البحر الأحمر، وتجنب الاصطدام بها يحتاج إلى مهارة وحنكة ودراية من أي ملاح. وكانت الملاحة صعبة أيضاً لهبوب الرياح الشمالية على الساحل الحجازي جنوباً طوال العام، مما اضطر عرب الجزيرة إلى اتخاذ طرق برية للقوافل محاذية للساحل الحجازي تجنباً لمواجهة أهوال البحر الأحمر[3].

وتهب عليه رياح موسمية دائمة شمالية وشرقية في فصل الصيف متجهة إلى الجنوب الغربي، وتهب في الشتاء من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. لذا يفضل الملاحون الإبحار في فصل الصيف في الجزء الجنوبي من البحر الأحمر، لتدفع هذه الرياح السفن إلى باب المندب، ومنه إلى المحيط الهندي، وفي الجزء

(1) صورة الأرض، ص45. 46.
(2) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص229.
(3) جورج فاضلو: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص26،25.

الشمالي تكون العودة في فصل الشتاء، ما بين شهري ديسمبر وفبراير، وقد اعتاد البحارة والتجار والمسافرون السفر في شهري أبريل ويونيو، والعودة من الجنوب شهري يناير وفبراير، فارتبطت الملاحة في البحر الأحمر بالمخاطرة في العصور الوسطي، ولكن لم تكن العقبات الطبيعية لوحدها التي تشكل خطراً على الملاحة في البحر الأحمر، بل هناك أيضاً قراصنة البحر أو «المتجرمة» فقد كانوا يتعرضون للسفن نهباً وقتلاً وسبياً، ويباع من يُسبى في أسواق العبيد نساءً أو رجالاً[1].

3) أهوال البحر الأحمر والحجاج:

ومما تناقلته بعض كتب الرحلات عن الأهوال التي يتعرض لها الحجاج أثناء عبورهم البحر إلى الديار المقدسة، ما ورد في رحلة ابن جبير (ت614هـ) بتاريخ ربيع الاول من عام 579هـ، حيث وصف هذه الرحلة عبر البحر الأحمر بأنها آفة عظيمة للحجاج قل من يسلم منها إلا من سلمه الله، فالرياح تُلقيهم في مراسٍ بصحاري تبعد بهم عن جُدة أو عن عيذاب على الشاطئ المقابل، ويرى أن أكثر هلاك الحجاج بهذه المراسي، فمنهم من تساعده الريح إلى أن ينزل بمرسى عيذاب وهم الأقل عدداً، ومنهم من يرسوا على غير عيذاب فيتعرض لأهوال متعددة واصفاً مراكب أهل عيذاب التي تنقل الحجاج إلى جُدة بأنها ملفقة الإنشاء. وتحوم حولهم في البحر حوت القرش ليبتلع الغرقى فيه، ويزداد الأمر صعوبةً سوء معاملة أهل عيذاب للحجاج لشحنهم أعداداً كبيرة في مراكب صغيرة، كأنها أقفاص الدجاج المملوءة[2].

ويصف سيرهم في البحر بريح فاترة المهب بقوله: (ونحن قد استبشرنا برؤية الطير المحلقة من بر الحجاز، لمع برق من جهة البر المذكور، وهي جهة الشرق،

(1) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص14.11.
(2) رحلة ابن جبير: ص48.46.

ثم نشأ نور أظلم له الأفق إلى أن كسا الآفاق كلها، وهبت رياح شديدة صرفت المراكب عن طريقه راجعاً وراءه، وتمادى عُصوف الرياح واشتدت حُلْكةٍ الظلمة وعمت الآفاق فلم ندر الجهة المقصودة منها إلى أسفل الدقل، وهو الصاري، وأقمنا ليلتنا تلك في هول يؤذن باليأس، وأرانا بحر فرعون بعض أهواله الموصوفة، إلى أن أتى الله بالفرج مقترناً مع الصباح. فهدأ قياد الرياح وأقشع الغيم، وأصبحت السماء ولاح لنا بر الحجاز على بعد لا نبصر منه إلا بعض جباله، وهي شرق جُدة، زعم رُبّان المركب، وهو الرائس أن بين تلك الجبال التي لاحت لنا وبر جُدة يومين، والله يسهل لنا كل صعب وييسر لنا كل عسير بعزته وكرمه.

فجرينا يومنا ذلك.. بريح رُخاء طيبة، ثم أرسينا عشية في جزيرة صغيرة في البحر على مقربة من البر المذكور بعد أن لقينا شعاباً كثيرة يكثر فيه الماء ويضحل علينا، فتخللنا أثناءها على حذر وتحفظ. وكان الربان بصيراً بصنعته حاذقاً فيها، فخلصنا الله منها، حتى أرسينا بالجزيرة المذكورة، ونزلنا إليها وبتنا بها ليلة الجمعة ..، وأصبح الهواء راكداً والريح غير متنفسة إلا من الجهة التي لا توافقنا، فأقمنا بها يوم الجمعة المذكور. فلما كان يوم السبت.. تنفست الريح بعض التنفس، فأقلعنا بذلك النفس نسير سيراً رويداً. وسكن البحر حتى خيل لناظره أنه صحن زجاج أزرق. فأقمنا على تلك الحال في جو لطيف صنع الله عز وجل. وهذه الجزيرة تعرف بجزيرة عائقة السفن، فعصمنا الله عز وجل من فأل اسمها المذموم، وله الحمد والشكر.

وفي عشي يوم الأحد أرسينا بمرسى يُعرف بأبحر، وهو على بعد يوم من جُدة، وهو من أعجب المراسي مصنعاً، وذلك أن خليجاً من البحر يدخل إلى البر والبر مُطيف به من كلتا حافتيه فترسي الجلاب منه في قرارة مُكَنّة هادئة. فلما كان سحر يوم الاثنين بعده أقلعنا منه على بركة الله تعالى بريح فاترة، والله الميسر لا رب سواه، فلما جن الليل أرسينا على مقربة من جُدة وهي بمرأى

العين منا. وحالت الريح صبيحة يوم الثلاثاء بيننا وبين دخول مرساها، ودخول هذه المراسي صعب المرام بسبب كثرة الشعاب والتفافها. وأبصرنا من صنعته هؤلاء الرؤساء والنواتية في التصرف بالجلبة أثناءها أمراً ضخماً، يدخلونها على مضايق ويعرفونها خلالها تصريف الفارس للجواد الرطب العنان السلس القياد، ويأتون في ذلك بعجب يفوق الوصف عنه. وفي ظهر يوم الثلاثاء.... كان نزولنا بجُدة حامدين الله عز وجل وشاكرين على السلامة والنجاة من هول ما عايناه في تلك الأيام الثمانية طول مقامنا على البحر، وكانت أهوالاً شتى، عصمنا الله منها بفضله وكرمه، فمنها ما كان يطرأ من البحر واختلاف رياحه وكثرة شعابه المعترضة فيه. ومنها ما كان يطرأ من ضعف عدة المراكب واختلالها واقتصامها المرة بعد المرة عند رفع الشراع أو حطه أو جذب مرساة من مراسيه، وربما سنحت الجلبة بأسفها على شعب من تلك الشعاب أثناء تخللها فنسمع لها هدّاً يُؤذن باليأس فكنا نموت مراراً ونحيا مراراً.)[1]

ويتحدث الرحالة التجيبي السبتي (ت730هـ) عن مخاطر وعقبات البحر الأحمر ومراكبه الضعيفة البنية واصفاً سير الرحلة من عيذاب إلى جُدة بقوله.

(ثم كان انفصالنا من عيذاب المذكورة في يوم الأربعاء الثالث عشر لشعبان المكرم من سنة ست المذكورة[2].... في مركب من مراكبها يدعونه بالسنبوق، مضطرين لركوبه متوكلين على الله تعالى في أن يسلمنا ويبلغنا المقصد الأسني بمنه وفضله.. فدخلنا بعد مضي نحو ساعة من يومنا مرسى بمقربة من عيذاب المذكورة يدعى بالجدير، ومن هذا المرسى يحرم الآن أكثر القاصدين إلى الحجاز الشريف من هذا الطريق[3]. وفي الإحرام منه غرر عظيم وخطر، لما

(1) رحلة ابن جبير: ص5250.

(2) أي في عام 696هـ (في عهد سلاطين المماليك البحرية. العادل زين الدين كتبغا، والمنصور حسام الدين لاجين).

(3) أي في زمن المؤلف، وعيذاب أو الجدير ليستا من مواقيت الحج، وإحرامهم هذا قبل الميقات، كما أجاب الرحالة نفسه في سياق الحديث.

يتوقع من عدم مساعدة الريح لمن يحرم منها، فيطول زمان إحرامه، فيلحقه الحرج بذلك ولقد بلغني أن بعض المحرمين منه أقام محرماً نحو سنة. وليس هذا الموضع بميقات محقق، ولا أعلم من أهل العلم نص على أنه ميقات، ولا هو محاذ لميقات من المواقيت المعلومة، والله أعلم.... ثم لججنا من الجدير المذكور في عشي يوم الأربعاء المذكور صحبة مركب آخر لأحد عظماء التجار من ذوي اليسار.... فجرينا متقاربين في الجري متقاربين في السير بريح فاترة مساعدة لنا جميعاً. فلما قاربنا التوسط بين بر الحجاز الشريف، وبر عيذاب الوحش عصفت الريح وجاء منها ما أشفينا به على التلف، وعظم الموج حتى حال بيننا وبين المركب المذكور، فلم نعلم من حيث ذهب، وأظلم البحر، وأشتد سواده وأرانا أهواله الفرعونية سلط الله عليه اليبس، وأخافنا ما شاهدنا من الحال. وأجمع رأي الملاحين وربانهم على أن الرجوع إلى بر عيذاب الوحش أرجأ لسلامتنا، فكررنا راجعين طائعين وجلين فيسر الله تعالى علينا، ودخلنا مرسى من مراسي بر عيذاب يعرف بالواسعة، فلم ينتفع بفال اسمه، وضاقت علينا الأرض بما رحبت، ولم يكن به ماء ولا ظل ولا أنس ولا وحش ولا إنش، فأقمنا فيه يوماً وبعض آخر، ثم أقلعنا منه ملحجين أيضاً فلما توسطنا الطريق مال أيضاً علينا البحر أشد من المرة الأولى، وعصفت الريح عصوفاً شديداً، وجاء منها ما لا قبل لأحدبه، وعاينا الموت عياناً، وأيقنا بالتلف لا محالة، وبهت الملاحون من شدة الهول.... وهموا بإسلام المركب، وإن يلقوا بأيديهم إلى التهلكة، وأجمع رأي الجميع على أن الرجوع إلى بر عيذاب الوحش أرجاء لنا أيضاً، فكررنا راجعين عوداً على بدء خائفين وعلى الله في سلامتنا متوكلين، وقد بلغت القلوب الحناجر، وأحاط بنا الموج من كل جهة ومكان. ثم تداركنا الله تعالى بلطفه، ودخلنا مرسى من مراسي بر عيذاب المذكورة على مقربة من جزيرة سواكن يدعى بالمربوطة وبعد استقرارنا فيه، وذكر لنا ربان مركبنا وكان مقدماً في صناعته ماهراً فيها إن سلامتنا كانت مما يعد من النادر،

وأن المركب قد اختلت الواحة ودسره، بما طرأ علينا من النوء، وأن السفر لا يمكن فيه البتة، فأرسينا بهذا المرسى، ولم نرَ قط مرسى أشد توحشاً منه كان قريب القعر، بعيداً عن البر، بقي بين المركب وبين البر نحو نصف ميل، وكان قعره طيناً. فكان أحد إذا نزل إلى البر كابد مشقة في نزوله، وساخت رجلاه في الطين إلى قرب ركبتيه، ولا يكاد يصل إلى البر إلا بشق النفس، فإذا وصل إلى البر لم يجد ماء ولا ظلاً ولا عمارة ولا حيواناً يدب على وجه الأرض فأقمنا بها أيامنا أعظم الله بها الأجر، ونفذ أكثر مياه المركب ولم يبق لنا في خاصتنا إلا شيء نزر فجعلناه تحت نظر من وثقناه من أصحابنا، وقدمناه على حفظه، وعلى أن يسوي بيننا فيه ففعل ذلك، وكان يدفع لأحدنا منه جرعة بكرة وجرعة عشية، واستمر حالنا على ذلك، والخوف في كل يوم في ازدياد إلى أن أجمع رأي أصحابنا على أن استأجرنا أحد ملاحي المركب المذكور من البجة بعد أن قرر عندنا الربان أنه خبير بالطريق وما هو فيها، فكان كذلك عارف بطريق هذه الصحراء صبوراً على رمضائها، فبعثناه إلى عيذاب، وكان بيننا وبينها جملة أيام على ما ذكر البجة، وأصحبناه كتاباً إلى بعض أصحابنا ممن خلفناه بعيذاب على بعض أسبابنا وذكرنا له أن يكتري لنا مركباً، ويبعثه إلينا. وكتبنا كتاباً آخر لقاضي عيذاب حفظه الله، وكان من أهل الدين والفضل.. ورغبنا منهم أن يشاركوا أصحابنا في كراء المركب المذكور، وأن يؤكدوا على الربان في الإقلاع إلينا سريعاً في أقرب وقت ممكن، ووصفنا لهم بعض حالنا فبلغنا أن القاضي حفظه الله وجزاه خيراً لما قرأ كتابنا رق لنا رقة شديدة، وجمع من الناس من قرأه عليهم وبكى وأبكى، فأشفق الجميع من حالنا، ودعوا لنا بخير، واجتمع بالذي كتبنا له الكتاب، وشاركه غير المشاركة. وأكد على الربان الإقلاع سريعاً، ففعل ذلك الربان. وما طلع النهار إلا وسنبوق قد وصل من عيذاب بالماء، فاشترينا العديلة بأزيد من دينار عيناً، وهي قدر قربة أو أزيد قليلاً، وبشرنا بوصول المركب إلينا فوصلنا في أثناء النهار وهو المركب الذي

اكتري لنا بعيذاب.. وانتقلنا بجملتنا، وامتنع المركب الأول من رد الكراء إلينا ظلماً منه وعدوانا.... ثم بلغنا مرسى المربوطة في المركب الواصل مستبشرين بالتيسير والتسهيل بفضل الله ورحمته، فكان الأمر كذلك، وأعطانا الله ريحاً رخاء طيبة.... ولم تزل الحال كذلك إلى أن دخلنا مرسى من مراسي الحجاز الشريف يعرف بابحر ولله الحمد والشكر.... وبين هذا المرسى وبين جُدة نحو ساعتين من نهار، فبتنا فيه ليلتنا تلك وقد استبشرنا ببلوغ المقصد الأسنى بفضل الله ورحمته، لأن السفر لا يمكنهم في هذا البحر ليلاً إذا قاربوا البر لكثرة شعبه وترشه، وهو أعجب العجب في ذلك، ولو لا تردد الملاحين فيه وخبرتهم به ما سلكه أحد، فتراهم إذا قاربوا البر أجلسوا أحدهم في مقدم المركب، يبصر ما لاح أمامه من الترش، ويقول للذي يمسك الخيرزانة جر إليك وادفع عنك. ولولا ذلك ما عبر أحد هذا البحر، وآفاته كثيرة، والأمر فيه فوق ما وصفنا وبسبب كثرة ترشه لا يسافر فيه خوفاً من معاطبة، يرسون به نهاراً، ويقلعون منه نهاراً... ثم أقلعنا من مرسى أبحر غدوة يوم السبت الثامن لشهر رمضان المعظم... فدخلنا ضحى اليوم المذكور جُدة حرسها الله عن عهد أربعة وعشرين يوماً من عيذاب.)(1)

2) مدى ارتباط المسلمين بالبحر الأحمر حتى نهاية العهد العباسي:

ولنا أن نتساءل ما مدى ارتباط المسلمين بالبحر الأحمر شديد الأهوال منذ العهد النبوي حتى نهاية العهد العباسي إجمالاً؟

لقد ارتبط سكان السواحل البحرية على ساحل البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي بالبحر ذهاباً وإياباً منذ القدم طلباً لرزقهم اليومي، خاصة وأن هذه السواحل كثيرة الجدب لا تتوفر فيها أسباب المعيشة الهانئة بعيداً

(1) مستفاد الرحلة والاغتراب: تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا.تونس، 1975م، ص207.217.

عن أجواء ومخاطر البحار، زد على ذلك قصر المسافة بين الساحلين العربي والأفريقي في بعض مناطق البحر الأحمر وخليج عدن مما شجع ابناء تلك المناطق على الترحال إلى تلك الديار بالرغم من خطورة البحار المحيطة ببلاد العرب[1].

ولكن ارتباط أهل اليمن بالبحر تجارياً كان أكثر من أهل الحجاز قبل الإسلام، ووصلت تجارتهم إلى السند[2]، وكونكنام[3]، ومليبار[4]، وسيلان[5]، وجاوة[6]، والصين[7]، وغيرها من البلدان[8].

إلا أن هذا لا يعني أن باقي أهل الجزيرة العربية وأبناء الحجاز خاصة لم يركبوا البحر، وقد دَلّ على معرفتهم بالبحر علامات منها بعض اشعارهم ومنها قول: طرفه بن العبد:

كأنَّ حُدُوج المالكية غُدْوَةً ... خلايا سفين بالنواصف من دَدِ

عدولية أو من سفينِ ابن يامنٍ ... يجور بها الملاح طوراً ويهتدي

(1) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص29.

(2) السند: بكسر أوله، وسكون ثانيه، وآخره دال مهملة، وهي بلاد بين الهند وكرمان وسجستان، فتحت في أيام الحجاج بن يوسف الثقفي. وهي الآن جزء من جمهورية الباكستان الإسلامية ويخترقها نهر السند الذي يبلغ طوله 3180كم تقريباً. انظر ياقوت: معجم البلدان: ج3، ص267 مادة (السند).

(3) كونكنام: في بلاد الهند. انظر ياقوت: ج4، ص484.

(4) مليبار: إقليم كبير في وسط الهند، انظر ياقوت، ج5، ص196. وكلمة مليبار تتكون من مقطعين هما: ملي، وتعني أرض الجبل، وبار تعني الساحل، أي سواحل الأراضي الجبلية، وتشمل سواحل غرب الهند من جنوب حتى ساحل جوجيرات شمالاً، ومن أهم موانئ المليبار قاليقوط، وكوبلون (كو لم ملي)، وألبي، وبوناي، وتريفندوم، وسيل، وكانور، انظر أحمد عبدالحميد الشامي: العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العربي والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى، دورية اتحاد المؤرخين العرب بعنوان (إقليم الخليج على مر العصور) القاهرة، 1417هـ.1996م، ص107.

(5) سيلان: بالتحريك آخره نون، جزيرة عظيمة، وبها سرنديب بين الهند والصين، انظر ياقوت: ج3، ص298، وهي الآن تشكل جمهورية سريلانكا الواقعة جنوب آسيا في المحيط الهندي على بعد 80 كم جنوب الهند وعاصمتها كولمبو.

(6) جاوة: جزيرة ومدينة عاصمة لإندونيسيا الحالية. جنوب شرقي آسيا.

(7) الصين: بالكسر وآخره نون، بلاد في بحر المشرق مائلة إلى الجنوب وشمالها الترك، وتوسع ياقوت في الحديث عنها كثيراً. انظر: ج3، ص440.

(8) شهاب: فن الملاحة، ص28.

والحدوج في البيت كما يشرحها التبريزي جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء، والخلايا جمع خلية وهي السفينة العظيمة، ولا يقال للسفينة خلية حتى يكون معها زورق. وعدولية تنسب إلى إحدى جزائر الخليج العربي أو العماني، وقيل نسبت إلى قوم بهجر، وابن يامن ملاح من أهل هجر أو تاجر، وعدولية من أنواع السفن العربية(1).

وقال: عمرو بن كلثوم:

مَـلأْنَا البَـرَّ حَتّـى ضَـاقَ عَنّـا وَظَهـرَ البَحْـرِ نَمْلَـؤُهُ سَفِيْنَـا(2)

إضافة إلى الدور التجاري الكبير لقريش في الجاهلية والإسلام فقد قال الله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾.

وبالرغم من الريادة البحرية لأهل اليمن وأهل عُمان إلا أن أهل الحجاز أيضاً مارسوا ركوب البحر، واهتموا أكثر بالتجارة البرية، وقد كانت لهم صلات تجارية عبر البحر بمصر والحبشة، ويدل على ذلك قول الإمام الطبري: (وكانت أرض الحبشة متجراً لقريش يتجرون فيها، يجدون فيها رفاعاً من الرزق وأمناً ومتجراً حسناً)(3).

وهذا يدل ولا شك على وجود رحلات بحرية لأهل الحجاز بفعل النشاط التجاري البارز لقريش حتى أصبحت مكة محطة تجارية هامة للقوافل البرية القادمة من الشام أو اليمن، وساحلها مكاناً لرسو السفن، حتى أشرق نور الإسلام على الجزيرة العربية منبثقاً من مكة بلد الله الأمين فأتخذ استخدام البحر الأحمر هدفاً آخر إضافة إلى الهدف التجاري ألا وهو نشر الدين

(1) الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي: شرح القصائد العشر، ضبطه وصححه عبدالسلام الحوفي، الطبعة الأولى، 1405هـ.1985م، دار الكتب العلمية، بيروت، ص76.75.

(2) التبريزي: شرح القصائد العشر، ص288 (يروى وسط البحر، ويروى ونحن البحر)؛ حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص21.؛ وانظر غيثان جريس: البحر في كتب التراث الإسلامي، دورية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ.1993م، ص94.

(3) الأمم والملوك: ج1، ص546.

والعقيدة، والأمن من أذى مشركي قريش، فكانت الهجرة إلى الحبشة عبوراً للبحر الأحمر من الشعيبة الميناء الحجازي إلى الساحل الإفريقي في السنة الخامسة للبعثة النبوية الشريفة، وكانت هذه الهجرة مفتاحاً لدور جديد للبحر الأحمر، فقد أصبح منفذاً ومعبراً للدعوة الإسلامية، فكان أن أسلم النجاشي أصحمة ملك الحبشة رحمه الله، ولما مات صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليه صلاة الغائب، ويورد الطبري تفاصيل أخرى عن إسلام هذا الملك الحبشي[1]. وكان لصحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المهاجرين إلى الحبشة الفضل بعد الله في بذر البذور الأولى لانتشار الإسلام في إفريقيا، ثم كان كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى النجاشي يدعوه إلى الإسلام ففي أحداث السنة السادسة للهجرة يورد الطبري رسالة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى النجاشي (بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة، سلمٌ أنت؛ فإني أحمد إليك الله الملك القدوس السلام المؤمن المهمن؛ وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى؛ فخلقه الله من روحه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له؛ والموالاة على طاعته؛ وأن تبتغي وتؤمن بالذي جاءني؛ فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ونفراً معه من المسلمين؛ فإذا جاءك فأقرهم، ودع التجبر، فإني أدعوك وجنودك إلى الله؛ فقد بلغت ونصحت؛ فاقبلوا نصحي؛ والسلام على من اتبع الهدى.

فكتب النجاشي إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: بسم الله الرحمن الرحيم، إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أجبر. سلام عليك يا نبي الله ورحمة الله وبركاته، من الله الذي لا إله إلا هو، الذي هدانا إلى الإسلام. أما

(1) الأمم والملوك: ج2، ص132؛ علي الشيخ ابو بكر: معالم الهجرتين، ص147.138؛ انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج1، ص293.

بعد فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى ما يزيد على ما ذكرت ثفروقاً؛ إنه كما قلت؛ وقد عرفنا ما بُعثت به إلينا؛ وقد قرينا ابن عمك وأصحابه؛ فأشهد أنك رسول الله صادقاً مصدقاً؛ وقد بايعتك وبايعت ابن عمك، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله؛ فإني أشهد أن ما تقول حق، والسلام عليك يا رسول الله.)[1]

من ذلك يلاحظ أن هذه الهجرة المبكرة عبر البحر الأحمر إلى شرق أفريقيا مقدمة لانتشار الإسلام في القارة الأفريقية، وكان البحر الأحمر الجسر الذي عبرت عليه هذه الدعوة الفتية دون أن يرافقها الجيوش والأساطيل، ولم يرافقها إلا ما يحفظه أفرادها رضوان الله عليهم من آيات الكتاب الحكيم، وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم، ولعل العلاقات الحسنة التي بُنيت بين المسلمين والنجاشي حالت دون الغزو العسكري في عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للحبشة أو في عهد الراشدين، سوى ما أشير إليه من هجمات القراصنة الأفارقة في البحر الأحمر في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وإيفاده حملة بحرية للقضاء على نشاط القراصنة، وما تم في عهد عبدالملك بن مروان الخليفة الأموي من سيطرة الأسطول الأموي على جزر دُهْلك التي شكلت موقعاً للقراصنة لمهاجمة سفن المسلمين. كما أن النزاعات التي حدثت بين بني أمية وآل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والصراعات

(1) الأمم والملوك: ج2، ص132؛ ابن الأثير، الكامل، ج2، ص145.144. ويرى ابن سعد أن الرسالة كانت في السنة السابعة في شهر المحرم، ويرجح ابن كثير بأن إرسال الرسل إلى الملوك كان في نهاية سنة ست في ذي الحجة. أما عن كتاب أو كتابين أرسلت إلى النجاشي، فقد اختلف المؤرخون في أنها أرسلت دفعة واحدة مع الصحابي عمرو بن أمية الضمري في نهاية السنة السادسة أو بداية السنة السابعة كتابٌ يحمل دعوة إلى الإسلام وآخر دعوة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم للنجاشي لتزويجه بأم حبيبة رضي الله عنها. وهناك من يرى أنه وجه كتاباً آخر إلى نجاشي غير الذي استقبل جعفر وأصحابه. إلا أن من المرجح أن النجاشي المسلم الذي صلى عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لم يمت إلا في السنة التاسعة للهجرة.
الطبقات الكبرى، ج1، ص258؛ انظر ابن كثير، ج4، ص262؛ علي الشيخ أحمد أبو بكر: معالم الهجرتين، ص192.188.

بين القبائل العربية كالقيسية والكلبية ساهمت في هجرة عدد من أولئك، وعدد من أولئك إلى أفريقيا الشرقية، والتي ساهمت في توطد الإسلام في تلك المناطق، وكل ذلك كان عبر البحر الأحمر، ويشير إلى هذه الهجرة «توماس آرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» قائلاً: إن من الكتب العربية التي تعرضت لانتشار الإسلام في شرق أفريقية كتابٌ وجده البرتغاليون في مدينة «كلو» حيث اجتاحها دون فرنسيسكو دليدا سنة 1505م مبنياً أن هذا الكتاب أشار إلى هجرة عدد من أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين رحمه الله خشية ملاحقة الأمويين لهم إلى شرق إفريقيا، كما هاجرت جماعات عربية أخرى إلى هذه المنطقة، فساهمت هذه التجمعات العربية في نشر الإسلام في إرتيريا والصومال والحبشة والسودان. كما ساهمت التجارة والتجار العرب بدور رائد في نشر الإسلام عبر البحر الأحمر في أفريقيا بعامة وشرقها بخاصة، ولأبناء جنوب الجزيرة العربية الدور الرائد في ذلك، ومن ذلك ما ذكره المستشرق جيوم من دور الحضارم في نشر الإسلام عبر البحر الأحمر إلى شرق إفريقية، مشيراً إلى أنه ما زالت لهم أماكن معلومة في الصومال وأرتيريا في القرن التاسع الهجري (أوائل الخامس عشر الميلادي). ومن أكبر الشواهد على آثار الدعوات والهجرات والرحلات التجارية إلى شرق إفريقيا قيام دول الطراز الإسلامي التي كانت تشكل على شاطئ البحر الأحمر طرازاً إسلامياً تمثل جوهرة عقده مدينة زيلع[1] التي كانت تعج بالمساجد والجوامع[2].

مما سبق يتضح لنا أن المسلمين في عهد النبوة لم يتهيبوا ركوب البحر كما سبق ذكر الآيات المتعددة والأحاديث عن المصطفى عليه الصلاة والسلام

(1) زيلع: أو زالع تقع على ساحل البحر الأحمر من بلاد الحبشة، ويصفها الإدريسي بأنها مدينة صغيرة، لكنها كثيرة الناس والمسافرين إليها كثير، وأكثر مراكب القلزم تصل إليها بأنواع التجارات، ويخرج منها الرقيق والفضة. انظر نزهة المشتاق، ج1، ص44.

(2) عبدالقادر: عبدالشافي غنيم: البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية، بحث ضمن (البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة)، جامعة عين شمس، القاهرة، 1980م، ص9279.

عن البحر، وفضل الجهاد فيه في الفصل الأول، وورد في معاهدة المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم مع صاحب «أيلة العقبة» تأمين المسلمين لأهل أيلة وسفنهم وسياراتهم في البحر والبر، بل ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن، وأهل البحر (ويقصد أهل الحبشة) وانتهت المعاهدة إلى أنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر. فهذا الصلح يشير إلى أن سكان أيلة «العقبة» وأهل اليمن وأهل الحبشة يرتادون الموانئ الوسطى للحجاز وباقي موانئ البحر الأحمر[1]. وفي عهد الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم وأرضاهم انطلقت الفتوحات الإسلامية شمالاً وشرقاً وغرباً، وتساقطت أمام جيوش المسلمين جيوش الفرس والروم. وكانت غالب فتوحات المسلمين برية لا بحرية، ومع توسع الفتوحات في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه اجتهد بعض القادة في ركوب البحر لمطاردة وتتبع أعداء الإسلام، مع نهي الخليفة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لذلك القائد، وهو العلاء بن الحضرمي أمير البحرين الذي ركب البحر، مما عرضه لعقاب أمير المؤمنين بعزله عن الإمارة وأمره باتباع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه[2]. وكان عمر رضي الله عنه يخشى على المسلمين ركوب البحر خشية هلاكهم فيه، وليس لهم في ركوبه خبرة ودراية كأسطول ومحاربين، ومن هذه الحادثة وحادثة عرفجة بن هرثمة الأزدي سيد بجيلة الذي غزا عُمان فبلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنفه. ويرى ابن خلدون أن سبب إحجام المسلمين عن القتال في البحر لبداوتهم، وإنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة في ثقافته وركوبه، والروم والإفرنجة في رأيه لممارستهم احواله وما مر بهم في التقلب على أعواده مرنوا عليه وأحكموا الدراية بثقافته، لذا لما استقر للعرب الملك وقوي سلطانهم، وصارت أمم العجم تحت أيديهم، وأصحاب

(1) تاريخ البحرية المصرية: نخبة من المتخصصين بجامعة الإسكندرية، مصر، 1973م، ص275.273.
(2) الطبري: الأمم والملوك: ج2، ص498، وانظر ابن الأثير، ج2، ص377.376.

الصناعات مستخدمين لهم، واستعانوا برجال البحر في حاجاتهم البحرية، وتكررت ممارستهم للبحر، شرعوا للجهاد فيه وأنشئوا السفن والشواطئ وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح والعساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر[1]. ومما دفع بالخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالنهي عن ركوب البحر وصف عمرو بن العاص رضي الله عنه لحال الراكبين في البحر الذي كان فيه تخويفاً منها قوله: (وهم فيه كدود على عود، إن مال غرق، وإن نجا برق) فنهى عمر بن الخطاب عن ركوب البحر المتوسط، ورغم الحاح معاوية رضي الله عنه بغزو قبرص، لم يتم له ذلك إلا في زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. ولكن لا يدل ذلك إلا حرص عمر رضي الله عنه على سلامة المسلمين، لأنه لم يكن لديهم في زمانه الأسطول البحري المؤهل، والمعد إعداداً جيداً لخوض قتال البحر[2].

لكن هذا القول على أهميته لا يعني أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه منع المسلمين نهائياً من ركوب البحر والجهاد فيه، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن عمر بعث بحملة بحرية في البحر الأحمر إلى ميناء باضع «مصوع» على الساحل الإفريقي بقيادة أبي محجن الثقفي في السنة السادسة عشرة للهجرة، للتصدي لهجمات القراصنة الأحباش على سواحل تهامة الحجاز[3].

والدلالة الأخرى على اهتمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأمر البحر، هو تكليفه لعمرو بن العاص رضي الله عنه أمير مصر بحفر قناة بين النيل والبحر الأحمر[4] تمكن من نقل المؤن والطعام إلى الحجاز، خاصة بعد أن

(1) تاريخ ابن خلدون: ج1، ص211.
(2) تاريخ ابن خلدون: ج1، ص211.
(3) الطبري: الأمم والملوك: ج2، ص475.
(4) (وهذا الخليج كان قد حفر في عهد الرومان قبل الإسلام، واشتهر باسم «قناة تراجان»، بل يرى بعض الباحثين إلى أنها حفرت في عهود مختلفة وطُهرت، وقد حُفرت من أيام الفراعنة. وحفرت هذه القناة في العام (23هـ) وكانت تمتد من بلبيس فبحيرة التمساح فمدينة القلزم (السويس)، واستغرقت مدة الحفر ستة شهور، ونقل عبر هذا الخليج المؤن والطعام إلى الحجاز، وبلغت حمولة المركب الواحد

أصاب أهل الحجاز مجاعة وقحطاً شديداً في عام الرمادة المشهور.

ويورد المسعودي أخباراً تشير إلى أنه جرت محاولات في عهد عمر بن الخطاب ثم في عهد هارون الرشيد لحفر قناة موصلة بين البحرين الأحمر والمتوسط، كما هي الحال الآن في «قناة السويس» إلا أن السبب الذي أدى إلى امتناع الخليفتين هو الخشية على أرض الحرمين من غزو البيزنطيين للحجاز وتعديهم على الأراضي المقدسة[1]. وقد مر بنا في الفصل السابق غزو الصليبيين في عهد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وكيف كادوا أن يصلوا إلى المدينة المنورة، لولا فضل الله ثم تدارك جيوش الأيوبيين لأرض الحرمين وصد الغزاة المعتدين وعقابهم عقاباً شديداً على جرأتهم وتعديهم على المقدسات.

وبالطبع بعد الفتح الإسلامي المجيد لمصر وانطلاق الفتوحات في القارة الإفريقية أصبح البحر الأحمر بحيرة إسلامية شرقاً وغرباً، وأصبح دوره يقتصر على الدور التجاري ونقل الحجاج والمسافرين، أو الهجرات العربية عبر موانئه إثر الصراعات والنزاعات الداخلية بين المسلمين بعد عهد الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم.

وقد قاوم الأمويون بعض هجمات القراصنة ليصبح طريق البحر الأحمر آمناً تجارياً وبحيرة إسلامية، واستمر هذا الدور حتى قامت دولة بني العباس فتحول الثقل التجاري إلى منطقة الخليج وبلاد الرافدين، وتراجع دور الحجاز

ثلاثة آلاف أردب. وبقى هذا الخليج معبراً للتجار وغيرهم، فكانت السفن تسير فيه إلى البحر الأحمر تريد الحجاز أو إلى اليمن أو الهند، إلى أن أهمل أمره الولاة بعد عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز الأُمَوي رحمه الله، فتكاثرت فيه الرمال والسوافي، وصار ممشاه إلى ذنب بحيرة التمساح من ناحية الطور والقلزم، حتى ردم سنة 145هـ في خلافة أبي جعفر المنصور العباسي لقطع الامدادات التي كانت تصل لمحمد ذي النفس الزكية أثناء ثورته على المنصور في المدينة من مصر). انظر الحموي: محمد ياسين: تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي بدمشق، ص13.11؛ القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص31.27؛ سيد إسماعيل كاشف: البحر الأحمر والفتح العربي لمصر، (البحر الأحمر في التاريخ والسياسة..)، جامعة عين شمس، ص101.98؛ حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص181.175.

(1) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص267.266.

ومصر، ولم يعدلهما إلا الجزء اليسير من التجارة الشرقية حتى قيام الدولة العبيدية «الفاطمية» في مصر والتي أعادت إلى البحر الأحمر نشاطه التجاري[1].

5) التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر:

ومن أشهر الطرق البحرية المرتبطة بالحجاز طريق بحري يمتد من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، وله فرعان يأخذ أحدهما جهة الشمال ويعبر سيناء إلى دمشق حتى يصل موانئ البحر المتوسط، وفرعه الآخر يتجه عبر صحراء سيناء إلى النيل فالقاهرة ومنها إلى الإسكندرية ومنها إلى أوروبا[2].

وطريق آخر ينطلق من الصين بحراً إلى الهند متحداً مع طريق الخليج العربي، والطريق السابق الممتد من الشرق الأقصى إلى البحر الأحمر، ويقع على هذا الطريق عدة موانئ صينية وهندية من أشهرها خانفو (كانتون)، وزيتون، وكينساي بالصين، وهندية مثل الملابار، ومدن جوجيرات، وكمباي، ودِيد، وكاليقوط، وجوا، وكولون وشول، وكانا نور، وسوراث حتى جزيرة سيلان. ووصلت السفن الصينية عبره إلى جُدة في البحر الأحمر مما أدى إلى نشاط التبادل التجاري بين العرب والصين والهند حتى أوائل القرن العاشر الهجري، وازدادت رحلات العرب التجارية إلى الصين[3]. وعرف هذا الطريق باسم (طريق الحرير البحري)[4]. ويصف ذلك الطريق جيانغ زيمين رئيس جمهورية الصين

(1) حسن: يوسف فضل: الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر: مجلة الدارة، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد الثالث: السنة الثامنة، ربيع ثاني وجمادي الاولى والآخرة، 1403هـ. 1983م، ص111.110؛ انظر: القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص31.30؛ سيدة كاشف البحر الأحمر والفتح العربي بمصر، ص102101.

(2) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973م، ص124.

(3) نعيم زكي فهمي، ص162161، وانظر العبيدي: عبدالعزيز بن راشد، التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك، رسالة ماجستير، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، 1400هـ. 1980م، الرياض، ص126.

(4) علي لي تشين تشونغ: آثار العرب ومآثرهم في الصين عبر التاريخ، المجلة العربية للثقافة، السنة التاسعة عشرة. العدد الثامن والثلاثون، ذو الحجة، 1420هـ. مارس (آذار) 2000م، ص152.

الشعبية الحالي في محاضرة له في مدينة الرياض عن مدى العلاقة بين العرب والصين قائلاً: (هنا قول مشهور للنبي محمد «صلى الله عليه وآله وسلم» «اطلب العلم ولو في الصين»[1]، إن الشعبين الصيني والعربي ظلا يتبادلان التعليم منذ القدم وترجع علاقات الصداقة بينهما إلى عصور قديمة، حيث يربطنا طريق الحرير القديم كرابطة الصداقة كما وصلت السفن التجارية الصينية إلى ميناء جُدة في وقت يرجع إلى ما قبل أكثر من ألف سنة وقاد تشنغ خه في عصر أسرة مينع الملكية في الصين أسطولاً بحرياً إلى ما يسمى بالمحيط الغربي آنذاك سبع مرات وزار في طريقه ميناء جُدة ومدينة مكة...)[2]. ومنذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر الميلادي «القرن السابع الهجري» بعد الغزو المغولي لبلاد المسلمين تعطل الطريق التجاري البري عبر أواسط آسيا، وأصبح طريق البحر الأحمر أكثر أهمية وإقبالاً وتدفقاً تجارياً[3]. وتزايد عدد التجار العرب إقبالاً على التجارة الشرق آسيوية، واتخذوا من خانفو قاعدة لتبادلهم التجاري وحركتهم التجارية، منطلقين من مراكزهم الأساسية على الخليج العربي، ومن ثم انتقل النشاط إلى البحر الأحمر مباشرة، حيث أصبحت موانئ البحر الأحمر تتصل مباشرة بموانئ الصين، فكانت تنطلق المراكب العربية تحمل المنسوجات الحريرية والكافور والمسك والتوابل[4]. واستوطن كانتون جالية كبيرة من المسلمين من عرب وفرس[5]. وبعد قضاء الصيف في كانتون تؤوب السفن راجعة مع الرياح الموسمية الشمالية الشرقية

(1) يُشار إلى هذا القول بأنه حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وهو حديث لا يصح، والأسلم أن يُشار إليه بقول مأثور؛ أورده ابن الجوزي في كتابه (الموضوعات)، ج1، ص216 وقال عنه: هذا حديث لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(2) جريدة الرياض، العدد 114544، الأربعاء 25 رجب 1420هـ، 3 نوفمبر 1999م (كانت كلمة الرئيس الصيني من محاضرة ألقاها في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض أثناء زيارته للمملكة العربية السعودية في أواخر شهر رجب من عام 1420هـ).

(3) فهمي: طرق التجارة الدولية، ص125.

(4) المرجع السابق، ص162.

(5) عبدالعليم: أنور، الملاحة وعلوم البحر عند العرب، ص72.

إلى مضيق ملقا وتعبر خليج البنغال ومن كولم إلى عُمان[1].

وبقيت سفن التجارة الشرقية من الصين والهند وبلاد العرب تقطع هذا الطريق قروناً طويلة حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي (أوائل القرن العاشر الهجري)، وبعد سيطرة البرتغال على السواحل العربية الإفريقية والأسيوية تمكنوا من القضاء على الملاحة والتجارة العربية، وفُقدت السفن العربية، وبخاصة بعد عام 1517م (923هـ)[2].

وامتداداً لهذا الطريق البحري عبر البحر الأحمر كانت هناك عدة طرق من الناحية الإفريقية، فقد كان طريق عيذاب على ساحل البحر الأحمر الأفريقي يصل إلى قوص ومنها إلى فندق الكارم بالفسطاط في بحر النيل، وكذلك طريق القصير في جهة الشمال من عيذاب، وكانت تصل إليه بعض المراكب لقربه من قوص ومنها تنقل البضائع إلى قوص ثم فندق الكارم بالفسطاط ثم في بحر النيل إلى موانئ البحر المتوسط (الإسكندرية ورشيد ودمياط)، وطريق ثالث يعرف بطريق الطور وهو ساحل جانب الرأس الداخل في بحر القلزم بين عقبة أيلة، وبين بَرّ الأراضي المصرية، ومال إليه أصحاب السفن لقربه من بر الحجاز، وكثرة المراسي فيه. وطريق رابع هو طريق السويس بالقرب من

(1) المرجع السابق، ص73.

(ولعل من أهم الصادرات والواردات عبر هذا الطريق المتبادلة بين العرب وأهل الصين "اللؤلؤ القطري الجيد الذي يقع ناحية الشحر والعقيق اليمني، والجزع التِشْب اليمني، وحجارة المسنّ وتقع بالحجاز ناحية خيبر، واللبان من بلاد الشحر وحضرموت، واللك، والكندر، والصمغ العربي من شجر الطلح، والمقل باليمن، والسنان (التمر الهندي)، والصبر من جزيرة سوقطرة اليمنية، والقسطل، والورس، وشجر اللبان من الحجاز، وسكر العشر من اليمامة، والسنا الحرمي من مكة، والحراب من صنعاء، والأردية والعمائم العدنية، والأدم الطائفي، والخيل العراب، والحمر الهماليج من مصر، والثياب الرقاق، والزبرجد. تلك أهم صادرات العرب إلى الصين، ومن واردات الصين إلى بلاد العرب، الحرير الصيني، وثياب الكيمخا، والأطلس، والغضار (الخزف)، والفرند،والمسك من»التبت" والسروج، والسّمّور، ← ←والعود، والدارصيني (القرفة) والخولنجان، والذهب، والأبنوس، والكافور، والجوزبوّا، والقاقلة (الهيل)، والنارجيل، والياقوت بألوانه، والألماس، والرصاص القلعي، واللبود، والكاغد، والمداد، والطواويس، ومهندسو الماء، وعلماء الحراثة، والاكّارة، وبناة الرخام).

انظر: محمد حُوَّر: العرب والصين تاريخ فن وروابط، المجلة العربية للثقافة، ص100.97.

(2) فهمي: طرق التجارة الدولية، ص177.

بلدة القلزم الخربة، وهو بالتالي أقرب السواحل إلى القاهرة والفسطاط[1].

وأصبحت بذلك منطقة الحجاز بموانئها ومدنها المقدسة مُستقطب التجارة الشرقية، وأصبحت مكة والمدينة أسواقاً تجارية، وكذلك أصبح موسم الحج موسماً تجارياً كبيراً للمسلمين، واهتم الخلفاء الراشدون بموانئ البحر الأحمر الحجازية كالجار وجُدة في عهدي عمر وعثمان رضي الله عنهما كما سبق توضيحه وبيانه. ومن الموانئ الحجازية اتخذت السفن طريقها إلى مصر واليمن، كما استقبلت هذه الموانئ سفناً تجارية من الحبشة والهند والصين إضافة إلى مصر[2]، على مدى الفترات التاريخية الإسلامية. فانطلاقاً من العقبة (أيلة التي أَمّن المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم تجارتها في البحر الأحمر، فالصادق المصدوق عرف قيمة هذا الثغر الاستراتيجي والاقتصادي باعتباره حلقة وصل ورابط بين الشام والديار المصرية من جهة والحجاز من الجهة الأخرى وأحد الموانئ الهامة في مجال تجارة البحر الأحمر والملاحة فيه. وبقيت أيلة ممراً ملاحياً يرتبط بالقلزم وعن طريقه تأتي السلع المصرية في العهدين الأموي والعباسي، حتى زاد ثراء أهلها، مما دفع بخلفاء بني أمية لزيادة الجزية على أهل الذمة فيها، حتى عهد عمر بن عبدالعزيز الذي أبطل الزيادة وأبقاها كما كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وتواصل دور العقبة (أيلة) التجاري في العهد العباسي والفاطمي «العبيدي» وازدهرت كثيراً في العهد الفاطمي «العبيدي» فقد كانت تُجلب لها السلع الشامية لتصديرها إلى مصر وإلى داخل الحجاز والجنوب العربي وأفريقيا والهند والصين، فبنى فيها الفاطميون ديواناً للمكوس، بهدف أخذ المكوس على السلع الصادرة والواردة إلى ميناء العقبة. وفي سنة 510هـ (1116م) احتل الصليبيون أيلة لضعف

(1) اليوزبكي: توفيق، تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي، مؤسسة دار الكتب، جامعة الموصل، 1395هـ. 1975م، ص78.

(2) السليمان: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية، ص98.

الحامية الفاطمية فيها، وبذلك أصبح الصليبيون على ساحل البحر الأحمر وسيطروا على ثغر تجاري هام تفد إليه التجارات المختلفة، وأصبح الاحتلال الصليبي مصدر خطر وتهديد لتجارة البحر الأحمر وموانئ الحجاز، حتى حررتها الجيوش الأيوبية عام 566هـ، ولكن الأطماع الصليبية ما انقطعت في السيطرة على تجارة البحر الأحمر، إضافة إلى أهدافهم الأخرى، فكانت محاولة أرناط الصليبي لغزو الحجاز والسيطرة على البحر الأحمر، فمن بين أهدافه السيطرة على تجارة البحر الأحمر باحتلال اليمن، وخضوع البحر الأحمر لنفوذه، وتحويل تجارته إلى العقبة وبالتالي إلى ممالك الصليبيين في الشام، فقد كان من بين أهدافه إنهاك صلاح الدين الأيوبي اقتصادياً مما يعني إنهاكه عسكرياً، لكن الله قيض للجيوش الأيوبية القضاء على أرناط ورجاله بأشد عقاب. وفي العهد المملوكي ازدهرت أيلة «العقبة» تجارياً، وكان ثغر أيلة ولاية تتبع نيابة السلطنة في القاهرة، واهتم المماليك بميناء العقبة وبنوا فيه رصيفاً لرسو السفن التجارية، كذلك ربطت العقبة بخط ملاحي بباقي موانئ الحجاز لنقل الحجاج الشاميين بحراً، وأقام المماليك ديواناً للمكوس، وازدهرت المدينة في عهدهم، وكذلك الحال في دولة المماليك الجراكسة، فقد جدد قانصوه الغوري رصيف العقبة البحري وحصنها، فأعاد ترميم وتجديد قلعتها خاصة بعد ظهور البرتغاليين(1).

وأما الجار فهو فرضة المدينة، وتأتيه السفن من أرض الحبشة ومصر ومن البحرين والصين، ووصفت بالعمران وكثرة التجارة والأموال في القرن الرابع الهجري، ويصفها ابن المجاور في القرن السابع الهجري بأن المراكب الواردة من الديار المصرية ترسو فيها(2)، مما يبين استمرار دور هذا الميناء رغم بروز دور ميناء ينبع في القرن السابع الهجري، وكان قد ازدهر الجار في القرون الأولى من

(1) غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، سبق ذكره، ص55.32.
(2) تأريخ المستبصر، سبق ذكره، ص50.

العهد الراشدي إلى العهد العباسي وتواصل دوره إلى حد ما في العهد الفاطمي، أما في العهد الأيوبي فقد برز دور ميناء ينبع منذ عام 621هـ باتخاذ الأيوبيين له ميناءً رئيسياً للمدينة، فاشتروه من الأشراف الحسنيين أهل ينبع النخل بأربعة آلاف مثقال وأقاموا فيه بعض الإنشاءات[1]. وساهم هذا الميناء في تجارة البحر الاحمر، حيث ترد إليه السفن بالغلال كل سنة، وتقدر قيمة تجارته كل عام بحوالي 30.000دينار[2]. وبلغت ينبع أوج ازدهارها زمن سلاطين المماليك الجراكسة نتيجة الاصطلاحات الكثيرة التي أُدخلت على طريق الحج، مما أدى إلى تدفق الحجاج، فكانت ينبع محطة برية وبحرية في آن واحد لحجاج مصر والشام، وقامت بدور تجاري هام زمن المماليك، وأصبحت ينبع الميناء الثاني في الحجاز بعد جُدة إلا أن الصراعات السياسية بين المماليك والأشراف في ينبع ساهمت في الحد من دور ينبع خاصة السنوات الأخيرة من حكم المماليك في القرن العاشر الهجري[3].

أما جُدة فهي الميناء الرئيسي في الحجاز، وميناء مكة المباشر منذ اتخذه الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ميناءً لمكة حتى الوقت الحاضر وأصبحت جُدة من أكبر موانئ الشرق[4]. فهو المنفذ التجاري الذي يزود مكة بما تحتاجه، بل معظم مناطق الجزيرة العربية من مواد غذائية وموارد اقتصادية يضاف إلى دوره الرئيسي كميناء لحجاج بيت الله الحرام القاصدين مكة المكرمة[5]. وتواصل دور ميناء جُدة في نمو مطرد في العصور الإسلامية المختلفة، وعاشت جُدة في العصر الفاطمي والأيوبي فترة مزدهرة رغم أحداث الغزو الصليبي لبلاد المسلمين حتى أصبحت في العهد الأيوبي مركزاً

(1) حمد الجاسر: بلاد ينبع، ص49.
(2) فهمي: نعيم زكي، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص140.
(3) السليمان: علي حسين: العلاقات الحجازية المصرية، ص190. 191.
(4) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص193.
(5) الرويثي: التطور المكاني والتاريخي لموانئ شبة الجزيرة العربية، ص112.

هاماً من مراكز تجارة الشرق، فكان ميناء جُدة يستقبل الحجاج القادمين بطريق البحر فتزدهر أسواق جُدة في موسم الحج كما أن التجار القادمين من بلاد الأندلس والمغرب إذا لم يتوفر لهم نجاحٌ في مصر والشام توجهوا بتجارتهم إلى جُدة ووجدوا فيها السوق الرائجة لتجارتهم[1]. وتواصل نمو جُدة وكثرت تجارتها في العصر المملوكي، مما جعل سلاطين المماليك وأمراء مكة من الأشراف يدخلون في عدة صراعات بسبب عشور ومكوس هذا الميناء، وتغيرت لغة المؤرخين عن جُدة في القرن التاسع، وأصبحوا يصفونها بأنها من أعظم المدن وربما يردها في كل سنة ما يزيد على 100 مركب، فأصبحت مركزاً تجارياً هاماً، وخاصة بعد تحول البواخر من ميناء عدن إلى جُدة. ولم يفطن المماليك لثراء هذا الميناء حتى الربع الأول من القرن التاسع، فقرروا مشاركة أمير مكة في العشور التي كان يدفعها التجار بجُدة فاتخذ السلطان المملوكي برسباي قرارات منها مشاركة أمير مكة في المتحصل من أموال العشور، كما نظم السلطان طريقة أخذ عشور التجارة بجُدة فعين إضافة إلى نائب الشريف بجُدة موظفاً لتحصيل العشور يسمى (شاد جُدة)، وكذلك يشاركه في جمع العشور والمرتبات القباني والصيرفي والشهود المتواجدون في جُدة إبان وصول السفن الهندية والصينية، فاتبع سلاطين المماليك منذ ذلك الحين سياسة احتكارية تقوم على إجبار التجار على بيع بعض سلعهم بأسعار منخفضة على وكلاء السلطان ثم يقومون ببيعها بأسعار أعلى كثيراً، وبقى الحال على هذا الأمر حتى نهاية الدولة المملوكية. لكن ظهور البرتغاليين في المحيط الهندي وجنوب البحر الأحمر ترك أثراً واضحاً على تجارة جُدة، حيث حولت التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح[2].

(1) حسنين محمد ربيع: البحر الأحمر في العصر ال أيوبي، ص120.
(2) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص202193.

أما عن الشعيبة فكما سبق الحديث عنها في الفصل السابق انحصر دورها فيما قبل الإسلام وبعد البعثة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام.

وأما السرين فلم يظهر لها نشاط تجاري بارز في القرون الإسلامية المبكرة، حيث يصفها ابن حوقل في القرن الثالث بقوله: (وصاحب السرين فالواصل إليه كفاء ما يقوم به وبأهله، وليست بحال تُذكر، وله على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن رسم يأخذه من الرقيق والمتاع الوارد من التجار)[1]. إلا أن موقعها على الطريق البري والبحري بين اليمن والحجاز ساهم في انتعاشها، وجعلها تسهم في حركة التجارة في البحر الأحمر من وإلى الحجاز وما جاورها، فساهمت في توريد وتسويق منتجات السروات وسهول تهامة من أنواع الحبوب والتمور والعسل والسمن والزيوت والجلود وغيرها، وكذا ما يأتي من موانئ الحبشة من الرقيق والمتاع. وكان نموها التجاري متدرجاً من محطة من محطات طريق الحج إلى مكة إلى أن بلغت قمة ازدهارها التجاري في القرنين الخامس والسادس الهجريين.[2] ويصفها الإدريسي بأنها (حصن حصين حسن موضعه كثيرة مياهه ولواليه وجابيه شيء معلوم ورسم ملزوم على المراكب الصاعدة والنازلة من اليمن بالتجارات والمتاع والرقيق، وجباياته المحصلة يصل نصفها إلى صاحب تهامة ونصفها الثاني إلى الهاشمي بمكة)[3] ويصفها الحميري بأنها (مدينة عظيمة في طريق مكة من اليمن بمقربة من يلملم وفيها أسواق ومسجد جامع، وسورها في البحر..)[4]. والمورد الرئيسي لأهل السرين التجارة كاستيراد الميرة والمتاع والرقيق وتصديره، وقد اشتهرت السرين بوجود مغاصات اللؤلؤ حتى عد من أشهر الأماكن في البحر الأحمر، لذا يرجح وجود

(1) صورة الارض، ج1، ص25.
(2) الزيلعي: أحمد، ميناء السرين، سبق ذكره، ص189.188، وانظر الفقيه: مدينة السرين، ص50.49.
(3) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص138.
(4) الروض المعطار في خبر الأقطار: ص312.

حركة تجارية لاستخراج وتصدير اللؤلؤ السريني الذي احتل مكانة كبيرة بكبر حجمه مثل اللؤلؤ العماني(1).

وأصبح البحر الأحمر أو «بحر الحجاز» كما كان يطلق عليه مؤرخو العصور الوسطى(2). بحيرة إسلامية خالصة، وقد منع الحكام المسلمون دخول غير المسلمين إلى هذا البحر(3). واهتمت الدول الإسلامية المتعاقبة على الحجاز ومصر بتجارة البحر الأحمر الذي عاد عليها بازدهار اقتصادي كبير، وكما سبق الحديث عن عهد الراشدين واهتمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه بميناء الجار وجلب المؤن من مصر إلى الحجاز، كذلك الحال بالنسبة للأمويين، فقد ازدهرت تجارة البحر الأحمر في عهدهم، وخاصة التجارة الشرقية، فعملوا على إنشاء المحطات التجارية على الساحل الشرقي لإفريقية لتأمين مسار هذه التجارة(4). إلا أن تجارة البحر الأحمر أظهرت تراجعاً واضحاً خلال العصر العباسي الأول ومال العباسيون لاتخاذ الخليج العربي طريقاً تجارياً لهم لجلب تجارة الشرق إلى عاصمتهم، كما أن ثورة محمد ذو النفس الزكية في الحجاز قد أدت إلى إجراءات المنصور القاضية بردم خليج أمير المؤمنين بين النيل والبحر الأحمر، وإغلاق ميناء الجار. وانحصر الإبحار في البحر الأحمر على عدد محدود من السفن الصغيرة تقوم بنقل البضائع الشرقية من عدن إلى مصر(5).

إلا أن البحر الأحمر استمر طريقاً للتجارة الشرقية خاصة في العصر العباسي الثاني، وظهر ما عُرف بالتجار اليهود «الرازانية» أو «الراذانية» أو

(1) الفقيه: مدينة السرين، ص80.
(2) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، مصدر سبق ذكره، ج3، ص140.134؛ انظر حسنين ربيع: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ص105.
(3) حسنين ربيع: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ص105.
(4) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص25، وانظر السيد عبدالعزيز السالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، 1993م، ص13.
(5) القوصي: المرجع السابق، ص47.46؛ السالم، المرجع السابق، ص14.13.

«الرادانية» ويرجح (لومبارد) أن كلمة الرادانية قد اشتقت من نهر رادانو أي نهر الرون[1].

والذين تحدث عن خط سيرهم التجاري الجغرافي ابن خرداذبة المتوفى في حدود سنة «300هـ» قائلاً: «الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية، وإنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق براً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان، والديباج، وجلود الخز، والفراء، والسمور، والسيوف، ويركبون من فِنحْه في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة، ثم يمضون إلى السند والهند والصين، فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدار صيني وغير ذلك...»[2].

وقد استقر بعض تجار أهل الذمة في الحجاز وأصبحوا حلقة وصل ووسطاء للتجار المتجولين واشتغلوا بالصيرفة، وكره الأمام مالك رحمه الله التعامل التجاري لأهل الحجاز مع هؤلاء التجار خشية تحكمهم بالأسواق ولتعاملهم بالربا واستحلالهم له[3].

وكانت ثورة الزنج في جنوب العراق، وثورة القرامطة في البحرين من العوامل التي عطلت التجارة عبر الخليج العربي في العصر العباسي الثاني، وساهمت في

---

(1) موريس: الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة عبدالرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق، ص276.

(2) المسالك والممالك، ص153؛ جورج حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص227؛ القوصي، ص33.32.

(3) المدونة الكبرى، دار صادر، بيروت، ج4، ص271.270.؛ انظر آل سويلم: ابتسام بنت عبد المحسن، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، جامعة الملك سعود، كلية الآداب، قسم التاريخ، 1404هـ . 1984م، ص25.24. وقد سبقت الإشارة في الفصل الأول إلى موقف الإمام الشافعي المشابه لموقف الإمام مالك رحمهما الله.

عودة النشاط التجاري المزدهر عبر البحر الأحمر[1].

وظهر دور حكومات مصر جلياً في الإشراف على تجارة البحر الأحمر منذ سيطرة الطولونيين على مقاليد الأمور في مصر من عام (254هـ)، حتى انهيار دولة المماليك وسيطرة البرتغاليين على تجارة المحيط الهندي في القرن العاشر الهجري.

فاهتم أحمد بن طولون بالنشاط الاقتصادي في مصر، وأعد أسطولاً كبيراً لحماية السفن التجارية من قراصنة البحر، فعادت هذه السياسة عليهم بمكاسب كبيرة، وفرضوا الضرائب على التجارة الداخلية والخارجية، وازدهرت الأوضاع في مصر اقتصادياً بسبب التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر، وتمثل ذلك في العملة القوية للطولونيين، وما ظهر في جهاز زفاف ابنة خمارويه من الثراء الكبير والنفقة الباهظة[2]. واستمرت تجارة البحر الأحمر تساهم في ازدهار الأوضاع الاقتصادية في مصر في عصر الإخشيديين (323 . 358هـ)، الذين واصلوا سياسة الطولونيين وازداد توسع نشاط التجار العرب والفرس واليهود زمن الإخشيديين وامتلأت أسواق الفسطاط بالسلع الشرقية وخاصة العنبر[3]. وحل العهد الفاطمي «العبيدي» (567.358هـ) الذي ازدهرت فيه التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر، وتمتع اليهود بمكانة كبيرة لدى العبيديين، بل يذكر لومبارد أن القائد الفاطمي المشهور جوهر الصقلي يهودي الأصل من إيطاليا الجنوبية، وكذلك يعقوب بن كلس وزير العزيز الفاطمي، والتشتري خلال الوصاية على المستنصر، والوزير بن نغريلة اليهودي في الأندلس، مشيراً إلى الطعن في نسب الفاطميين أنفسهم، حيث يذكر أنهم ينحدرون من أصل يهودي[4].

(1) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص58.56؛ السالم، البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، ص16.
(2) القوصي: المرجع السابق، ص71.69؛ السالم، المرجع السابق، ص17.
(3) القوصي: المرجع السابق، ص79؛ السالم، المرجع السابق، ص18.
(4) موريس: الجغرافيا التاريخية، سبق ذكره، ص278.

ومما يؤكد على ازدهار التجارة الشرقية عبر البحر الأحمر ما ورد من خطابات ومراسلات في وثائق الجنيزة التي عُثر عليها في سيناجوج معبد اليهود بالفسطاط بالقرب من القاهرة سنة 1890،1889م، ومجموعة أخرى في مقبرة البساتين بالقرب من القاهرة في سنة 1897، ونقلت معظم هذه الوثائق إلى مكتبات أوروبا وأمريكا، واشتملت على وثائق قانونية وخطابات، ومراسلات، وقوائم حسابات، وسجلات قضائية، وعقود إيجارات، ومقايضة، ومشاركة، واستبدال، ووصايا وهبات، وعتق وفتاوي، وتعاويذ سحرية، وأجزاء من كتب عربية وعبرية، وكتب معظم هذه الوثائق بالعربية وبحروف عبرية[1].

مع العلم أن غالبية هذه الوثائق المتعلقة بتجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي عبارة عن خطابات بُعثت من عدن وجدة وغيرهما من موانئ البحر الأحمر، وكذلك من موانئ الهند إلى مدينة الفسطاط بمصر، ورسائل متبادلة بين موانئ البحر الأحمر[2].

وتمثلت التجارة الشرقية التي تحدثت عنها وثائق الجنيزة فيما عُرف بتجارة الكارم أو الكارمية، وهم مجموعة من كبار التجار عملوا في تجارة الهند والشرق الأقصى في التوابل وغيرها انطلاقاً من المحيط الهندي، وقد اختلف في أصل مسمى الكارمية، ونشأتهم أيضاً، فمن الباحثين من يشير إلى أن اسم الكارم اشتق من الكانم وهي منطقة من السودان الغربي تقع بين بحر الغزال وبحيرة تشاد، فانتشر اسم الكارم بين المتداولين لتجارة التوابل، ومنهم من يشير إلى أن مجموعة من هؤلاء التجار عرفوا باسم التكرور نسبة إلى مملكة التكرور الواقعة شرقي مالي، ومن التكرور أطلق اسم الدكرور على ميناء بولاق النيلي، فعرفت ببولاق الدكرور نسبة التكرور الذين كانت تصل بضائعهم من قوص

(1) حسنين محمد ربيع: البحر الأحمر في العصر ال أيوبي، سبق ذكره، ص113؛ القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص15،14.

(2) حسنين محمد ربيع: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ص114؛ القوصي في تجارة مصر في البحر الأحمر، ص85.

عبر النيل إلى بولاق. ومنهم من يعتقد أن كلمة الكارمية أو الكارم اخذ عن نوع من التوابل هو «الحبهان» ويلفظ في اللغة الأمهرية (كاراريما Kuarari-ma)، ويرجح آخرون أن الكلمة ليست عربية، بل هندية من جنوب الهند بلغة «التامل» فقد ظهرت كلمة «كاريام Karyam» التي تعني في مقطعين «كار بمعنى عمل أو حرفة، ويم بمعنى البحر» أي بمعنى «العمل في تجارة البحر»(1).

إلا أن نشأة هذا النشاط التجاري كانت في العهد العُبيدي الفاطمي(2). ويرى القوصي(3) أن التجار اليهود شاركوا في تجارة الكارم طوال عهد الفاطميين والأيوبيين إلا أن حسنين يعارضه بشدة وينفي اشتراك اليهود والمسيحيين في تجارة الكارم، بل يرى أنها اقتصرت على التجار المسلمين دون سواهم(4). ومع انطلاقة القرن السادس الهجري شاعت كلمة الكارم في بيوت المصريين بالقاهرة(5)، وكما سبقت الإشارة فقد سيطر الكارمية على تجارة البحر الأحمر والمحيط الهندي في مجال تجارة التوابل خاصة وسلعاً أخرى جلبوها من عدن لينقلوها إلى المدن الإيطالية، فكان الفلفل والبهار من أهم سلعهم، وهما من أهم المطالب التجارية في أوروبا، وكذلك الحاصلات الزراعية والملبوسات والحرير الخام، والخشب، والرقيق، والسكر، والأسلحة، وأدوات الزينة، وبقيت التوابل تمثل الصدارة في تجارة الكارمية مثل القرفة والقرنفل والخلنجان

(1) القوصي: ص103.101؛ انظر السالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، ص31.30.
(2) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص93.91.
(3) المرجع السابق، ص92، ص99، ص100، ص175.173.
(4) البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ص115. كما أن نعيم زكي فهمي: يؤيد وبقوة رأي محمد ربيع حسنين مؤكداً أن (طائفة الكارمية كانت هيئة متماسكة جعلت من الإسلام أساس وحدتها وعصبيتها فلم يوجد بين الكارمية أي يهودي، وإن لم يمنع قبولهم للتاجر اليهودي الذي يعتنق الإسلام ويتوارثه عنه أبناؤه كما يتوارثون التجارة، وليس أدل على ذلك من أن فنادقهم كان بها مساجد تحمل أسماؤهم وينفقون عليها من جهدهم الخاص) طرق التجارة الدولية، ص309.
وينقل السيد عبدالعزيز السالم في كتابه البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي رأي صبحي لبيب في دراسته «التجارة الكارمية” ما يؤيد الرأي السابق لفهمي وحسنين من أن الكارمية طائفة إسلامية ومن دخل معهم من اليهود اعتنق الإسلام، ص34.33.
(5) القوصي: المرجع السابق، ص97.

والزنجبيل، والراوند والكافور، والعود الهندي وحب الهال «الحبهان» وجوزة الطيب والزعفران، وكذلك من العطور البخور وعود الند والمسك وخشب الصندل والعنبر واللادن والمصطكى، إضافة إلى العاج والحرير والأحجار الكريمة[1].

ومن مراكز نشاط الكارمية التجارية الهامة في العهد الفاطمي عدن، وعيذاب، والقصير. وحقق الكارمية مكانة كبيرة في العصور الوسطى خاصة في العهود الثلاثة الفاطمي والأيوبي والمملوكي، وشكلوا طبقات اجتماعية بارزة عُرفت بثرائها واتصالها بالسلاطين والحكام، وأسهموا في إقامة المنشآت الدينية والمدنية والعلمية مثل: بناء المساجد والمدارس والأربطة في مصر والحجاز وغيرهما، واشتغل بعضهم بالتدريس والقضاء إضافة إلى التجارة[2] واستمر نشاط الكارمية في العهد الأيوبي، (567. 648هـ) فلعل من بين أهداف صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله) في السيطرة على الحجاز واليمن أهمية موقعهما التجاري في تجارة البحر الأحمر الشرقية، ورغبة في استمرار تجارة الشرق إلى عاصمة بلاده القاهرة[3].

وفي هذا العهد تعرضت موانئ الحجاز بدءًا من أيلة (العقبة) لغزو صليبي تصدت له القوات الأيوبية بكل قوة وعاد البحر الأحمر بحيرة إسلامية كما سبق الحديث عن ذلك في الفصل السابق.

واقتفى خلفاء صلاح الدين أثره في الحفاظ على البحر الأحمر بحراً إسلامياً، وقامت موانئ البحر الأحمر الغربية والشرقية مثل عدن وجدة وعيذاب وأيلة (العقبة) بدور رائد في تجارة الشرق[4].

وفي العهد المملوكي (923.648هـ) تنافس على اغتنام مكاسب التجارة الشرقية

(1) حسنين: البحر الأحمر، ص116؛ القوصي: المرجع السابق، ص103.
(2) حسنين: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، ص116؛ السالم: البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، ص32.
(3) حسنين: البحر الأحمر، ص107.106.
(4) حسنين، المرجع السابق، ص120.111.

عبر البحر الأحمر ثلاث قوى سياسية حكام المماليك في مصر وحكام الحجاز «الأشراف»، وحكام اليمن من الرسوليين ثم الطاهريين، وقد كان يفترض أن يتم التعاون والتنسيق بين هذه القوى لتحقيق التكامل التجاري بينهم إلا أن العكس هو الذي حصل، فقد وقعت عدة صراعات سياسية وعسكرية أدت إلى اضطراب حال التجار وتنقلهم في موانئ البحر الأحمر الغربية والشرقية بحثاً عن الميناء الأكثر أمناً واستقراراً، فمن هروب من عدن إلى جدة إلى ينبع إلى عيذاب[1]. لكن بقيت جدة عاصمة التجارة الشرقية بلا منازع طيلة العهد المملوكي حتى اختفت بجوارها الموانئ الأخرى، بل انتهت تماماً مثل عيذاب والقصير[2]. وللحفاظ على طريق البحر الأحمر وخاصة من بعد محاولة الصليبيين غزو الحجاز مُنع دخول الفرنج للبحر الأحمر حماية للأراضي المقدسة في الحجاز، وخشية من القضاء على تجارة المسلمين عبر البحر الأحمر، وأيضاً خشية من قيام تحالف مسيحي بين الحبشة، وأوروبا، إلا أن حكام مصر وفي فترات معينة سمحوا للإيطاليين بعبور البحر الأحمر بإذن خاص، إلا أنه اكتشف وجود تحالف بين ملك الحبشة إسحاق والفونسو الخامس ملك أراجون للقيام بحملة صليبية عام 832هـ، فأغلق البحر الأحمر في وجه الأوربيين، إلا أن محاولات الأوروبيين لدخول البحر الأحمر لم تنقطع حتى قدوم الغزو البرتغالي في القرن العاشر الهجري[3].

أما عن التجارة الكارمية فقد تأثرت كثيراً في عهد المماليك الجراكسة للسياسة الاحتكارية التي اتبعها سلاطين المماليك الجراكسة (784. 923هـ) وأجبروا أشراف مكة على إشراكهم في المكوس بميناء جدة مما لم يسبق له مثيل في علاقة حكام مصر بحكام الحجاز، بل استولى السلطان برسباي على مكوس

(1) محمد أمين صالح: تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، (البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة)، جامعة عين شمس، القاهرة، 1980، ص160.

(2) المرجع السابق، ص165.

(3) محمد أمين صالح: تجارة البحر الأحمر، ص167.

جدة، حتى أصبحت جدة تابعة للسلطان، فضيق على التجار وأمراء مكة وألزم التجار بعدم السفر إلى الشام مباشرة قبل المرور على مصر لتحصيل المكس من الجميع، وضاق الجميع بهذه الإجراءات داخل السلطنة المملوكية وخارجها، وأدى ذلك إلى ارتفاع أسعار التوابل وكافة السلع الشرقية، واحتكر السلطان التجارة الشرقية وسار على نهجه كبار رجال الدولة، فاحتكروا لأنفسهم سلعاً واشتروا أخرى وضج حتى تجار الغرب من هذه الاحتكارات الجائرة، وتوالت الاحتكارات حتى وصلت قمة قسوتها في عهد الغوري (922.907هـ) واستولى حسين الكردي نائب المماليك على جدة على عشرة أمثال العشر أي ما يعادل قيمة السلعة نفسها[1]. ونتج عن كل ذلك انهيار التجارة الكارمية ثم انهيارهم أيضاً كطبقة اجتماعية بارزة[2].

وكما كانت نهاية الكارمية تجارياً على يد المماليك الجراكسة كانت نهاية دولة المماليك تجارياً على يد البرتغاليين الصليبيين، فبدافع صليبي؛ ودافع تجاري للبحث عن أماكن التوابل كان اهتمام البرتغاليين بالكشوف الجغرافية في الشرق، وقد قام الأمير البرتغالي هنري الملاح برحلة طاف بها رأس باجادور عام 1434م (838هـ) وفي عام 1445م (849هـ) أثمر تجوالهم عن اكتشاف الرأس الأخضر، وتواصل البحث بمحاذاة الساحل الإفريقي جنوباً، ففي عام 1471م (876هـ) مر البرتغاليون بخط الاستواء، وفي عام 1487م (893هـ) وصلت رحلة برتغالية إلى أقصى الطرف الجنوبي وسماها ملك البرتغال «رأس الرجاء الصالح» استبشاراً بمستقبل هذا الطريق المكتشف، وفي عام 1497م (903هـ) تحركت رحلة فاسكو دي جاما متجهةً إلى الهند الغربية، وفي عام (1498م)

(1) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص168.165، ص202.201؛ الزهراني: عائض محمد عائض: الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان، رسالة ماجستير، جامعة الملك عبدالعزيز، كلية الآداب، قسم التاريخ، عام 1413.1412هـ، ص223.211.

(2) محمد أمين صالح: تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، ص175.

(904هـ) تحول طريق التجارة عبر المحيطات مهملاً طريق البحر الأحمر[1].

وتزايد نشاط البرتغاليين التجاري في الهند، وسيطروا على تجارة التوابل، ففي سنة 1502م (908هـ) عادت سفن بيروت بأربع بالات من الفلفل، ولم تجد السفن في الإسكندرية ما تحمله، ولم تعد ترى السفن إلا مرة كل عامين، وواصل البرتغاليون استمالة الأوروبيين المتعاملين تجارياً مع المماليك كالبندقية وباقي الإيطاليين، وعملوا من جهة أخرى على تدمير الأساطيل التجارية للمسلمين من الأمراء الهنود، وترصدوا لسفن المسلمين عند مدخل البحر الأحمر، فما كان من السلطان الغوري وبعد عدة محاولات لاستمالة الأوروبيين «البنادقة» لعودة التجارة مع المماليك كسابق عهدها إلا أن أعد أسطولاً حربياً بقيادة حسين الكردي الذي وصل إلى جوجيرات عام 1507م (913هـ)، فباغت الأسطول البرتغالي وهزمه عند شول[2] عام 1508م (914هـ) إلا أن البرتغاليين انتقموا لهزيمتهم بهزيمة الأسطول المملوكي وتدمير معظم سفنه عام 1509م (915هـ)، وانسحب حسين الكردي وتأثر السلطان المملوكي، وازداد طغيان البرتغاليين فترصدوا السفن العربية والمملوكية على مدخل البحر الأحمر ومدخل الخليج العربي، واستولوا على حمولاتها، وانحصر دور المماليك في الدفاع عن البحر الأحمر، بل والدفاع عن جدة فقط بعد هزيمة ديو[3]، وبقى الأمر في مناوشات حتى مقتل السلطان الغوري على يد السلطان العثماني سليم الأول عام 1516م (922هـ) ومقتل الكردي في بحر جدة غرقاً على يد أمير مكة من نفس العام، بأمرٍ من السلطان العثماني[4].

(1) السليمان: علي حسين: النشاط التجاري في شبه الجزيرة العربية، ص281.280.

(2) شول: ميناء صغير تابع لمملكة الدكن، ويقع جنوب سلطنة كوجران، بالقرب من الساحل الغربي للهند.

(3) ديو: ميناء على خليج ديو على ساحل بحر العرب في إقليم جوجيرات الذي يقع في الركن الشمالي الغربي للساحل الغربي للهند. انظر: نعيم زكي: طرق التجارة، ص171.

(4) فهمي: نعيم زكي: المرجع السابق، ص110.71؛ محمد طه صلاح بكري: الحجاز، (923.859هـ)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، كلية الشريعة، عام 1410هـ. 1990م، ص164.162.

ب). صناعة السفن وأنواعها بالبحر الأحمر

1) نشأة صناعة السفن عند المسلمين:

قال الله تعالى: ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾[3].

وورد في كتاب الله عز وجل مسميات أخرى للسفينة كالفلك وذات الألواح والدسر والجوار، والجارية، والجاريات، والسابحات في مواضع متعددة. إن إيراد هذه الأسماء للسفن في كتاب الله ومخاطبة العرب بها دليل على معرفتهم بها واستخدامهم لها في سفراتهم وتجاراتهم وهي من فضل الله على خلقه، حيث عرفهم حكمة عمل السفن التي تجري على الماء حتى يستفاد من البحار في النقل والصيد واستخراج المعادن النافعة لهم وغيرها من كنوز البحار وما أودع الله فيها من عجائب خلقه.

وبعد الفتوحات الإسلامية وسيطرة المسلمين على أمم العجم، أصبح تحت أيديهم كل صاحب صنعة، واستخدموا ربابنة لحاجاتهم البحرية، فنقلوا بذلك صناعة السفن عن الأمم الأخرى، إلا أن هذا الأمر اقتصر على السفن الحربية والأساطيل العسكرية، أما صناعة السفن المدنية التجارية فقد ظهرت في بلاد العرب لأبناء السواحل العربية في الخليج العربي وبحر العرب والبحر الأحمر قبل الإسلام، ولعل الشاهد الكبير على ذلك هو الهجرة إلى الحبشة وكذلك الصلات التجارية بين أهل اليمن وأهل الخليج العربي من جهة وأهل الصين

---

(1) سورة الكهف، آية (71).
(2) سورة الكهف، آية (79).
(3) سورة العنكبوت، آية (15).

والهند من جهة أخرى[1]. ولكن هناك من يذكر أن صناعة السفن انتقلت إلى بلاد العرب عن طريق المحيط الهندي أي من بلاد الهند لما يتوفر فيها من أخشاب لا تتوفر في بلاد العرب، ولأنها المصدر الأول لأخشاب صناعة السفن، فكانت تلك الأخشاب من أهم واردات مدن السواحل في شبة الجزيرة العربية[2].

وقد أُنشئت في مصر أول دار لصناعة السفن في التاريخ الإسلامي عام 54هـ/674م، وكان مقرها جزيرة الروضة فسميت «صناعة الروضة» في عهد الخليفة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه[3]، ثم توالى إنشاء دور لصناعة السفن في مدن عدة من البلاد الإسلامية في المشرق والمغرب، مثل بلاد الشام وبلاد المغرب وبلاد الأندلس[4]. كما ظهرت أيضاً صناعة السفن في موانئ الحجاز، ففي جدة صُنعت السفن ذوات الشرع وذوات المجاديف وكذلك السواعي الكبيرة والصغيرة، ويطلق على مصنع السفن «القودي» أي الذي تُبنى فيه المراكب الكبيرة[5].

كما عُرفت صناعة المراكب في العقبة، واستثمرت أخشاب جبال الشراة ومؤاب من أجل ذلك[6]. ومن بين الحرف التي مارسها أهالي السرين بناء المراكب البحرية كالفلوكات والهواري والسنابيك[7]. وانتشرت في ينبع صناعة السفن الشراعية بمختلف الأحجام بأخشاب مستوردة، وأخرى محلية تُجلب من منطقة بواط والأجرد بمنطقة ينبع[8].

(1) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، بحث في دورية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ. 1994م، ص137.136.
(2) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص253.252؛ الشامي: المرجع السابق، ص143.142.
(3) سعاد ماهر: البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، الطبعة الثانية، دار المجمع العلمي بجدة، 1399هـ. 1979م، ص313.
(4) الحموي: الأسطول العربي: ص24.20.
(5) الأنصاري: جدة، ص457.456.
(6) غوانمة: التاريخ الحضاري لشرقي الاردن، ص114.
(7) الزيلعي: ميناء السرين، ص193؛ الفقيه: مدينة السرين، ص81.
(8) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130.

2) سفن البحر الأحمر:

تميزت سفن البحر الأحمر بأنها سفن خيطية تخاط بالليف، ولا تستخدم فيها المسامير (حتى نهاية القرن التاسع الهجري)، ونقل الرحالة المسلمون أوصافاً لهذه السفن تبين طرق وأساليب بناء هذه السفن في موانئ البحر الأحمر، وخاصة ميناء عيذاب على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر. فيقول الإدريسي (ت 561 أو 562) (ومراكب هذا البحر كلها مؤلفة بالدسر[1] ومخروزة بحبال الليف مجلفطة بدقيق اللبان ودهن كلاب البحر المعد لذلك).[2]

وفي موضع آخر يقول: (وبالقلزم تنشأ السفن السائرة في هذا البحر وإنشاؤها شيء طريف، وذلك أن الكلكل ينبسط على الأرض عريضاً ثم لا يزال اللوح يتركب منه على ما لصق به حتى يتهندم ثم يجوز بحبال الليف والدسر ويوصل بينهما بالجسور الماسكة، فإذا كمل ذلك بأسره جلفط بالشحم المتخذ من دواب البحر ودقاق اللبان، وقيعان مراكبه عراض دون تعميق في تركيبها لتحمل بذلك كثير الوسق ولا تدرس على كبير عمق)[3].

ويصف هذه السفن ابن جبير وصفاً أكثر وضوحاً فيقول : (والجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني[4] ملفقة الإنشاء لا يُستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بأمراس من القنبار وهو قشر جوز النارجيل يدرسونه إلى أن يتخيط ويفتلون منه أمراساً يخيطون بها المراكب ويخللونها بدسر من عيدان النخل، فإذا فرغوا من إنشاء الجلبة على هذه الصفة سقوها بالسمن أو بدهن الخروع أو بدهن القرش، وهو أحسنها وهذا القرش حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى فيه، ومقصدهم في دهان الجلبة ليلين عودها ويرطب لكثرة الشعاب

(1) الدُّسُرِ: خيوط تُشد بها ألواح السفينة، وقيل هي المسامير. قال الله تعالى: {وحملناه على ذات ألواح ودسر} ونقل لها ابن كثير في تفسيره عدة معاني منها المسامير وأضلاع السفينة. والدسر الدفع بقوة. انظر مختار الصحاح للرازي، ص86؛ تفسير ابن كثير، ج4، ص265.

(2) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص137.136.

(3) المصدر السابق، ج1، ص349.348.

(4) البحر الفرعوني: الذي ورد في وصف ابن جبير، والتجيبي يُقصد به البحر الأحمر.

المعترضة في هذا البحر، ولذلك لا يصرفون فيه المركب المسماري. وعود هذا الجلاب مجلوب من الهند واليمن، وكذلك القنبار المذكور، ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شُرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها، فسبحان مسخرها على تلك الحال والمُسلّم فيها لا إله سواه)[1].

ورغم الوهن الذي يشير إليه ابن جبير إلا أن هذه السفن كانت تحمل أعداداً ليست بالقليلة من الحجاج، وكانت تحمل أيضاً الجمال لتباع في أسواق مكة والمدينة خاصة لأشراف مكة فيذكر ابن بطوطة (ت 771 أو 779) أنه ركب من جدة في مركب يسمى الجلبة، وركب الشريف منصور بن أبي نُمي في جلبة أخرى وطلب من ابن بطوطة أن يرافقه لكنه رفض لأن معه في جلبته جمالاً محمولة خاف منها[2]. ويوافق المقريزي في وصفه لسفن البحر الأحمر وصف ابن جبير قائلاً: (وجلباتهم التي تحمل الحجاج في البحر لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما يخيط خشبها بالقنبار وهو متخذ من شجر النارجيل ويخللونها بدسر من عيدان النخل ثم يسقونها بسمن أو دهن الخروع أو دهن القرش وهو حوت عظيم في البحر يبتلع الغرقى، وقلاع هذه الجلاب من خوص شجر المقل)[3].

وقد حاول عدد من المؤرخين القدامى والمحدثين إيجاد تفسير لاستعمال الخيط بدل المسمار في هذه السفن، فهناك من يذكر أن هذه الطريقة الخيطية في بناء السفن مستفادة من الهند التي يستورد منها أخشاب الساج واستخدام الحبال والخشب أكثر من المسامير، لأن المسامير لم تكن قد صنعت بكثرة بعد، ورغم الضعف الذي أشار إليه عدد من المؤرخين والرحالة في هذه

(1) رحلة ابن جبير، ص47،46.
(2) تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار (رحلة ابن بطوطة): تحقيق عبدالهادي التازي، ج2، ص98.
(3) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: ج1، ص203.

السفن إلا أنها عاشت فترة طويلة من الزمن تمخر عباب البحر الأحمر والمحيط الهندي، إلا أنه كان على أهل صناعة هذه السفن صناعة سفن كبيرة كالسفن الصينية لأنها ستكون عرضة لصدمات الرياح والأمواج العاتية، وظهر سبب تغلب عليه المبالغة نقله عدد من المؤرخين عن كاتب هندي يزعم فيه أن سبب الابتعاد عن المسامير في صناعة السفن في البحر الأحمر هو وجود صخور من المغناطيس تجذب السفن المثبتة بالحديد وتغرقها(1)، وحاول المسعودي تقديم سبب آخر بدعوى أن مراكب البحر الحبشي «الأحمر» لا يثبت فيها مسامير الحديد لأن ماء البحر يذيب الحديد، فترق المسامير في البحر فتضعف، لذا اتخذ أهلها الخياطة بالليف بدلاً عن المسامير(2)، ورغم ما يبدو من منطقيته إلا أنه علمياً غير مقبول لأن البحرين المتوسط والأحمر لا يختلفان في درجة الملوحة أو غيرها من الخصائص الكيميائية إلا بنسبة محدودة جداً، كما عُرف أن ألواح خشب الساج الهندي لا تتلف الحديد كما تتلفه ألواح البلوط في البحر المتوسط(3). ويرى حوراني أن هناك سبباً هاماً وهو الغلاء النسبي لبناء سفن الحديد دفع إلى بقاء السفن الخيطية رغم وجود الحديد في مناطق متعددة كالهند وإيران ومصر(4). ويستمر البحث عن الأسباب لهذه الطريقة من بناء السفن فينفرد ابن جبير بأن هذه السفن يتم جلفطتها أي سد ما بين ألواحها بدسر من عيدان النخل، والآخرون يذكرون فقط أن هذه السفن كانت تسد بالقار أو دهن الحوت كما سبق ذكر ذلك في نصوص الرحالة.

ومن الباحثين من يشير إلى أن صناعة سفن البحر الأحمر الخيطية لم

(1) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص255.252؛ سعاد: البحرية في مصر الإسلامية، ص195.194.

(2) حوراني: المرجع السابق، ص256؛ سعاد: المرجع السابق، ص196؛ انظر تفاصيل عن البحر الحبشي: المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص110.105.

(3) حوراني: المرجع السابق، ص257، وسعاد: المرجع السابق، ص196.

(4) العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص258.257؛ عبدالعزيز العبيدي: التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك، رسالة ماجستير، ص287.278.

تظهر من الهند فقط أو من بنات أفكار أهل موانئ البحر الأحمر فقط، بل لعل لها أصولاً مصرية فرعونية مشيراً إلى التشابه الكبير بينها وبين طريقة السفن الفرعونية وخصائصها، فكلاهما يعتمد في تثبيت الألواح على الخيوط أو الحبال وعلى الدسر الخشبية، وكان يطلق الفراعنة على هذا النوع من السفن اسم «كبنت أو كبني» وهو اسم آخر للميناء اللبناني «جبيل» الواقع شمال بيروت بعدة كيلو مترات، ويعود سبب ذلك لاستفادتهم من خشب الأرز الذي يستورد من لبنان، كما ظهر من الآثار الفرعونية رسوم لنجارين يخيطون هذه السفن ومكتوب بجوارهم كلمة هيروغليفية تقرأ «سَبَتْ» وتنتهي بحبل ملفوف وكلمة «سبت» تطلق على السلة في هذه الأيام مما يوحى بالتشابه بين الطريقتين صناعة السلال؛ وصناعة السفن الخيطية، ويؤكد الباحث أن دعوى صناعة السفن الخيطية في مصر الفرعونية لم يكن مجرد استنتاجات، بل ثابتة بالأدلة الأثرية، فقد كشفت بعثة حفائر في عامي 1977.1976 عن موقع ميناء فرعوني في منطقة تسمى «مرسى جواسيس» جنوب سفاجة بـ(22كم)، ووجدت مجموعة من الآثار الحجرية المنقوشة بالكتابات الهيروغليفية عليها نصوص تشير إلى تكاليف ميناء سفن على شاطئ النيل لإرسالها إلى ساحل البحر الأحمر الإفريقي، وكذلك الإشارة إلى بناء هذه السفن أيضاً على ساحل البحر الأحمر ثم إرسالها عبره[1].

وطريقة بناء هذه السفن سواء في البحر الأحمر أو السواحل العربية الأخرى تتمثل في وضع قاعدة المركب فوق عدد من الكتل الخشبية ذات أطوال وارتفاعات متساوية، وتوضع على أرض شاطئ مستوية ليسهل إنزال السفينة إلى البحر بعد صناعتها.

وتتكون القاعدة من خشب الساج أو اللبخ أو السنط لقوة هذه الأخشاب

(1) عبدالمنعم عبدالحليم سيد: الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية في البحر الأحمر، دورية اتحاد المؤرخين العرب، سبق ذكره، ص74.70.

وتجلب عيدان سبق أعدادها وترقيمها فيحفر لها في القاعدة قواعد أو كراسي تعتمد عليها، ثم تثبت هذه العيدان بكوابيل من الخشب بدل المسامير، بالإضافة إلى ربطها بحبال قوية مجدولة من شجر جوز الهند (القنب) بعد أن تكون قد سُقيت هذه الحبال ونقعت في دهن الحوت أو ما شابهه من الدهون ولمزيد من التثبيت تشد هذه العيدان بأحزمة أفقية تمتد من المؤخرة إلى المقدمة من الألواح الخشبية العريضة والسميكة، ثم يُدعم هذا الهيكل بعارضتين أو ثلاثة إحداهما في المقدمة والأخرى في المؤخرة، والثالثة قد تكون في منتصف السفينة وتكون في مستوى أفقي واحد. ويأتي بعد ذلك إعداد الألواح الخشبية التي تغطي العيدان وتكسوها من الخارج، ويُقدر عرضها ما بين 14 و18سم، وبسمك 3- 5سم، فتثقب ثقوب رفيعة على مسافات متساوية عند حافتي اللوح وتعد ممرات عمودية مع هذه الثقوب على الألواح حتى يسهل مرور الحبال المتينة عبرها، ثم ينطلق بناة السفينة في تغطية الهيكل من الخارج بتثبيت هذه الألواح بدءاً بالقاعدة، حتى أعلى السفينة مع تزامن عملية الجلفطة، ثم تركب الدفة في مؤخرة السفينة، وتدهن السفينة من الخارج بدهن الحوت منعاً لتسرب المياه بداخل السفينة، وبعد الإنزال البحري يتم تركيب الصواري والشرع، وتعد المجاديف[1]، فتجري في البحر وترسي بسم الله وعلى بركته.

ويجدر بالذكر أن هذه السفن تتميز بانتهائها بطرف حاد في المقدمة والمؤخرة خلاف ما ظهر فيما بعد القرن التاسع كظهور المؤخرة المربعة نتاج التأثير الأوروبي منذُ الغزو البرتغالي في القرن العاشر الهجري[2].

كما كانت السفن تحمل فوق ظهرها مراكب صغيرة من مثل القارب والدوينج، ويستفاد منها للنجاة أو الملاحة على الشاطئ، وفي الأوقات الحرجة

(1) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، سبق ذكره، ص141.139.
(2) حوراني: العرب والملاحة، ص242.

تزود بصار وشراع، كما كان العرب يحملون معهم أحياناً مراكب صغيرة للبيع قد تصنع فوق ظهر السفينة[1].

ومن أهم أجزاء السفن العربية ومعداتها في البحر الأحمر والمحيط الهندي بسواحله العربية:

1. الهراب: وهو تلك الخشبة الأساسية التي تقام عليها السفينة[2].
2. القلع بالكسر «الشراع» والجمع قلاع[3]، وتنسج هذه الشرع من أوراق جوز الهند أو سعف النخيل أو من نسيج الأشرعة القطني، وقد تميزت السفن العربية بالشراع المثلث الشكل[4]. كما أُطلقت تسميات أخرى على الشرع في موانئ الحجاز مثل «ينبع» «كالكبيري» وهو شراع السفينة الكبير و»الفتيني» وهو الشراع المتوسط للسفينة[5].
3. الصواري: ويسمى الدِّقْل أو الدَّقَل، ومعناه «جذع النخلة» وبالتالي يصنع من جذوع النخل أو شجر جوز الهند أو خشب الساج أيضاً وقد يكون للسفينة أكثر من صاري[6].
4. دفة السفينة (السُكان) وكانت دفات السفن تحرك بحبلين[7]. وتوجد دفة على كل جانب خشية ميل أحد الجانبين بفعل الرياح فترتفع بذلك الدفة عن سطح الماء فينعدم أثرها[8].
5. الدسار أو الدسر وهي الخيوط التي تشد بها ألواح السفينة، وتعرف أيضاً بالمسامير[9]، وقد تسمى أيضاً هذه الخيوط بـ «القلفاط» وهي

(1) المرجع السابق، ص263.
(2) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130.
(3) الحموي: تاريخ الأسطول العربي، ص50.
(4) حوراني: المرجع السابق، ص266.265.
(5) الخطيب: تاريخ ينبع، ص131.
(6) حوراني: العرب والملاحة، ص264.263.
(7) الحموي: ال أسطول، ص50.
(8) حوراني: العرب والملاحة، ص261.
(9) الحموي: المرجع السابق، ص51.

الخيوط العازلة بين أخشاب السفينة بعد مزجها بالزيت أثناء صناعة السفينة[1].

6. القَلْسُ: وهو حبل السفينة، ويطلق عليه الجمل لضخامته، ومكون من ليف أو خوص[2]. وقد يطلق عليه «المدة»: أي حبال السفينة[3].
7. الشلمان: وهي الأخشاب التي تربط الواح السفينة[4].
8. المجداف: أو المجذاف، ومأخوذة من جدف الطائر[5].
9. النحر: ويطلق على موقع في قلب السفينة[6].
10. الجؤجؤ: ويمثل صدر السفينة[7].
11. الميدة: عبارة عن خشبة كبيرة في قلب السفينة[8].
12. الكوثل: ذنب السفينة[9].
13. البروسي: عبارة عن الثقالة التي ترسو عليها السفينة[10]، أو الأنجر (معرب لنكر) أي المرساة الغليظة[11].
14. السلوقية: ويطلق على مقعد ربان السفينة[12].
15. العقربان: وهي مجموعة من خيوط قماش مزركش ترفع على ظهر السفينة عند عودتها أو في الأعياد[13].

(1) الخطيب: تاريخ ينبع، ص131.
(2) الحموي: المرجع السابق، ص51.
(3) الخطيب: المرجع السابق، ص131.
(4) المرجع السابق، ص131.
(5) الحموي: الأسطول، ص50.
(6) الخطيب، تاريخ ينبع، ص131.
(7) الحموي: الأسطول، ص51.
(8) الخطيب، المرجع السابق، ص131.
(9) الحموي: المرجع السابق، ص51.
(10) الخطيب: المرجع السابق، ص131.
(11) حوراني: العرب والملاحة، ص262.
(12) الحموي: المرجع السابق، ص51.
(13) الخطيب: المرجع السابق، ص131.

3) طاقم السفينة:

سيتبين لنا من المصطلحات الملاحية التالية تأثرها بمسميات فارسية وهندية ولاتينية:

1. اشتيام أو استيام: رئيس ملاحي السفينة[1] أو الملاح والمرشد[2].
2. ربان السفينة: القائد أو الريس[3] أو النوخذا أو الناخذا. وقد تطلق كلمة النوخذا على صاحب السفينة[4].
3. الفرادي: مساعد قائدي السفينة[5].
4. كراني أو قراني: من يقوم بالكتابة ومسك دفاتر السفينة[6].
5. المقدم: وهو من يتولى المسئولية عن إدارة الأعمال داخل السفينة من أكل أو شرب[7].
6. الصقير: هو من يقوم بخدمة طاقم السفينة[8].
7. بانيلي أو بنجري: مراقب المركب[9].
8. ساهانج / رايس: موجه الدفة (السكان) وهم ما بين 3.2[10]. وأما البحارة يقدر عددهم ما بين 20.10 بحاراً على ظهر السفينة[11].

(1) حوراني: العرب والملاحة، ص279 (تعليق المترجم)؛ وانظر أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار، ص28.
(2) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، ص141.
(3) أنور عبدالعليم: الملاحة، ص28.
(4) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، ص141.
(5) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130.
(6) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، ص141.
(7) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130.
(8) المرجع السابق، ص130.
(9) أحمد الشامي: العرب وصناعة السفن، ص141.
(10) المرجع السابق، ص141.
(11) المرجع السابق، ص141.

4) أنواع السفن العربية:

ظهرت سفن عديدة صالت وجالت في البحر الأحمر والمحيط الهندي في الفترة الإسلامية حتى سقوط السلطنة المملوكية عام 923هـ منها ما اختفى قبل القرن العاشر الهجري، ومنها ما بقي واستمر ما بعد القرن العاشر الهجري وشمله التطوير والتجديد.

ومنها:

1. جلبة: وتجمع على جلاب وجلب وجلبات، وقد امتطاها أهل مصر والحجاز واليمن في نقل الحجاج والمؤن، وذكرها الرحالة العرب، وتحدثوا عن طريقة بنائها دون مسمار، فكانت تنقل البضائع فيما بين أيلة «العقبة» وعيذاب وبلاد اليمن[(1)].
2. خيطي وخيطية: نوع آخر من الجلاب، وتجمع خياطي، وخيطيات وتصنع من خشب الساج الهندي، ولا يدخل المسمار في تثبيت ألواحها.

وتقوم بمهمة نقل المسافرين والبضائع والتجارات المختلفة من وإلى الهند والصين كما استخدمها المماليك في أسطولهم الحربي[(2)].

3. الهوري: والجمع هواري، ويعتقد أن أصل الكلمة هندي، وتطلق على القوارب الصغيرة، وتتراوح أطولها ما بين 20.10 قدماً، وتستخدم في نقل البضائع لمسافات قصيرة، وله شهرة كبيرة في السواحل العربية[(3)].
4. السنبوك أو البنوق أو الصنبوق:

وهو من أكبر وأشهر السفن العربية في السواحل العربية في البحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي والمحيط الهندي، وكان يصنع في

(1) النخيلي: درويش، السفن الإسلامية على حروف المعجم، جامعة الإسكندرية، 1974م، ص227؛ الشامي: العرب وصناعة السفن، ص152؛ سعاد: البحرية في مصر الإسلامية، ص338.
(2) النخيلي: السفن الإسلامية، ص43؛ سعاد: المرجع السابق، ص342؛ الشامي: المرجع السابق، ص154.
(3) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130؛ الشامي: المرجع السابق، ص161، الأنصاري: موسوعة تاريخ مدينة جدة، ص458؛ النخيلي، المرجع السابق، ص153.

الخليج العربي والبحر الأحمر ويستخدمه أهل الحجاز في نقل المواد التجارية بين موانئ الحجاز بخاصة وموانئ البحر الأحمر بعامة، وقد يحمل من تسعين طناً إلى مائة طن، ويساهم في نقل المنتجات المحلية في الحجاز كالفحم والحنا والتمور إلى موانئ البحر الأحمر الأخرى كعدن والسويس، إضافة إلى دوره في نقل السلع والبضائع من المحيط الهندي والخليج العربي إلى الحجاز(1).

5. القطيرة: وجمعها قطائر وهي نوع آخر من السنبوك، وتستعمل في البحر الأحمر ونيل مصر، وتستعمل في الشحن من الموانئ القريبة(2).

6. برعاني: استعمل في البحر الأحمر، ولبراعة بحارته في استعمال المجاديف وسط أهوال البحر حمل اسم برعاني(3).

7. ترانكي: من السفن الصغيرة التي استخدمت في سواحل الجزيرة العربية(4).

8. جرم: زورق من زوارق اليمن، ويجمع بـ جروم وجرومات وعرف في مصر والشام أيضاً(5).

9. حدوج: من مراكب النساء، واستخدم في البحر الأحمر والمحيط الهندي وعرف قبل الإسلام وورد ذلك في معلقة طرفة بن العبد:

كأن حدوج المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد(٦)

10. داو، وداوة: وتجمع داوات، وهي ذات الشراع الواحد وتقدر حمولتها بـ 200 طن، واستخدمت في السواحل العربية والهندية والإفريقية في شرق

(1) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130؛ سعاد: البحرية..، ص348؛ الشامي: العرب..، ص156؛ الأنصاري: موسوعة..، ص458.

(2) الخطيب: تاريخ ينبع، ص130، الأنصاري: المرجع السابق، ص458؛ النخيلي: السفن الإسلامية، ص127.

(3) سعاد: المرجع السابق، ص334.

(4) النخيلي: المرجع السابق، ص19؛ الشامي: المرجع السابق: ص150.

(5) النخيلي: المرجع السابق، ص22.

(6) التبريزي: شرح القصائد العشر، ص75.

أفريقية، واستخدمت في تجارة العبيد، كما كانت تنقل التجارة الشرقية إلى موانئ اليمن والحجاز ومصر على البحر الأحمر[1].

11. الذهبية : كانت تستخدم في البحر الأحمر، وتقدر حمولتها ما بين 400.100طن، وهي ذات ساريتين وأشرعة، ثم استقر بها المقام أن أصبحت سفينة نيلية، بل منازل نيلية تجرها سفينة أخرى إذا أرادت الانتقال من مكان إلى آخر[2].

12. عشاري أو عشيري: بضم العين المهملة، والجمع عشاريات، استخدمت في البحر المتوسط، إلا أنها أيضاً استخدمت في البحر الأحمر ونيل مصر، واشتهرت في العهد العبيدي «الفاطمي» بمصر، وهي من القوارب الصغيرة[3].

13. مسبحية: استخدمت في البحر الأحمر والمحيط الهندي[4].

14. البوت: تقدر حمولتها من 5.3 أطنان فقط[5].

15. القرقور: وهو من السفن الكبيرة، واستخدم لحمل البضائع والسلع التجارية، كما استخدم لنقل الحجاج من شمال أفريقية إلى مصر إلى الحجاز ومن السفن المساندة للأسطول الإسلامي[6].

16. الحراقة: وتجمع على حراقات وحراريق، وهي من السفن الحربية التي استخدمها المسلمون في أسطولهم في العصور الوسطى، واستخدمت في مياه البحر المتوسط والنيل خلال الحروب الصليبية، ولكنها أيضاً دخلت مياه البحر الأحمر، وهي عربية المنشأ. فبها مرامي نيران على

(1) النخيلي: السفن الإسلامية، ص45.
(2) سعاد: المرجع السابق، ص347؛ النخيلي: المرجع السابق، ص50.
(3) الشامي: المرجع السابق، ص159؛ النخيلي: المرجع السابق، ص95.
(4) سعاد: المرجع السابق، ص368.
(5) الأنصاري: المرجع السابق، ص458.
(6) الحموي: الأسطول، ص31؛ النخيلي: السفن الإسلامية، ص121، والشامي: المرجع السابق، ص161؛ سعاد: المرجع السابق، ص362.

العدو، واسمها أُشتق من مهمتها في إحراق سفن العدو بالنفط[1].

تلك بعضاً من أشهر السفن والمراكب التي عبرت البحر الأحمر.

وقد سبق ذكر أن البحر الأحمر منذ فتح مصر والشام في عهد الراشدين وانتهاءً بعهد المماليك كان بحيرة إسلامية، يمنع غير المسلمين من عبوره إلا في حدود ضيقة ولشئون تجارية فقط، لذا لم تقم في موانئه دور صناعة متخصصة لأساطيل حربية، مثل دور الصناعة الحربية التي أنشئت في بعض مدن مصر والشام والمغرب والأندلس، إلا أن ذلك لم يمنع من دخول الأساطيل الحربية الإسلامية للدولة الإسلامية إلى موانئ البحر الأحمر عندما تعرضت هذه الموانئ وخاصة موانئ الحجاز للغزو الصليبي في القرن السادس الهجري، والغزو البرتغالي في القرن العاشر الهجري. وقد شاركت سفن صنعت في موانئ البحر الأحمر الشرقية والغربية الأسطول الإسلامي لدولة الأيوبيين، ودولة المماليك الدفاع عن الأراضي المقدسة كما سبق تبيان ذلك في الفصل السابق.

5) التاريخ الملاحي للمسلمين حتى نهاية القرن العاشر الهجري:

ما إن تدفقت موجات الإسلام تعلوها راياته الخفاقة داخل وخارج الجزيرة العربية حتى تدافع المسلمون فرادى وجماعات للرحلة والبحث والتنقيب بدافع قوي من دينهم الذي حثهم على السير في الأرض والاعتبار بآثار الأمم السالفة[2]، فقد ورد في كتاب الله تعالى في عدة مواضع الأمر بالسير للنظر في عاقبة الغابرين من المكذبين والمجرمين[3]. فتنوعت الرحلات فمن رحلة فرار بالدين من أرض الشرك إلى أرض إسلام أو أمان على الدين كالهجرة إلى

(1) الحموي: الأسطول، ص34؛ النخيلي: المرجع السابق، ص32، والشامي: المرجع السابق، ص153؛ سعاد: المرجع السابق، ص339.

(2) حميدة: عبدالرحمن: أعلام الجغرافيين العرب، الطبعة الثانية، 1400هـ.1980م، دار الفكر، دمشق، ص34.

(3) الآيات الكريمة في سور يوسف (109)، الحج (46)، الروم (9)، فاطر (44)، غافر (8221)، محمد (10)، آل عمران (137)، الأنعام (11)، النحل (36)، النمل (69)، العنكبوت (20)، الروم (42).

الحبشة، ثم الهجرة النبوية إلى المدينة، والرحلة السنوية إلى الديار المقدسة رحلة الحج[1]، وقد قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾[2].

وانطلاقٌ الفتوحات الإسلامية داخل وخارج الجزيرة العربية شرقاً وغرباً حتى وصلت إلى أطراف الصين شرقاً، وأطراف فرنسا غرباً، وكذلك رحلة التجارة[3]. براً وبحراً بشهادة الحق جل وعلا في كتابه الكريم في سورة قريش، وفي آيات أُخر منها قوله تعالى: ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِي يُزْجِي لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِي ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٦٦﴾[4]. ورحلات لطلب العلم التي وردت الآيات والأحاديث المتعددة في فضلها إذا قُصد بها وجه الله عز وجل فقد قال المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم «...من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده»[5] وتنوعت الرحلة في طلب العلم من طلب حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرغبة في معرفة بديع صنع الله سبحانه في الأرض والبحار والجبال ومعرفة الطرق والمسالك، وتقدير أبعاد البلاد بالفراسخ والأميال إلى معرفة الأماكن والجبال والأودية والأنهار والقفار، ومعرفة الأنساب، إلى المعرفة الفقهية في حكم البلاد المفتوحة صلحاً أو عنوة وما في حكمها من جزية أو خراج أو فيء، وما ارتبط بالسفر من أحكام شرعية في الصوم والصلاة إلى

(1) نواب: عواطف محمد يوسف: الرحلات المغربية والأندلسية، مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1417هـ.1996م، ص36.35.

(2) سورة الحج، ص27.

(3) عواطف نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص36.

(4) سورة الإسراء: آية رقم (66).

(5) مسلم: بشرح النووي، ج17، ص21؛ وانظر نواب: الرحلات المغربية، ص37.

غير ذلك[1].

فظهرت كتب المسالك والممالك والبلدان والرحلات وخاصة التي اهتمت بالبحر سواء بشكل مستفيض أو بشكل مقتضب، ففي القرن الثالث الهجري ظهر مؤلف ابن خرداذبة أبو القاسم عبيد الله بن عبدالله الجغرافي والأديب الفارسي «المسالك والممالك» وتضمن كتابه دليلاً للطرق البرية والبحرية، حيث يعتبر من أوائل من تحدث عن الطرق البرية والبحرية خاصة، ثم تلاه ابن رسته ابو علي أحمد بن عمر الجغرافي والمعماري والأديب الفارسي، الذي اشتهر بموسوعته الضخمة «الأعراق النفسية» التي كتبها حوالي 291هـ، ولا يتوفر منها إلا الجزء السابع، وذكر أن البحار المعروفة في المعمورة خمسة هي بحر الهند، وبحر الروم وبحر الظلمات، والبحر الأسود، وبحر الخزر، كما أشار إلى الأقاليم التي تشرف على هذه البحار متحدثاً عن حالة المد والجزر وأفضل أوقات الملاحة. كما ظهر في نفس القرن ابن الفقيه أحمد الهمذاني الجغرافي والموسوعي والأديب العربي. وله «كتاب البلدان» مورداً فيه كثيراً مما ذكره ابن خرداذبه وابن رسته عن البحار، مشيراً إلى أن البحار اثنين فقط هما بحر فارس وبحر الروم. ومن المؤلفات في هذا المجال أيضاً «المسالك والممالك» للإصطخري، و«صورة الأرض» لابن حوقل، و«تقويم البلدان» لليعقوبي وهي من أواخر القرن الثالث: وأواخر القرن الرابع الهجري، ويعتبر مؤلف المسعودي، «مروج الذهب ومعادن الجوهر» من المؤلفات الجغرافية التاريخية الهامة ففيه فصول عن البحار والمد والجزر، كذلك للمقدسي كتابه الهام في هذا المجال «أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» وقد تناول في كتابه هذا أخبار البحار والمد والجزر بأحسن ممن سبقوه. وتحدث عن البحر كل من محمد بن سنان البتاني في كتابه (الزيج الصابي) وسهراب في كتابه (عجائب

(1) حميدة: أعلام الجغرافيين العرب، ص45.44.

الأقاليم السبعة) ومحمد بن أحمد البيروني في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة). حتى ظهر الشريف الإدريسي صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» أوائل القرن السادس وحقق كتابه شهرة واسعة في المشرق والمغرب، وتميز الكتاب بجمع مادة جغرافية فلكية ووصفية واعتمد على عدد كبير من الخرائط توضح الأقاليم التي وصفها، كما عُرف عنه قيامه بعمل مجسم للكرة الأرضية من الفضة مبيناً عليه مواقع البلدان في الأرض المعمورة آنذاك، وذلك بطلب من حاكم صقلية روجر الثاني.

وفي كتابه تقويم البلدان «أورد أبو الفدا عماد الدين إسماعيل (732672) معلومات هامة عن البحار والمد والجزر، مشيراً إلى بلادٍ بعيدة زارها مثل بريطانيا وإيرلنده، ويعاصره شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري المعروف بالدمشقي أو شيخ الربوة، ومن كتبه (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر). ويعتبر كتاب ابن بطوطة الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي الطنجي المتوفي ما بين (771 أو 779) «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار» من أمتع كتب الرحلات، وقد سبقه من الرحالة المغاربة ابن جبير المتوفى (614هـ) في رحلته المشهورة من الأندلس إلى الديار المقدسة[1].

وقد وجدت العديد من المؤلفات التي تحدثت عن البحار بشكل أو بآخر، وليس هذا مقام إحصائها، إنما الهدف الإشارة إلى هذا التراث الجغرافي الضخم الذي خلفته الأمة الإسلامية على مر العصور.

ومما يجدر ذكره كتب القصص البحري والتي تعتبر مصدراً من مصادر تاريخ الملاحة العربية، والتي ارتبطت بالملاحة في الخليج العربي (الفارسي)

---

(1) غيثان بن علي بن جريس: البحر في كتب التراث الإسلامي، بحث في دورية اتحاد المؤرخين العرب «الحضارة الإسلامية وعالم البحار»، 1414هـ.1993م، ص105.98؛ أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص48.45؛ موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، ص73، 81، 83، 90، 96، 143.

منطلقة من «سيراف»[1] مروراً بالهند وانتهاءً بالصين، وهي أخبار مما يتداوله البحارة وربابنة السفن مما تعرضوا له من أهوال وأخطار ومغامرات، ومن تلك «رحلة التاجر سليمان» ويقدر تأليفها بعام 237هـ، وتصف الطريق البحري بين سيراف وكانتون، وقد درس هذه المخطوطة كلا المستشرقين الفرنسيين رينو وفران ثم سوف جيه من بعدهما، وهذه الرحلة وكذلك رحلة ابن وهب القرشي التي كانت إلى الصين أيضاً ووافقت ثورة الزنج في جنوب العراق، جمعها أبو زيد حسن بن اليزيد السيرافي من أهل البصرة وقد قابله المسعودي عام (304هـ)، ثم تلا هذا المخطوط مخطوط لربان يدعى بزرك بن شهريار الرام هرمزي الفارسي هو «كتاب عجائب الهند» جمع قصصه مما سمعه من الربابنة والتجار في سيراف والبصرة وعُمان قصصاً عن الهند والشرق الأقصى وشرق أفريقية، وأخباراً دقيقة عن حياة البحر في زمانه[2]. ومن الربابنة إلى المعالمة وهم في اصطلاح رجال البحر أمهر الملاحين في قيادة المراكب الشراعية في أعالي البحار أو بمحاذاة السواحل، لذا فإن درجة المعلم في الترتيب المهني البحري أعلى من درجة الربان، وفي أواخر العصور الوسطى خاض المحيط الهندي معالمة من العرب الهرامزة والهنود والشوليان والزنوج[3].

ومن أشهر من يذكر في هذا المقام من المعالمة العرب «ابن ماجد» و«سليمان المهري».

المعلم ابن ماجـد:

هو شهاب الدين وأسد البحر أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن

(1) سيراف: على الساحل الإيراني من الخليج العربي (الفارسي) مدينة كبيرة بها تجار مياسير. انظر الحميري: الروض المعطار، ص333.

(2) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج1، ص140.137؛ حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص204.203؛ أنور عبدالعليم، الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص35.34.

(3) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص54.53.

فضل بن دويك بن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي ابن أبي الركائب النجدي[1]، «من جلفار بالخليج العربي»[2] وابن ماجد من أسرة ربابنة فأبوه ربانٌ يلقب بربان البرين (بر العرب وبر العجم) وكذلك جَدُّه، فقد كانا مهرة في الملاحة في البحر الأحمر، وسجلا ملاحظاتهما وأثبتها ابن ماجد وزاد عليه، بل أن لوالده منظومة شعرية تزيد على ألف بيت اسمها «الحجازية» في الملاحة بالبحر الأحمر، ويقر ابن ماجد لأبيه في هذه الأرجوزة بنجاته هو من أخطار البحر الأحمر والسير فيه[3]. إلا أنه يعترف أيضاً أنه لم يكن أول المعالمة في المحيط الهندي والخليج العربي والبحر الأحمر، بل يذكر عن نفسه أنه رابع ثلاثة من المعالمة المشهورين في البحر وهم محمد بن شاذوان وسهل بن أبان وليث بن كهلان، الذين ألفوا «رهمانج» أو كما يسميه البحارة العرب (رحماني) ويطلق على كل كتاب في القواعد والإشارات الملاحية، لكنه يرى أنه يتفوق عليهم، وأن خبرتهم محدودة فهم لم يركبوا البحر إلا من سيراف إلى بر «ساحل» مكران، ويقول إنه لا يعلم لهم رابعاً في إعداد كتب الملاحة غيره، ويرى أنه عظمهم بذكره أنه رابعهم[4].

وبلا شك فقد كان ابن ماجد معلمًا ماهراً محيطاً بكثير من فنون الملاحة وعلم الفلك والهيئة إضافة إلى شاعريته، فقد كان أديباً مطلعاً على كثير مما توفر له من كتب الأدب والفلك والجغرافيا «فاستفاد واهتدى المعالمة في زمانه ومن بعده بما ابتكره من قياسات، وما صححه من دير، وما وصل إليه من معرفته من النجوم والأرياح والأمواج وعلامات البرور وإشاراتها[5]، إلا أنه لم يعرف على وجه الدقة والتحقيق تاريخ ميلاد هذا المعلم المشهور، ولا تاريخ

(1) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص62؛ أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص139.
(2) المرجع السابق، ص62؛ أنور عبدالعليم، المرجع السابق، يذكر أنها «ظفار» المدينة العمانية.
(3) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص63.
(4) شهاب: المرجع السابق، ص60.
(5) شهاب: ، المرجع السابق ص64.

وفاته، ولكن نشاطه البحري انحصر (في أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري) أي (في القرن الخامس عشر الميلادي)[1].

ويرجح أنور عبدالعليم تاريخ ميلاده على وجه التقريب ما بين 840.835هـ بالرجوع إلى قصيدته ضريبة الضرائب[2]. ومن أشهر مؤلفات ابن ماجد كتابه «الفوائد في أصول علم البحر والقواعد» وله منظومات وأراجيز شعرية ومنها «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» وهو يعارض فيها أرجوزة والده «المسماة الحجازية»، ويبلغ عدد أبياتها (1082) بيتاً، وكذلك «المعربة» أرجوزة من (178) بيتاً، ومنظومة شعرية أخرى من (295) بيتاً وصف فيها القبلة في جميع أقطار العالم القديم انتهى من نظمها عام (893هـ).

وأرجوزة «بر العرب في خليج فارس»، وأرجوزة «كنز المعالمة وذخيرتهم» وأرجوزة: القصيدة المكية» في وصف السفر من جدة إلى فرتك، فكالكوت ودابول، وكنكن، وجوزرات، والاطوح، وهرمز، وأراجيز أخرى[3]. ويلاحظ على أراجيز ابن ماجد عدم تقيده بالوزن والقافية في مواضع متعددة، إلا أن هذا لا يقلل من عبقريته وكفاءته الفذة في الملاحة[4].

إلا أن هذا الملاح الماهر والعبقري الفذ وأسد البحر شاب تاريخه الملاحي نقطة سوداء التصقت بهذا التاريخ الناصع، وهي دعوى مساعدته للملاح البرتغالي «فاسكو دي جاما» حتى عبر المحيط الهندي إلى الهند بلاد التوابل، فيذكر حوراني أنه في عام (1498م .904هـ) كان هذا الملاح البرتغالي في مُلَنْدي بشرق إفريقية يبحث عن دليل يرشده إلى الهند، ولم يجد إلا ابن ماجد، فاستطاع إقناعه بقيادة السفن البرتغالية عبر المحيط إلى كلكتا، ويعلق ساخراً (فكان من سخريات التاريخ أن ملاحاً عربياً كبيراً ساعد على القضاء

(1) أنور عبدالعليم: المرجع السابق، ص140.
(2) المرجع السابق، ص141.
(3) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص68.66.
(4) أنور عبدالعليم: المرجع السابق، ص142.

على الملاحة العربية، إذ لم يستطع العرب إبعاد البرتغاليين ومن تبعهم من الشعوب الأوروبية الأخرى أو منافستهم.!(1) إلا أن حسن صالح شهاب، وأنور عبدالعليم، ينفيان هذه التهمة ويبرئان ساحة هذا العبقري الفذ بحجج قوية، ومنها تعليق أنور عبدالعليم على وصول داجاما إلى ماليندي في كينيا، بأنه أقام علاقة جيدة مع ملكها وطلب منه أن يدله على مرشد يوصله إلى الهند، إلا أن الملك تردد في ذلك فما كان من الملاح البرتغالي إلا أن أسر احد أقرباء الملك كرهينة، فاضطر إلى أن أرسل له رباناً «مسلماً من جوازات» اسمه «كاناكا» كما ذكر ذلك مؤرخ برتغالي يدعى «دي باروش»، واختلفت الروايات حول تفاصيل رحلة دا جاما، فمن بين المؤرخين البرتغاليين من قال اسم الربان كان المعلم «كانا»، ومنهم من ذكر أنه «كاناكا» وأيضاً من ذكر أنه «ربان مسلم من جوزات» وكذلك من ذكر أنه عربي من المغرب. ويعتبر المؤرخ «فران» (1922م) أول من أوجد علاقة بين من أرشد داجاما وبين ابن ماجد، معتمداً على ما ورد في مؤلف لقطب الدين النهروالي بعنوان «البرق اليماني في الفتح العثماني» الذي يرجع تاريخه إلى عام (985هـ. 1577م) يذكر فيها النهروالي أن أحمد بن ماجد دل كبير الفرنج حتى توغل في المحيط الهندي، إلا أن رواية النهروالي عن ابن ماجد ضعيفة ولا يعتبر بها خاصة وأنه سجلها بعد رحلة داجاما بنحو 80 عاماً، فاعتمد على الإشاعات المتواترة وقد سبقه في التأليف عن ابن ماجد والمهري، على حسين الربان التركي في كتابه «محيط» (عام 1557م. 965هـ) بعشرين سنة ولم يشر إلى هذه الحادثة بشكل أو بآخر، ولم ينقل عن الربابنة العرب الذين التقى بهم شيئاً يذكر عن هذه الحادثة، كما أشار النهروالي إلى أن ابن ماجد دل داجاما في حالة سكر والقول غير مقبول لما عُرف عن ابن ماجد من الاستقامة والورع مما ورد في كثير من أراجيزه، إضافة إلى أن الملاح البرتغالي

(1) العرب والملاحة في المحيط الهندي: ص237.

لن يقبل رأياً بحرياً من رجل في حالة سكر، كما أن ابن ماجد لم يكن له دراية ولا تجربة حقيقية بالساحل الإفريقي، وأخيراً فإن ابن ماجد نفسه لم يشر من قريب أو بعيد في كتاباته إلى ركوبه مركباً برتغالياً أو إرشاد ملاحيهم أو حتى الالتقاء بملاحي البرتغال رغم أنه عاصر حملاتهم الأولى إلى الهند، وأشار إلى شرورهم وعدواتهم للإسلام والمسلمين. فيقرر المؤلف وبكل ثقة أن ابن ماجد لم يكن هو الدليل أو المرشد الملاحي لمراكب دي جاما ولا لغيره من الأميرالات البرتغاليين[1]. ويشاركه نفس الرأي وبالقوة نفسها حسن صالح شهاب، مؤكداً أن المصادر البرتغالية لا تذكر أن الذي قاد داجاما إلى الهند ملاحاً عربياً وأهم هذه المصادر في رأيه، هو سجل سفينة (داجاما) Logbook وورد فيه أن حاكم (ماليندي) عندما طلب إليه داجاما أن يمده بمرشد إلى الهند أرسل إليه رباناً نصرانياً، مشيراً إلى أن سبب إلصاق هذه التهمة بابن ماجد هو شهرته في الأوساط البحرية، وجرأته في خوض البحار، كذلك كان ابن ماجد أثناء رحلة دي جاما في سن متقدمة وقد تجاوز (74 عاماً) قد لا تسمح له هذه السن بقيادة المراكب وخوض غمار البحر[2].

ننتهي من ذلك إلى أن ابن ماجد كان يوصي المعلم بالعدل وطاعة الله، وتقواه[3]، مما يوحي بأن الرجل كان على درجة من الاستقامة، وفي قصيدته المكية يقول:

(ركبت على اسم الله مجرى سفينتي وعجلت فيها بالصلاة مبادراً)[4]

(1) الملاحة وعلوم البحار عند العرب: ص139.126.

(2) فن الملاحة عند العرب: ص71.68.

(3) ابن ماجد: كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد، "الفائدة الثانية" تحقيق إبراهيم الخوري، ص30.29.

(4) أنور عبدالعليم: المرجع السابق، ص133.

المعلم سليمان المهري:

أما سليمان بن أحمد بن سليمان المهري المعلم الآخر فهو ينتسب إلى مهرة إحدى القبائل العربية الجنوبية (مهرة بن حيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة) وتتحكم هذه القبيلة في بلاد الشحر، وتشرف على خفارة القوافل التجارية التي كانت تقصد سوق الشحر (ومنطقة الشحر تمثل الجزء الغربي من حضرموت حتى ظفار غرباً)، وكان من سكان بلدة «سقطرى»، ويعد من تلاميذ ابن ماجد، وله مؤلفات عدة منها «العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية» و«المنهاج الفاخر في علم البحر الزاخر» و«تحفة الفحول في تمهيد الأصول في أصول علم البحر» و«شرح تحفة الأصول..» و«رسالة قلادة الشموس واستخراج قواعد الأسوس»، وقد حقق هذه الكتب إبراهيم خوري. والمهري من المعالمة المتأخرين الذين عايشوا الغزو البرتغالي للسواحل العربية، وما تعرض له الملاحين العرب من اعتداءات وقتل ونهب على يد الغزاة، وقد أدرك ابن ماجد في سنوات عمره الأخيرة؛ ونقل عنه، لذا يرجح أنه عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، وكانت وفاته تقدر بنحو عام 961هـ تقريباً[1].

والحديث عن المعالمة العرب يجرنا للحديث عن أهم المصطلحات الملاحية والمرشدات وآلات الرصد والقياس التي استخدمها واستفاد منها وتداولها الملاحون المسلمون بعامة والعرب بخاصة في المحيط الهندي والبحر الأحمر على مدار التاريخ الإسلامي وفي العصور الوسطى على وجه الخصوص، وقد استفاد الملاحون من التراث الفكري للمسلمين في علوم الفلك والنجوم وحساب المثلثات التي ازدهرت كثيراً في العهد العباسي الأول، وازدهار الترجمة من مؤلفات الأمم والشعوب الأخرى، وبناء المراصد في مناطق عدة من العالم

(1) الزركلي: الأعلام، ج3، ص121؛ شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص74.71؛ أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار عند العرب، ص147.146.

الإسلامي كبغداد ودمشق وجنديسابور وغيرها، وصناعة الإسطرلابات، والبوصلة البحرية[1]. وتأثرت المصطلحات الملاحية بلغات شعوب عدة، وكان للغة العربية أثر واضح، ومن ذلك كلمات مثل جؤجؤ السفينة (أي مقدمتها) وكوثلها (أي مؤخرتها)، وكذلك إقلاع، وإشراع، وإرخاء، وإرساء وجذف، وجدف، ومجداف، ومقذاف، وخطف، وصاري، وشحن، وندخ، ونتخ، وأيضاً دم السفينة أي طلاها بالقار، وقلفط السفينة أي سد خروقها، والحقه أو بيت الإبرة أو البوصلة الملاحية. ومن غير العربية دخلت كلمات ملاحية من اللغة اللاتينية من مثل أسكله أي رصيف رسو السفن، وأسطول، ونوتي وهو البحار[2]، ومن اللغة الفارسية دخلت مصطلحات من مثل البلنج (بلنك) أي حجرة السفينة، والبندر أي الميناء أو المرسى، والدفتر وهي الصحف التي تتضمن إرشادات ملاحية، والدوينج أي زورق السفينة، والخن: أي النقطة في البوصلة، والناخُداة أو الناخذاة، وجمعه النواخدة أو النواخذة: أي رب السفينة، والرهماني أيضاً دفتر إرشادات للملاح[3]. واشتيام أي رئيس ملاحي السفينة، وربان: أي قائد السفينة، والجاه قطب الشمال[4]. ومن الكلمات العربية التي دخلت اللغات الأجنبية في مجال الملاحة مثل أميرال وأصلها أمير البحر، وأرسينال أي دار صناعة السفن، ثم عادت إلى العربية محرفة عن الأجنبية بلفظ «ترسانة»، وكذلك رايس: أي رئيس البحارة، وكابل Cable، أي حبل، وغير ذلك[5].

أما أشهر آلات الرصد والقياس لدى البحارة فهي:

1. الإسطرلاب وهو عبارة عن قرص معدني مقسم إلى 360 درجة ويعرف

(1) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص277.275.

(2) أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار، ص27.26.

(3) حوراني: العرب والملاحة في المحيط الهندي، ص199.198.

(4) أنور عبدالعليم: المرجع السابق، ص29.28.

(5) أنور عبدالعليم: المرجع السابق، ص31.30.

بميزان الشمس، ومن المسائل التي يمكن إنجازها عن طريق الإسطرلاب معرفة ارتفاع الشمس والأجرام السماوية والميل والبعد وعرض البلد وسعة المشرق إلى غير ذلك.

2. ربع الدائرة أو «المربع» وهو قوس قدره 90 درجة من دائرة الإسطرلاب مثبت عليه خيط يتصل بثقل من الرصاص، ويكون هذا الخيط ضلع الزاوية التي تحدد ارتفاع النجم فوق الأفق.

3. القياس بالأصابع.

ويمكن بهذه الطريقة قياس ارتفاع النجم لثمانية أصابع أو أكثر باستخدام راحتي اليد معاً وبالتناوب تثبت الواحدة وتضاف الأخرى فوقها وهكذا، إلا أن هذه الطريقة بدائية، وأدخل عليها تحسينات فيما بعد عرفت بالخشبات أو الألواح.

4. آلة الكمال: أو خشبات ابن ماجد وهي عبارة عن خشبة على شكل متوازي المستطيلات يتصل من وسطها خيط مدرج بعقد تختلف المسافة بين كل عقدة وأخرى حسب ظل تمام زاوية الارتفاع، ويوضح ارتفاع النجم بالأصابع، وهي مبنية على حساب مثلثات، وتتفق هذه الآلة مع خطوات الملاحة في المحيط الهندي.

5. آلة البلستي: وهي تشبه الخشبات السابقة غير أنه استبدل بالخيط المعقود مسطرة مضلعة من الخشب.

6. آلة الاربليت: عصا قياس لرصد ارتفاع النجوم.

7. بيت الإبرة «البوصلة البحرية»: وهي كلمة إيطالية تعني الصندوق أو الحق، وتوضح الاتجاه في البحر بخاصية انجذاب الإبرة المغناطيسية نحو الشمال، ويسميها ابن ماجد باسم بين الإبرة أو الحقه أو الديرة، ومن المؤكد أن ابن ماجد هو أول من قام بتركيب الإبرة المغنطة على محور تتحرك حركة حرة، كما ذكر ذلك بنفسه في كتابه وأنه لم يسبقه

فيها أحد، وشاركت أمم أخرى في تطوير البوصلة البحرية[1].

وكان البحارة قبل البوصلة أو بيت الإبرة يصعب عليهم تمييز الجهة المقصودة من الجهة الأخرى في حالة الليالي غير المقمرة والملبدة بالغيوم، وكل اعتمادهم في مساراتهم البحرية ليلاً على رؤية النجوم[2]. ومن معارف الملاحين «الدير» وهو ما يُعرف اليوم بالخطوط البحرية الموازية للبر، فإذا مالت السفينة عن هذا الخط إلى داخل البحر، ولم يعد يشاهد البر أو مالت السفينة إلى البر ودخلت بين رؤوسه، عُرف عند البحارة بأن السفينة لم تعد تجري في الديرة الحقيقية[3].

وللمعالمة ورجال البحر العربي مهارات وقدرات متعددة أبرزتها بعد توفيق الله رحلاتهم ومغامراتهم وأسفارهم، فمن تلك الإبداعات العلامات والإشارات التي يستدلون بها على الاقتراب من الأماكن التي يريدون الوصول إليها، فهي تماثل الكواكب في الليل، ومن هذه العلامات ثعابين البحر، وبعض الحيتان، والطيور والجبال، والجزر، والأعشاب، وطين قاع البحر، ولون الماء، والتيارات، ويشترط لصحة هذه العلامات أن يكون من رآها من أهل الثقة والمعرفة، وقد أجمل ابن ماجد هذه العلامات والإشارات في أرجوزته الحاوية ومنها قوله:

والطين والحيات والأطيار ... والحوت والحشيش خذ أخباري

لا تعتبر إلا بما جربته ... أو يكن الواصف قد حققته[4]

(1) أنور عبدالعليم: الملاحة وعلوم البحار، ص189.169؛ شهاب: المصدر السابق، ص135.79؛ لمزيد من التفاصيل انظر سليمان المهري: العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، دمشق 1390هـ. 1970م، ص7.6.

(2) شهاب: فن الملاحة، ص117؛ المهري، المصدر السابق، ص12.7.

(3) شهاب: المرجع السابق، ص126؛ المهري، المصدر السابق، ص29.28 عن دير الحجاز.

(4) شهاب: فن الملاحة عند العرب، ص196.193.

الفصل الرابع

- الهجرات العربية ورحلة الحج وعمارة الحرمين عبر الموانئ

أولاً: الهجرات العربية عبر الموانئ الحجازية.

١ ـ مواطن القبائل العربية المهاجرة في شرقي إفريقية.
٢ ـ دور القبائل العربية في نشر الإسلام واللغة العربية.
٣ ـ دور القبائل العربية في السياسة والتجارة.

ثانياً: رحلة الحج عبر الموانئ.

١ ـ أهم الموانئ على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر التي يرتادها الحجاج ورأي الرحالة العرب فيها.
٢ ـ رحلة الحاج المصري.
٣ ـ رحلة الحاج المغربي.
٤ـ إمارة قافلة الحج.
٥ـ المحمل.

ثالثاً: نقل المؤن لعمارة الحرمين الشريفين وكسوة الكعبة عبر الثغور.

١ ـ في العهد العبيدي «الفاطمي».
٢ ـ في العهد الأيوبي.
٣ ـ في العهد المملوكي.

أولاً - الهجرات العربية عبر الموانئ الحجازية

لعل من أهم القبائل العربية التي ارتحلت إلى أفريقيا عامة ووادي النيل «مصر والسودان» وكذلك الحبشة بخاصة، من الحجاز خاصة ومن باقي مناطق الجزيرة العربية عامة هي:

1. قريش (بفروعها المختلفة).
2. جهينة.
3. بلي.
4. بنو سليم.
5. بنو هلال.
6. ربيعة.
7. جذام.
8. الأنصار.
9. كنانة. وآخرون أفراداً وجماعات.

وقبل الحديث عن منازلهم الجديدة من وادي النيل والحبشة سنتعرف على أهم دوافع هذه الهجرة، وأهم معابرها ومنافذها.

أ) دوافع الهجرة:

1. **الدافع الديني:** منذ بعثة المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم في مكة البلد الأمين دبت روح جديدة في الجسد العربي، فكانوا خير أمة أُخرجت للناس، وأعز الله العرب بالإسلام، فكانت أول هجرة في الإسلام بسبب هذا الدين وفراراً به من أذى مشركي قريش، وكانت الهجرة عبر الساحل الحجازي من الشعيبة إلى الساحل الأفريقي إلى الحبشة فكانت أفريقيا أول البلاد خارج جزيرة العرب تستقبل المهاجرين بالدين الجديد، ونصر الله الإسلام في الجزيرة، وقامت دولة الإسلام في المدينة النبوية، وما زال الإسلام هو المحرك للتنقل والهجرة، وتمثل ذلك في الفتوحات الإسلامية الكبيرة التي انطلقت شرقاً وغرباً من عاصمة الإسلام الأولى (المدينة النبوية) مِن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله

وسلم، ومن ثم خلفائه الراشدين ومن بعدهم.

ومن بين تلك الفتوحات فتح مصر وبلاد النوبة وباقي أفريقية في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن أتى بعده، والتي رافقها انتقال عدد من القبائل العربية التي سرعان ما استقرت في مناطق الإسلام الجديدة[1].

2. **الدافع الاقتصادي:** لعل قلة الموارد الاقتصادية في جزيرة العرب عامة والحجاز بخاصة، واستقرار الأوضاع بعد فتح مصر، وما تناقلته الأخبار للقبائل من مزايا وخيرات تترا في أرض مصر والسودان، وما تسامع به العرب من وجود المعادن وتبر الذهب في جنوب مصر وأرض السودان، كان له أثر في هجرة أعداد من القبائل العربية إلى وادي النيل.

حيث ازدهرت تجارة الرقيق، والعمل بالتعدين في الصحراء الشرقية، وممارسة التجارة البحرية مع الهند والصين ونقل حجاج بيت الله إلى الأراضي المقدسة ذهاباً وإياباً عبر الموانئ المصرية والسودانية إلى ما يقابلها من الموانئ الحجازية[2].

3. **الدافع السياسي:** ويأتي هذا الدافع في الأهمية بعد الدافعين السابقين فبعد فتح مصر تواصلت الفتوحات في عهد الأمويين في شمال أفريقيا، شجع الأمويون وولاتهم في مصر هجرة القبائل القيسية بهدف تدعيم حكمهم فيها، ورغبة في تقليل نفوذ القبائل اليمينة في مصر.

ومما شجع هجرة القبائل العربية من مصر إلى السودان سياسياً

(1) المقريزي: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الإعراب، تحقيق عبدالمجيد عابدين، الطبعة الأولى، 1961م، عالم الكتب، ص99.95؛ ربيع محمد القمر حاج: انتشار الإسلام في بلاد البجة (رسالة دكتوراة) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، شعبان 1418هـ، ص95.92؛ محمد سعيد ناود: العروبة والإسلام بالقرن الأفريقي، ص29.

(2) يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، الطبعة الأولى، 1975م، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم، ص40.36؛ ربيع محمد القمر حاج، انتشار الإسلام في بلاد البجة، ص102،101؛ وناود: العروبة والإسلام، ص29.

العباسيين وميلهم إلى العنصر الفارسي والتركي، ووصل الأمر بالخليفة العباسي المعتصم بالله أن قطع العطاء عن العرب وأسقطهم من الديوان، واستبدلهم بعناصر غير عربية، مما أدى إلى نفور العرب واستياءهم، وثوراتهم على الحكم العباسي، والانسحاب تدريجياً إلى الجنوب.

كما واصل الطولونيون سياسة العباسيين في تقريب العناصر الغير عربية. كذلك ما وقع من صراعات مسلحة بين العرب والأيوبيين والمماليك، مما دفع بكثير من القبائل إلى الإنسياح إلى جنوب مصر السودان والحبشة. حسب رأي بعض الباحثين[1].

ب) معابر الهجرة:

لقد عبرت القبائل العربية من جزيرة العرب إلى وادي النيل (مصر والسودان) والحبشة عن طريق معبرين هامين هما:

(1) **المعبر البري:** الذي تمثل في اجتياز عمرو بن العاص رضي الله عنه والفاتحين معه شبة جزيرة سيناء لفتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في سنة عشرين للهجرة، وقيل سنة ست عشرة[2]. وما تلا ذلك من هجرات عبر هذا المعبر.

(2) **المعبر البحري:** الذي تمثل في انتقال القبائل العربية إلى السودان والحبشة عن طريق البحر الأحمر انطلاقاً من الموانئ الحجازية مثل ينبع وجدة والسرين، وما بينهما من مرافئ أمثال الحوراء وعينونا وصولاً إلى الموانئ السودانية والحبشية مثل عيذاب، وسواكن، ومصوع «باضع»،

(1) المقريزي: البيان والإعراب، ص104.99؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج2، ص223؛ ربيع حاج: انتشار الإسلام في بلاد البجة، ص100.95؛ محمد صالح ضرار: تاريخ السودان (البحر الأحمر. إقليم البجة)، 1965م، مكتبة الحياة، ص40.

(2) ابن كثير: البداية والنهاية (خلافة عمر بن الخطاب) ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي، الطبعة الأولى، 1418هـ، دار الوطن، ص82.79؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص100.95.

وزيلع، ودُهْلك[1].

1) مواطن ومنازل القبائل العربية في مصر والسودان والحبشة :

اختطت قريش بالفسطاط حول مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه هم والأنصار، وأخذت قريش منذ الربع الأخير من القرن الأول تزحف نحو الجنوب وتقيم في مدن الصعيد الأدنى مثل حلوان، حتى كان القرن الثالث تكاثرت قريش بصعيد مصر، وتجمعوا في أسوان، وامتلكوا الأراضي في بلاد النوبة في العهد الأموي والعباسي، حتى أصبحت منطقة الأشمونيين (في مركز الروضة «محافظة أسيوط») يطلق عليها بلاد قريش ومن أشهر بطونها في صعيد مصر بنو مخزوم، وبنو تيم بن مرة، وبنو زهرة، وبنو عبد الدار، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو نوفل بن عبد مناف، وبنو المطلب، وبنو أمية وبنو هاشم (من آل علي، وآل جعفر، وآل العباس) وبنو أسامة بن لؤي وبنو عامر بن لؤي، وبنو سهم، وبنو جمح، وبنو عدي بن كعب[2].

وزحفت بطون من قريش باتجاه السودان، إما عن طريق مصر أو عن طريق البحر الأحمر منتقلة من جدة إلى عيذاب ويؤكد المسعودي[3] انتقالهم من الحجاز مباشرة بقوله: (وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره). ومن هناك انتشرت في الأراضي السودانية، ومن أوائل من وصل منهم إلى السودان بنو أمية الذين نزلوا في بلاد النوبة بقيادة عبد الله بن مروان وأخوه عبيد الله بن مروان إلى مملكة النوبة إلا أن آثار الأمويين فُقدت مع الأيام وسط سكان المنطقة من البجة، ولم يعد لهم خبر، حتى كان القرن العاشر الهجري عندما

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص53؛ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص22،23؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان، الطبعة الأولى، 1418هـ. 1997م، مكتبة التوبة، الرياض، ص97؛ ناود: العروبة والإسلام، ص29؛ يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص64؛ ربيع حاج؛ انتشار الإسلام في بلاد البجة، ص111.103.

(2) المقريزي: البيان والإعراب، ص43.33؛ عبدالله خورشيد البري: القبائل العربية في مصر، 1967م، دار الكتاب العربي، ص94.69.

(3) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص23.

قامت لهم سلطنة حوت معظم أراضي السودان الحالية وسميت بالسلطنة الزرقاء «الفونج»[1]. ويرجع مؤرخو السودان المعاصرون أنساب كثير من قبائل السودان الحالية إلى أسر عربية من قريش وغيرها والتي رحلت إلى السودان في فترات مختلفة، وأكبر هذه الأسر العباسيون، ويسمون في السودان إلى اليوم «الجعليون» كما يُدّعى، ولهم مكانة كبيرة في تلك البلاد.

ومن الأسر المسلمية ويُذكر أنهم ينتمون إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ويعيشون في شرق السودان، ويمتدون حتى داخل إريتريا، ولهم مركز المسلمية المسمى باسمهم، وأسرة الدقناب إحدى قبائل الهدندوة وتسكن في أركويت والمنطقة التي حولها، ويرجعون بنسبهم إلى هارون الرشيد الخليفة العباسي، كما يُزعم، وقبيلة الحسناب التي تذكر أنها ذات أصول قرشية وتسكن في سواكن، ومن الأسر القرشية الشادلياب التي استوطنت بين قبائل البجة في شرق السودان، وقبيلة السيقولاب والتي يُذكر أنها من قبائل البجة إلا أن قادتها من أبناء أبي بكر الصديق رضي الله عنه واستوطنت كسلا، وكذلك الملهيتكناب، والعجيلاب، والأفلندة، وماريا، والهدندوة، والنابتاب، وقبيلة ألمدة البجوية أو البجاوية ويذكرون أن زعماءهم من بني أمية، والجعافرة نسبةً إلى جعفر الطيار رضي الله عنه، وقد كانت بصعيد مصر فقادت صراعاً مسلحاً ضد المماليك انتهى بهزيمتها، وبالتالي فرار بعضهم إلى داخل الأراضي السودانية ومنهم بطون تسكن كردفان، كما تنتمي قبيلة العليقات أو العقيلات إلى عقيل بن أبي طالب رضي الله عنه، وقبيلة البشارين التي ترجع بأصولها إلى بني أسد من قريش، وقدموا إلى السودان مع أقاربهم من الكواهلة، حيث سكنوا حول سواكن، والأمَّارأر أو أبناء عمار ويُدّعى أنهم من سلالة الأسدي وجده الزبير بن العوام رضي الله عنه[2].

(1) الفونج: سيأتي الحديث عنها لاحقاً في دور العرب السياسي.
(2) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان (البحر الأحمر. إقليم البجة)، ص4239؛ ضرار صالح ضرار: هجرة

وفي الحبشة، وإرتريا بوجه خاص تدعي بعض الأسر والقبائل انتسابها إلى قريش، مثل بيت الشيخ محمود المنتسبون إلى الزبير بن العوام رضي الله عنه، وعد الشيخ حامد ودنا مغوتاي المنتسبين إلى أشراف قريش، وقبائل بني عامر والبلو تنتسب إلى بني العباس، وقبائل الحباب المتعددة تنتسب إلى بطون متعددة من قريش، والاساورتا ويُزْعم انتسابهم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والمنيفري ينتسبون إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه كما يدّعون. والماريا وسنعد قلى في المرتفعات الإرترية وقبيلة طروعة وحذو ومنسع ينتسبون إلى الأمويين، والجبرتة يُزْعم انتسابهم إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وقبائل العفر تدّعى انتسابها إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه[1].

كما هاجر من قريش إلى القرن الأفريقي ود بن هشام المخزومي وجماعة من أسرته في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكذلك هجرة الزيدية الشيعة سنة 123هـ في عهد هشام بن عبد الملك بعد مقتل زيد بن علي، فرحل أنصاره إلى الصومال ونزلوا في موقع مقديشو الحالي، وانتشروا على طول ساحل بنادر حتى كونوا لهم دولة في تلك الديار[2] واتخذت جهينة[3] القبيلة الكبيرة الواسعة الانتشار منازل لها في مصر في الصعيد في بلاد قريش فأخرجتها قريش بمساعدة عساكر الخلفاء الفاطميين، واضطروا للنزول في بلاد إخميم أعلاها

القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان، ص347،346؛ مزيد من التفاصيل عن قريش في السودان؛ عبدالمجيد عابدين: محقق كتاب البيان والإعراب للمقريزي في دراسات حول تاريخ العروبة في السودان، ص160،155.

(1) ناود: العروبة والإسلام بالقرن الأفريقي، ص150.

(2) غيثان: الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية في العصور الوسطى (المبحث الثالث من كتاب بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية)، ج2، ص58،63.

(3) منازل جهينة بالحجاز جبال الأشعر، والأجرد، وقدس، وآروه، ورضوى وأودية ذا خشب، وبندر، والحاضرة، والقفا، والعيص، وبواط، والمصلى، وبدار وجفاف، وودان، وينبع، والوراء. انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص286؛ البلادي: معجم قبائل الحجاز ص95؛ صالح العلي، الحجاز في صدر الإسلام ص185.

وأسفلها[1] ويذكر ابن خلدون أن جهينة غلبوا النوبة على مواطنهم وملكهم وزاحموا الحبشة في بلادهم وشاركوهم في أطرافها، وجهينة الذين يقطنون جنوبي أسوان يعرفون بأولاد الكنز، كان جدهم كنز الدولة[2]. وعن قبيلة[3] بلي التي سبق وأن هاجر أعداد منها إلى مصر والسودان قبل الإسلام، وعند ظهور الإسلام انتقلت في عهد عمر بن الخطاب، وكانت متفرقة في أرض مصر، ثم اتفقت مع جهينة، فصار لبلي من جسر سوهاي غرباً إلى قريب غرب قمولة، وصار لها من الشرق عقبه قاو الخراب إلى عيذاب[4].

ولم تستقر بلي بمصر، وتوجهت جماعات منهم إلى معادن التبر في جنوب مصر وبلاد السودان[5]. ويذكر السويدي أن منازلهم بالصعيد ومنهم باداما وهي ما دون عيون القصب إلى أكرى، ويضيف أن عليهم درك الحاج هناك، ومنهم في أخميم وما تحتها[6].

أما عن وضع بلي في السودان، فإن المؤرخين السودانيين يشيرون إلى أن بلي كانت القبيلة العربية الأولى التي هاجرت إلى السودان من الجزيرة العربية عبر البحر الأحمر قبل الإسلام وبعده[7].

لذا يرجح الباحث أن بلي قد تكون استخدمت ميناء الجار أو مرفأ العونيد[8]

---

(1) المقريزي: البيان والاعراب، ص32.

(2) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص7؛ ولمزيد من التفاصيل عن حال جهينة في السودان، انظر ضرار: هجرة القبائل العربية، ص306 . 323.

(3) منازل بلي بالحجاز: كانت تسكن في صدر الإسلام حول وادي القرى "وادي العلا حالياً" إلى ديار جذام في الشمال من الحجاز إلى سيف البحر الأحمر، انظر السويدي: سبائك الذهب: ص83؛ صالح العلي: الحجاز في صدر الإسلام، ص182.

(4) المقريزي: البيان والاعراب، ص30.29.

(5) عبدالله البري: القبائل العربية في مصر، ص187.185.

(6) سبائك الذهب، ص54.

(7) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان، ص30؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص280؛ يوسف فضل حسن، تاريخ السودان، ص45،43.

(8) العونيد: تقع في مرسى عنتر على بعد 50كم شمال الوجه، وكانت العونيد مرفأ لمدن بلي الداخلية، وهو مرسى مأمون، واستمر كذلك طوال العهدين العباسي والفاطمي. انظر علي غبان: مراكز الاستيطان بشمال الحجاز، الدارة، العدد الثاني، السنة العشرون، محرم وصفر وربيع أول، 1415هـ، ص71.

أو ينبع فيما بعد في رحلتها باتجاه الأراضي السودانية، ومن المرجح أنهم قد استخدموا عدة موانئ ومرافئ في حدود موطنهم في الحجاز عبوراً إلى منازلهم الجديدة في بلاد البُجَة شرقي السودان. وقد أطلقت البجة كلمة «بلوييت» على اللغة التي يتحدث بها أفراد وقبيلة بلي وهي اللغة العربية، فهي لم تكن معلومة لديهم، ولذلك نسبوها لأول من تكلمها في ديارهم، واعتبر البجة أفراد قبيلة بلي سادة عليهم حتى أصبحت كلمة «بلويون» تعنى رئيسنا أو سيدنا واختلطوا مع البجاة وصاهروهم(1).

ونزل بنو سُليم(2) مصر سنة 109هـ وأمير مصر في ذلك الحين الوليد بن رفاعة بن خالد بن ثابت بن طاعن الفهمي، وطلب عامل الخراج بمصر عبيد الله بن الحباب من الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك أن ينقل إلى مصر بعض قبائل قيس فألحق ثلاثة آلاف من قيس بديوان مصر وأنزلهم الحوف الشرقي وفرقهم فيه، وكان يستقدم مائة أهل بيت من بيوت قيس مثل بني نصر بن معاوية وبني عامر بن صعصعة، ومن هوازن، وسليم، فأنزلهم بلبيس، وأمرهم بالزرع وصرف فيهم الصدقة حتى اشتروا إبلاً وخيلاً، وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم، وتتابعت هجرات قيس إلى مصر، وسكن بنو سليم في برقة باتجاه ليبيا(3). وهاجر عدد منهم إلى منطقة العلاقي بالسودان(4). وانتشروا حتى صحراء عيذاب(5).

ورغم إشارة حمد الجاسر إلى أن العونيد من تحريف النساخ والأصح العويند إلا أن المصادر الجغرافية تقدم النون على الياء. هامش كتاب المناسك، ص402.

(1) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان، ص32.31؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص284.280.

(2) مواطنهم بالحجاز: تمتد ما بين مكة والمدينة متجهة شرقاً إلى الدفينة وحرة كشب وشمالًا جنوب شرقي المدينة، وجنوباً حرة رهاط ونخلة الشامية، ولهم حرة الحجاز، وتسمى حرة سليم. انظر السمعاني: الأنساب، ج3، ص278؛ السويدي: سبائك الذهب، ص83؛ البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص226.

(3) المقريزي: البيان والإعراب، ص69.65، وابن خلدون، ج6، ص20.18.

(4) عبدالله البري: القبائل العربية في مصر، ص109.

(5) يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص45.

وبنوا هلال[1] كانوا من أهل الصعيد إلى عيذاب، وبأخميم وبساقية[2].

ويتحدث ابن خلدون عن هجرتهم الشهيرة إلى بلاد المغرب وما أحدثوه من فساد ودمار في طريقهم إليها، وربط خروجهم من بلاد الحجاز بقصة تزوج إحدى نسائهم من أمير مكة الشريف ابن هاشم، مشيراً إلى أنها قد التفت عليها كثير من المبالغات والمزاعم، إلا أنه لا يستبعد صحتها[3].

وقد أوردها أيضاً الفاسي المؤرخ المكي عند ترجمته للأمير شكر بن أبي الفتوح الذي توفي 453هـ[4].

وبصعيد مصر أيضاً أولا الكنز أصلهم من ربيعه بن نزار، وقد قَدِمت ربيعة[5] مصر في خلافة المتوكل على الله العباسي (232. 247هـ) بأعداد كبيرة، ونزلت طائفة منهم بأعالي الصعيد، وقد كانت البجة تهاجم قرى مصر الشرقية وتخربها فتولت ربيعة التصدي لها، بل وزحفت على أراضي البجة واستولت على معدن الذهب بالعلاقي حتى كثرت أموالهم؛ وتحسنت أحوالهم؛ وصارت لهم مرافق في بلاد البجة، واختطوا قرية النمامس، وكانت عيذاب لبني يونس من ربيعة[6]. ويتحدث كلاً من المسعودي[7] وابن حوقل[8] عن مكانة ربيعة في بلاد البُجة في شرقي السودان ودورهم السياسي ومملكتهم، وسيطرتهم على

(1) منازلهم بالحجاز: في المنطقة الممتدة ما بين الطائف ورنية وبيشة، وكانت لهم جلذان وتربة، وبيشة، وحرة بني هلال جنوب شرقي الطائف. انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص230؛ السمعاني: الأنساب، ج5، ص657؛ البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص552.

(2) المقريزي: البيان والإعراب، ص.

(3) تاريخ ابن خلدون، ج6، ص35.18.

(4) العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: ج4، ص263.

(5) مواطنهم بالحجاز: قرن المنازل، وحضن وركبة، وحنين، وغمرة، وأوطاس، وذات عرق، والعقيق، ووقعت بينهم حروب فرقتهم، فهاجرت بطون منهم إلى مناطق عدة في الجزيرة العربية مثل البحرين وهجر ونجد والحجاز. انظر البكري: معجم ما استعجم، ج1، ص18؛ الهمداني: صفة جزيرة العرب، ص247.246؛ البلادي: ص175.

(6) المقريزي: البيان والإعراب، ص44.

(7) مروج الذهب، ج2، ص20.

(8) صورة الأرض، ص54.52.

أرض المعدن وتبر الذهب، كما أورد المؤرخون السودانيون تفاصيل موسعة عن دور قبيلة ربيعة في السودان؛ مشيرين إلى أن من قبيلة ربيعة من قدم من مصر، ومنهم من قدم عبر البحر الأحمر، مثل بني يونس عن طريق ميناء ينبع الحجازي إلى ميناء عيذاب[1].

وجذام[2] أول من سكن مصر من العرب فقد جاءوا مع الفتح مع عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومن اقطاعاتهم هربيط وتل بسطه ونوب ورم وغيرها وسكنوا أيضاً بالإسكندرية، وكانوا يسكنون الحوف الشرقي الدلتا.

والعايذ بياء آخر الحروف وذال معجمة بطن من جذام من القاهرة إلى عقبة أيلة[3] وفروع من هذه القبيلة هاجروا إلى بلاد النوبة وكردفان ودارفور حتى البرقو في أواسط السودان[4].

وينزل فئة من الأنصار صعيد مصر، ومنهم بنو محمد وبنو عكرمة وديارهم منفلوط بحري[5].

أما كنانة[6] فقد سكنت في مصر بساقية قلته وما يليها[7]، ومنها فروع توجهت إلى السودان[8].

(1) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان، ص34؛ يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص40، ص54.63؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية ص96.105.

(2) مواطنهم بالحجاز: أشهر مدن جذام أيلة، وقد كان سكانها قبل الإسلام أخلاط، كما أن أيلة سوق لهذه القبيلة، ومن ديار جذام في العهد الأموي، مدين ومقنا، وقيال، وعينونا، وتريم، وسرغ، ومعان، ويذكر المقريزي أن لبنى عقبة من جذام من عقبة أيلة إلى داما قرب عينونه. انظر البيان والإعراب، ص19؛ السويدي: سبائك الذهب، ص107؛ البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص81؛ على غبان: مراكز الاستيطان الشمالي الحجاز في عصر بني أمية، ص72.73.

(3) المقريزي: البيان والإعراب، ص11.20.

(4) يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص186.

(5) المقريزي: المصدر السابق، ص47.

(6) مواطنهم بالحجاز: تهامة الحجاز، فكنانة تخالط في الديار ضمرة وغفار، وخزاعة في الشمال، وهذيل في الجنوب، وكانت معظم الوديان التي تجري من مرتفعات السراة إلى البحر أعلاها وصدورها لهذيل؛ وأسافلها لكنانة، ويذكر الهمداني أن السرين ساحل كنانة. انظر صفة جزيرة العرب، ص232؛ البلادي: معجم قبائل الحجاز، ص446؛ صالح العلي: الحجاز في صدر الإسلام، ص187.

(7) المقريزي: المصدر السابق، ص47.

(8) يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص186.

2) دور القبائل العربية في انتشار الإسلام واللغة العربية:

بعد أن منَّ الله على بلاد وادي النيل (مصر والسودان) وخاصة مصر بدخول الإسلام في الربع الأول من القرن الهجري الأول على يد الفاتحين من الصحابة رضوان الله عليهم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حدثت نقلة جديدة في حياة المصريين، وبدأ الشعب المصري في التحول التدريجي من النصرانية إلى الإسلام، فتقبلوا الفاتحين العرب، واعتنقوا دينهم في مدة لا تزيد عن قرنين من الزمان، حتى كان عام 239هـ إذ أصبحت غالبية الشعب المصري من المسلمين، ومن دلالة ذلك اختفاء الثورات القبطية، كما أن استيطان واستقرار القبائل العربية واختلاطها بالمصريين الذين اعتنقوا الدين الإسلامي بدأ يعمل على صبغ البلاد المصرية بالصبغة العربية، فقد أصبحت مصر داراً كبيرة للقبائل العربية المهاجرة، ومن هذه الدار انطلقت هجرات بعض القبائل جنوباً إلى بلاد النوبة والسودان، وغرباً إلى أفريقيا لنشر الإسلام والثقافة العربية[1]. كما أدى استقرار القبائل العربية في السودان خاصةً في المنطقة الشرقية منه على سواحل البحر الأحمر «بلاد البجة» إلى إسلام كثير من البجاويين خاصة القبائل الكبيرة منها مثل الحداربة، حتى أصبح المسلمون الجدد زعماء لمن لم يسلم، وأخذ البجاويون يتأثرون بالثقافة العربية والإسلامية، ويقلدون القبائل العربية في عاداتها ولباسها[2]، كما ساهمت سيطرة القبائل العربية خاصة ربيعة، وجهينة على مناطق المعادن واستخدامهم للرقيق السوداني في العمل معهم، واستعانتهم بأهالي تلك البلاد إلى إسلام أعداد من أهل السودان لظروف معايشتهم ومخالطتهم للعرب والعمل معهم، بل وصل الأمر أن أصبح أهل السودان الشرقي جنوداً في إمارة ربيعة في تلك الديار، إضافة إلى تمكن القبائل العربية المهاجرة من تأسيس

(1) حسن أحمد محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة، ص93. 101.
(2) ابن حوقل: صورة الأرض، ص50. 51.

مراكز تجارية أصبحت عامل جذب لأهالي البلاد للعمل فيها والتعامل معها، فقد أسس العرب عدداً من مناطق التعدين مثل النمامس[1] وساقية شعبان والمحدثة، وحفرت إلى جوارها الآبار، وأصبحت مدينة صيحة ومدينة هجر البجاويتين مركزين لتسويق المعادن. كما ساهم التصاهر بين العرب والبجة في انتشار الإسلام في تلك الديار[2].

ويرى يوسف فضل حسن أن للقبائل العربية المهاجرة للسودان دور كبير في نشر الثقافة العربية والإسلامية، وقد اكتملت عناصر الحدث الهام في رأيه إثر استقرار بعض المجموعات العربية واختلاطها وتزاوجها مع العناصر المحلية[3].

وكان الرعيل الأول من الدعاة يهتمون بتحفيظ القرآن للناشئة، وتدريسهم مبادئ الفقه والتوحيد، وانتشر المذهب المالكي في السودان، وتبعت قلة منهم المذهب الشافعي، وسبب انتشار المذهب المالكي يعود إلى أن غالبية من هاجر إلى السودان من القبائل العربية جاء من صعيد مصر الذي ساد فيه مذهب الإمام مالك رحمه الله[4]. ولم يقتصر الأمر في انتشار الإسلام في الحبشة على

(1) المقريزي: البيان والإعراب، ص44.

(2) ربيع محمد القمر الحاج: انتشار الإسلام في بلاد البجة وآثاره، ص112.116.

(3) دراسات في تاريخ السودان: ص64.

(4) يوسف فضل حسن: دراسات في تاريخ السودان، 68. ويقطع يوسف فضل، وبكل أسف: أن انتشار الإسلام في السودان خضع خضوعاً تاماً للجو الصوفي، بزعم أن الصوفية انتصرت في صراعها الطويل مع أهل السنة في القرن الثاني عشر الميلادي (أي القرن السادس الهجري) ..!!، ص73، بل يورد قصصاً خرافية نقلاً عن طبقات الشعراني لا يقبلها العقل المسلم وتطعن في عقيدة التوحيد، مما يزعم أنها من مأثور كرامات الأولياء، ومن ذلك ما أورد (أن فاطمة بنت عبيد مرضت حتى أشرفت على الموت فسأل أحدهم الشيخ خوجلي بن عبدالرحمن أن يسأل الله ليشفيها فقرأ بعض الآيات على ماء فسقوه لها فكتبت لها العافية، ومن بعدها يروى ابنه أن الإعياء كان بادياً على الشيخ خوجلي الذي قال: «أنا غلبان كنا أنا وملك الموت نتنازع في روح بنت عبيد فتركها لي»!!! وغير ذلك من طيران الشيخ من مكان إلى مكان...!!، ص79.

ويعلق الدكتور حسن أحمد محمود في كتابه (الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا) على تفشي وسيطرة الصوفية على السودان بقوله: "وإذا كانت الصوفية في ذلك الوقت قد انحدرت إلى مستوى الخرافة والشعوذة فذلك لقلة حظ السودان من المدارس الثقافية الراقية أو الطبقة الواعية من الفقهاء الذين في مكنتهم أن يحاربوا الخرافة، وأن يجنبوا الإسلام في السودان ما وقع فيه، فقد أصبح الصوفي يلعب دوراً شبيهاً بدور الساحر في المجتمع الوثني القديم»، ص344، وقد أصاب ولا شك وقد بين القرآن الكريم هذا الأمر بياناً شافياً. قال تعالى: {ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن

القبائل العربية كمجموعات كبيرة، بل على الأفراد والجماعات الصغيرة أيضًا من العرب التي عبرت البحر الأحمر إلى أفريقيا في فترات مختلفة خاصة في العصر الأموي، ومن ذلك ما سبقت الإشارة إليه من هجرة اتباع زيد بن علي حفيد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما إلى الصومال والحبشة بعد مقتل زيد على يد الأمويين، كذلك خروج جماعات من العرب إثر صراعاتها المتعددة مع الأمويين إلى أفريقيا وهم من عرب البحرين، ويتحدث المستشرق جيوم: «أنه في القرن الخامس عشر «الميلادي» هاجر من حضرموت جماعة من العرب المسلمين من أربعة وأربعين للدعوة إلى الإسلام عبر البحر الأحمر إلى شرقي أفريقية، وكان يؤم هذه الجماعة الشيخ إبراهيم أبو زرباي الذي أخذ طريقه إلى مدينة هرر حوالي سنة 1430م (834هـ) وتمكن بمعاونة إخوانه تحويل عدد كبير من الأفارقة إلى الإسلام...»[(1)] ولعل القرب الجغرافي للحبشة من الجزيرة العربية وارتياد العرب لها في الجاهلية والإسلام كسوق تجارية هامة، واتخاذ البحر الأحمر جسراً احتشدت فيه عشرات السفن ذهاباً وإياباً للضفتين الشرقية والغربية تنقل السلع ومعها المؤثرات والعادات والتقاليد، ومعها الدعاة والعلماء والحجاج. ولن نعدو الحقيقة إذا قلنا أن أرض الحبشة عرفت الإسلام قبل كثير من مناطق الجزيرة العربية أثناء هجرة الصحابة لها في السنة الخامسة من البعثة، وازدهرت العلاقات التجارية في العهود التالية لعهد الراشدين مع الأحباش فتغلغل الإسلام في تلك الديار، كما ساهم في توطد الإسلام في الحبشة قيام إمارات إسلامية عربية، وظلت هذه الإمارات والمراكز مراكز لنشر الثقافة العربية والإسلامية، ومما ساهم في تطورها وفود

فعلت فإنك اذاً من الظالمين} [يونس: الآية 106]. وقال تعالى: {وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير} [الأنعام: الآية 17]. وقال تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} [الزخرف: الآية 36].

(1) عبدالشافي غنيم عبدالقادر: البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية، ص87.80.

العلماء والفقهاء من مكة والمدينة ودمشق وبغداد والقاهرة والقيروان وفاس وغيرها حتى ظهرت مدن ذات شأن علمي في شرقي أفريقية مثل زيلع ومقديشيو وبراوة ومركة، وممبسة، ومالندي، وكلوة، وسوفالا[1].

ومن الهجرات العربية التي تركت أثراً على الإسلام في الحبشة هجرة جماعة من قريش من الحجاز من ذرية عقيل بن أبي طالب[2]، الذين أقاموا في إيفات فقاموا بالتجارة والدعوة إلى الإسلام، بل وأسسوا حكومة عربية استمرت إلى القرن الثامن الهجري، واتخذوا من مدينة جبرتة بمنطقة إيفات عاصمة لهم. كما تمكن جماعة من بني مخزوم من قريش من تأسيس أول إمارة إسلامية في إقليم شوا بالحبشة (288.283هـ)[3].

ولعل بطء انتشار الإسلام في السودان والحبشة يعود لبطء حركة الاختلاط بين القبائل العربية وأهالي البلاد، كما أن الهجرات العربية لم تتخذ طابعاً عسكرياً جهادياً في دخولها هذه البلاد إنما كانت في غالبها هجرات سلمية تنساب إلى هذه البلاد شرقاً وغرباً شمالا وجنوباً، واحتاجت إلى عامل الوقت لتظهر آثارها الإسلامية العربية، ولكن ما إن شارف القرن التاسع الهجري على الأفول حتى دخلت أعداد كبيرة من سكان السودان والحبشة الأصليين في الإسلام[4].

وأدى انتشار الإسلام إلى انتشار اللغة العربية كلغة للحديث والمخاطبة والمكاتبة، وقد دخلت اللغة العربية إلى مصر مع الفاتحين العرب الذي توطدوا في مصر، وكانت مصر أكثر البلدان الأفريقية تأثراً باللغة العربية وتقبلاً لها، وقد كانت الوثائق الإسلامية الأولى من أوراق البردي تكتب بالإغريقية ثم تكتب

(1) غيثان: الهجرات العربية وانتشار الإسلام في بلاد شرق أفريقية في العصور الوسطى، بحوث في التاريخ والحضارة، ج2، ص35.28.

(2) أحمد الحفني القنائي: الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، الطبعة الأولى، 1321، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر، ص16.

(3) محمد الطيب بن محمد بن يوسف اليوسف: إثيوبيا والعروبة والإسلام عبر التاريخ، الطبعة الأولى، 1416هـ.1996م، المكتبة المكية، مكة المكرمة، ج2، ص20.19.

(4) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص296.

باللغتين العربية والإغريقية، ولما تم تعريب الدواوين في عهد الخليفة الأموي عبدالملك بن مروان أصبحت لا تكتب إلا باللغة العربية، في حدود العام 90هـ فأصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للحكومة في مصر، ثم بدأت تضعف اللغة القبطية وتختفي من الساحة المصرية حتى دخلت اللغة العربية الكنيسة القبطية، وأصبحت تتلى بها صلوات النصارى الأقباط. وما أن شارف القرن الرابع الهجري على التمام حتى أصبحت اللغة العربية لغة المصريين جميعاً عرباً وأقباطاً مسلمين ونصارى[1].

واتخذت مصر موقعها المتميز ودورها الرائد في الحضارة الإسلامية، ويقول ضرار صالح ضرار «كانت أرض الكنانة مصنعاً ضخماً لتعريب العناصر الأفريقية ونشر الإسلام بينهم. وكانت السودان هو البحيرة التي تنبع منها أعداد كبيرة من الأفارقة من شتى أنحاء القارة للرحيل إلى مصر، والاستيطان بها والعمل في جيوش الدولة العربية الإسلامية»[2].

أما في بلاد البجة فكان انتشار اللغة العربية يسير ببطء شديد، بل إن اللغة العربية تأثرت باللغات المحلية في تلك الديار، وقد يعود ذلك إلى عدم تركز الجهود الدعوية والثقافية من العرب في تلك المناطق، إلا أن اختلاط العرب بالبجة ساهم في نشر لغة العرب بينهم، وخاصة في المناطق الحضرية الواقعة على طريق القوافل مثل صيحة وهجر والنمامس وغيرها، وطغى استخدام البجة لأسماء عربية من بداية القرن الثالث الهجري، وظهرت مدن بجاوية تحمل أسماء عربية كسواكن وعيذاب وصيحة وهجر، كما أن مناطق التعدين حملت أسماء عربية، وكذلك الآبار والمراسي، بل حتى ملوك البجة تسموا بأسماء عربية، فذاك ابن حوقل[3] يذكر أن لهم ملك مسلم يتكلم

(1) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص106.104.
(2) هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل مصر والسودان، ص616.
(3) صورة الأرض: ص57.

بالعربية. وقد وجدت آثار وحفريات في بلاد البجة تحمل التواريخ الهجرية والأسماء العربية[1].

كذلك الحال في الحبشة فقد ساعد تغلغل القبائل العربية فيها واختلاطهم بأهلها بالمصاهرة على انتشار اللغة العربية والإسلام، وتأثرت قبائل متعددة في شرقي أفريقية مثل الأمهرة والدناقل والإرتريين والأحباش والصوماليين، كما ساهمت الحركة التجارية في انتشار اللغة العربية في الحبشة والبحيرات وما جاورها، وقد امتدت طرق القوافل التجارية إلى داخل أثيوبيا، وساهمت قبائل عربية مثل ربيعة وقحطان والأزد في انتشار الإسلام واللغة العربية. على أن قمة مجد اللغة العربية في الحبشة ارتبط بقيام الإمارات الإسلامية في تلك النواحي، فقد كانت اللغة العربية هي اللغة الرسمية السائدة فيها[2].

3) دور القبائل العربية في التجارة والسياسة:

وقد سبقت الإشارة إلى جوانب من هذا الدور في مواضع متفرقة في الفصل الثاني عند الحديث عن التجارة الشرقية عبر ثغور البحر الأحمر الشرقية والغربية مع شرق آسيا وشرق أفريقيا، وعند الحديث فيما سبق من صفحات عن دور القبائل في نشر الإسلام واللغة العربية فقد كان للتجارة دور هام في ذلك.

وقد ازدهرت التجارة في مصر منذ الفتح الإسلامي لها على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه والفاتحين العرب، كما أن حكام مصر في العصور المختلفة اهتموا كثيراً بالبحر الأحمر، فأصلحوا الطرق الصحراوية التي تمر بها قوافل التجارة بين البحر الأحمر والنيل، كما عنوا بإقامة الحاميات فيها،

(1) ربيع محمد القمر حاج: انتشار الإسلام في بلاد البجة، ص160.156.

(2) غيثان: الإسلام واللغة العربية في دول الطراز الإسلامي، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ج2، ص111.103.

وحفروا الآبار على طول تلك الطرق، واهتموا بالقضاء على القراصنة في البحر الأحمر وازدحمت صحراء عيذاب بالرحلات التجارية، ورحلات حجاج بيت الله وتسابق التجار العرب في الغدو والآصال على ارتياد الموانئ الشرقية والغربية للبحر الأحمر بتجارتهم منطلقين شرقاً إلى الصين والهند وإلى شرق أفريقية فكان البحر الأحمر شرياناً حيوياً للتجارة بين الشرق والغرب، وتميزت مصر بموقعها الجغرافي التجاري الذي ربط بين أوروبا وآسيا وأفريقيا[1]. وتحكم العرب خاصة والمسلمين عامة في تجارة البحر الأحمر[2].

وانعكست هذه التجارة على مصر ازدهاراً ورخاءً، فقامت في مدنها منذ الفتح الإسلامي الأسواق، وتطورت كثيراً، وقد اختط عمرو بن العاص للخليفة عمر بن الخطاب داراً عند المسجد الجامع إلا أن الخليفة أمره أن يجعلها سوقاً للمسلمين. ووجدت أسواق متنوعة مثل سوق العيارين، للعطارين والبزازين، وسوق الفاميين للجزارين والبقالين والشوايين، وسوق الطباخين ويجمع الصيارف والخبازين والحلوانيين. وفي العهد العبيدي الفاطمي ظهرت أسواق كبيرة، مثل سوق الشرايحيين في القاهرة وسوق أمير الجيوش، وسوق القماحين، وسوق المحاربين، وفي عهد الأيوبيين ظهرت أسواق منها سوق المهامزيين، وسوق السلاح، وسوق باب الفتوح وغيرها، وفي الإسكندرية وجدت أسواق كثيرة متخصصة حتى وجد حي خاص لبيع التوابل، وسمي بشارع الفلفل، وفي دمياط فقد استوطنها كثير من التجار وأصحاب الأموال، وكذلك صعيد مصر من أشهر أسواقه منفلوط والأسيوطية وقوص وأسنا وأسوان، وعرفت مصر منشآت تجارية متعددة مثل القياسر والتي تتكون من مجموعة من المباني العامة بها حوانيت ومصانع ومخازن، وأحياناً مساكن وبها كذلك

(1) سيدة إسماعيل كاشف: البحر الأحمر والفتح العربي لمصر، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص104.100.

(2) حسنين محمد ربيع: البحر الأحمر في العصر الأيوبي، المرجع السابق، ص105.

أروقة، وعرفت منذ العهد الأموي، كذلك وجدت الخانات وهي المباني الضخمة التي تحتوي على مجموعة من الحوانيت الكبيرة والصغيرة ومستودعات البضائع، وكذلك الفنادق وهي بناء ضخم مربع الشكل على شكل حصن أدواره العليا للتجار والسفلى لتخزين البضائع، وكذلك أُنشئت الوكالات التي تشبه الفنادق في نظامها، ولم تقتصر إقامتها على الحكومة، بل أنشأها بعض كبار التجار، وأنشئت المتاجر لخزن بعض السلع[1].

وبالرغم من أن القبائل العربية احتكرت في بدء دخولها مصر الخدمة في الجيش الإسلامي، وتولت المناصب الإدارية والعسكرية، وتنال العطاء من بيت المال إلا أنه وفي العصر العباسي عندما انقطع العطاء عن العرب، اضطر كثير منهم إلى التوجه إلى الزراعة والتجارة، ونزحوا إلى ريف مصر[2]، وخاصة بعد توارد الأخبار عن المعادن والذهب في جنوب مصر وبلاد البجة شرقي السودان. وتحدث الجغرافيون والرحالة المسلمون عن أرض المعادن وتبر الذهب والزمرد في جنوب مصر من أسواق (بلاد النوبة) شمالاً إلى مصوع ببلاد الحبشة جنوباً، وتركزت هذه المناطق وهذه الثروات في شرقي السودان وما عُرف ببلاد البجة فيذكر اليعقوبي (284هـ) أن من أراد المعادن والتبر خرج من أسواق إلى الضيقة والبويب والبيضية، وبيت ابن زياد، ثم عذيفر ثم جبل الأحمر ثم جبل البياض، وقبر أبي مسعود، ووادي العلاقي، مشيراً إلى أن رواد هذه المواقع هم طلاب تجارة الذهب والمعادن من العرب وغيرهم، وأشار إلى أن أغلب ساكني العلاقي من قبيلة ربيعة ويعمل معهم في تجارة الذهب عبيد لهم من أهالي البلاد، كما ذكر منازل جهينة وبلي في تلك البقاع وممارستهم لهذه التجارة، وعن طريق ميناء عيذاب في بلاد البجة ينقل التبر والعاج في

(1) القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص205.183.

(2) حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص103.

المراكب إلى أماكن شتى[1]. كما أشار إلى مواضع المعادن والزمرد في بلاد البجة، المسعودي[2] وابن حوقل[3].

كما تحدث عن هذه المواضع وانتشار العرب فيها الإدريسي (ت560هـ)[4]، إلا أن هذه المعادن لم تكن سهلة المنال للقبائل العربية، فقد قاتلت البجة دون أراضيها كثيراً، بل هاجمت حدود الدولة الإسلامية في أسوان قتلاً وسلباً ونهباً، ليس هذا بدافع الحرص على استثمار المعادن بقدر ما كان دفاعاً عن أراضيهم ومراعيهم فقد كانوا بدواً رعاة أبل حتى أن إبلهم تشتهر بنجابتها وإقبال العرب على شرائها. ومن تلك الحروب التي وقعت بين العرب والبجاة حتى تمكن العرب على إثرها من دخول تلك الأراضي واستثمار معادنها وتبرها، عندما هاجم البجاة وأهل النوبة مصر في الأعوام التي سبقت عام 31هـ، فاضطر المسلمون للدفاع عن أنفسهم لوقف هذه الهجمات، وتقدموا في بلاد النوبة والبجة بقيادة عبد الله بن سعد بن أبي السرح في حملة ثانية حتى توغل إلى دنقلا من بلاد النوبة، وجرت معركة قوية لم تكد تحسم إلا بالمنجنيق، فاضطر البجة إلى طلب الصلح، وعُقدت معاهدة «البقط» وهي تعني الالتزامات المتبادلة وما يتبعها من مدفوعات، واتفق الطرفان على أن يدفع النوبة أربعمائة من أواسط رقيقهم كل عام على أن يتسلموا مقابل ذلك سلعاً غذائية وثياباً، والأهم في هذه المعاهدة الحرية التجارية للمسلمين في بلاد النوبة دون أن يتعرضوا لأذى[5]. ووقعت عدة حروب ومعارك بين البجة والعرب في عدة فترات، ففي العهد العباسي وفي خلافة المأمون سنة 216هـ، كانت نتيجة هذه الحرب أن اندفع العرب باتجاه مناجم الذهب في وادي العلاقي كما قاموا بشراء أراضي

(1) كتاب البلدان: الملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رستة، ص334.
(2) مروج الذهب، ج2، ص20 و24.
(3) صورة الأرض: ص162.
(4) نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ج1، ص40.
(5) يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص27.

زراعية في بلاد النوبة، إلا أن وصول ربيعة بأعداد كبيرة إلى تلك الديار عبر البحر الأحمر قادمين من اليمامة بنجد إلى شرقي السودان كان في خلافة المتوكل العباسي، وإثر حروب متعددة مع البجة حتى عام 232هـ دانوا بعدها للحكم الإسلامي فتدفقت جماعات كبيرة من قبيلة ربيعة[(1)]، ويذكر المسعودي أنه في سنة 332هـ كان صاحب المعدن أبو مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعة[(2)]. وكان بأسوان بعد كنز الدولة وهم خليط من الحدارب وربيعة، وأبناء كنز الدولة قاتلوا النوبة وملوكها ثم اندمجوا فيها[(3)].

وأصبح معدنا الذهب والزمرد من أهم السلع التجارية التي يصدرها التجار إلى خارج بلاد البجة، وأدت وفرته إلى ازدهار النشاط التجاري، واستفاد التجار العرب من الأوضاع المستقرة في المنطقة خاصة في خلافة المتوكل العباسي حتى بلغ ما يصل بغداد من الذهب والزمرد والفضة خمس ما يتم استخراجه من وادي العلاقي. وأصبحت مصر التي كانت تشرف على تلك التجارة منافساً قوياً لبغداد في ضرب العملة، وأصبحت العملة المضروبة في بغداد أقل قيمة من نظيرتها المصرية فأنشئت في مصر عدة دور لسك العملة منها دار في صعيد مصر بقوص، ولهذه المدينة أهميتها لأنها تقع على الطريق التجاري الهام الذي يربط بين عيذاب والموانئ البجاوية الأخرى، وقربها من مركز التعدين في وادي العلاقي؛ وشجع الولاة التجار والقبائل العربية على تطوير وتوسيع أعمالهم في مجال التعدين فانتشرت الدنانير الذهبية، والحلي والجواهر الذهبية، والمصاحف المذهبة والسيوف والملابس الفاخرة والعمائم والأواني النحاسية والسروج، وبلغ ثراء بعض التجار حداً فاحشاً من الذهب[(4)]، ومع الذهب كان

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص53؛ ضرار صالح ضرار، هجرة القبائل العربية، ص120.100؛ يوسف فضل حسن: المصدر السابق، ص36.

(2) مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج2، ص20.

(3) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان، ص34.

(4) ربيع حاج: انتشار الإسلام في بلاد البجة، ص287.284.

معدن الزمرد في بلاد البجة أيضاً، ويصف المسعودي أنواعه بالقول أن «النوع الأول منها يعرف بالمر وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضرة كثير الماء.. والنوع الثاني يدعى بالبحري.. والنوع الثالث يعرف بالمغربي.. والنوع الرابع هو المسمى بالأصم..»[1]. إلا أن تجارة العرب لم تقتصر على استثمار المعادن، بل هناك من تاجر في جلب المواد الغذائية والثياب والخزف وريش النعام والعاج والماشية والرقيق، بل أصبحت تجارة الرقيق من التجارات الهامة لدى العرب في الجزيرة العربية وفي أراضي أفريقيا وفي مدن وعواصم الدولة الإسلامية التي تطلب الرقيق السوداني. وكان الرقيق فئتين فئة من النساء تتخذ كجواري وحاضنات وخدماً، ومن الرجال كخدم وعمال، وفئة اتخذت كجند، ومثال ذلك ما جرى في مصر في عهد أحمد بن طولون الذي اتخذ من هؤلاء ما يقدر بـ 40 ألفاً في جيشه، وتزايد هذا الجند في عهد الإخشيدين والعُبيديين وكان التجار العرب يعتمدون على التجار من أبناء هذه البلاد لجلب الرقيق[2].

وراجت تجارة أخرى قادها العرب هي إبل البجة التي وصفت بنجابتها وجودتها وخاصة التي عرفت باسم «الجمال البختية» نسبة إلى قرية بختة من قرى البجة ويصفها الإدريسي بقوله: «وإلى هذه القرية تُنسب الجمال البختية وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطاً، وهي بديار مصر معروفة بذلك»[3].

وقد أشار إلى هذه التجارة ابن بطوطة (ت 771 أو 779هـ) في رحلته بقوله: «ثم ركبنا من جدة في مركب يسمونه الجلبة، وكان لرشيد الدين الألفي اليمني الحبشي الأصل، وركب الشريف منصور بن أبي نُمي في جلبة أخرى ورغب مني أن أكون معه، فلم أفعل لكونه كان معه في جلبته الجمال، فخفت من ذلك

(1) مروج الذهب، ج2، ص24.
(2) يوسف فضل حسن: تاريخ السودان، ص36.
(3) نزهة المشتاق، ج1، ص47.

ولم أكن ركبت البحر قبلها...»[1].

وسيطر العرب على التجارة في الحبشة خاصة الجزء الشرقي منها على السواحل الإرتيرية والصومالية حتى عزلت الحبشة النصرانية عن العالم الخارجي خاصة، وقد مد المسلمون نشاطهم إلى ميناء زولا الثغر الوحيد لتجارة الحبشة على البحر الأحمر ولقى التجار العرب في الحبشة تقبلاً وترحيباً من سكان البلاد، وكانت منطقة القرن الإفريقي تشتهر بالأخشاب والتوابل والبن والعاج والجلود، بل إن انتشار الإسلام في تلك البقاع يعود الفضل فيه بعد الله عز وجل للتجار، وللنشاط التجاري الكبير الذي صاحب النشاط الدعوي الإسلامي في شرقي أفريقية، وسيطر التجار العرب على طرق القوافل الداخلية في تلك البلاد مما انعكس أثره على الإسلام فدخل منطقة جوبا أقصى منطقة داخلية جنوبية[2].

وتمثل نشاط القبائل العربية السياسي في ثلاثة أدوار هامة:

(1). فتح مصر.

(2). الصراعات والمواجهات العسكرية مع حكومات مصر. (من العهد الأموي إلى العهد المملوكي).

(3). إقامة الإمارات الإسلامية في شرقي أفريقية (القرن الإفريقي والسودان).

(1). فتح مصر

فُتحت مصر على يد عمرو بن العاص رضي الله عنه في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة 16هـ في شهر ربيع الأول[3]، وكان برفقته من القبائل العربية 3500 ثم ألحقه عمر بن الخطاب بالزبير بن العوام بعشرة آلاف وقيل

(1) تحفة النظار، ج2، ص98.

(2) غيثان: الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقية، بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، ج2، ص74.69.

(3) ابن كثير: البداية والنهاية: ترتيب وتهذيب محمد بن صامل السلمي، خلافة عمر بن الخطاب، ص79.

اثنا عشر ألف من العرب. واختط الزبير، بمصر الإسكندرية خطتين[1]، ثم اختطت قبائل العرب حول مدينة الفسطاط في سنة 20هـ، ثم اتسعوا في البلد فاختطوا على النيل واختطت قبائل العرب في المواضع المنسوبة إلى كل قبيلة، وبنى عمرو بن العاص مسجده ودار الإمارة وجعل الأسواق محيطة بالمسجد، وجعل لكل قبيلة محرساً وعريفاً[2].

(2) الصراعات والمواجهات العسكرية مع حكومات مصر

امتدت العصبية القبلية التي ثارت في الشام بين السبئية والقيسية في العهد الأموي إلى مصر، والتي كانت من عوامل زوال حكم بني أمية، ففي عهد مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية وقفت القبائل السبئية في مصر ضد بني أمية فبعث لهم الخليفة الأموي والياً قيسياً هو حوثرة به سهيل الباهلي[3] ودخل مصر بعرب من أهل الشام وتمكن من القضاء على الثائرين وقتلهم عام 128هـ[4]. وزاد وضع العرب سوءاً في عهد المعتصم بالله العباسي عندما أسقطهم من ديوان مصر وقطع عنهم العطاء، فثارت ثائرة العرب من لخم وجذام بقيادة يحي بن الوزير الجروي، فكلف المعتصم كيدر واليًا على مصر إلا أنه توفي قبل القضاء على الثائرين العرب، وتولى ابنه المظفر ولاية مصر، وتمكن من القضاء على ثورة العرب وأخذ يحيى أسيراً وضعف شأن العرب، وكثرت الأتراك في جيش الدولة العباسية[5].

---

(1) أحمد بن يحيى البلادي: فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، 1403هـ، ص15. 16.

(2) اليعقوبي: البلدان: ص330.

(3) حوثرة بن سهيل الباهلي، قائد أموي ممن ولي مصر، كان بدوياً قحاً كما يصفه الزركلي، وفصيح اللسان، وسفاكا للدماء، ولي مصر سنة 128، وقتله السفاح العباسي، انظر الاعلام، ج2، ص288.

(4) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج1، ص29؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص102.

(5) أبو المحاسن: المصدر السابق، ج2، ص223؛ المقريزي، المصدر السابق، ص104.

وفي خلافة المتوكل العباسي (232.247هـ) كانت هجرة قبيلة ربيعة من نجد عبر البحر الأحمر إلى شرق السودان (وادي العلاقي) كما سبقت الإشارة[1] إلى ذلك، وتمثل دورهم السياسي في التصدي لغارات البجة على مناطق الصعيد الأعلى ذات الأكثرية المسلمة[2]. والمشاركة في الحملات العسكرية، ومن ثم إقامة إمارة عربية لهم في أرض السودان الشرقي، وقد سبقت الإشارة في دور العرب التجاري إلى بعض ما وقع من حروب بين العرب والبجة منذ عهد الراشدين حتى العهد العباسي، فقد تمكن المأمون العباسي عام (216هـ) الحد من شرور وأذى البجة على بلاد المسلمين وغاراتهم المتواصلة عليها. وكانت لقائده عبدالله الجهم أو عبيد بن الجهم معاهدة معهم، خاصة وأن الإسلام لم ينتشر بينهم كثيراً ولم يضبطوا كثيراً من شرائعه[3]. وساهمت هذه المعاهدة في فتح الباب للقبائل العربية في استثمار المعادن في بلاد البجة، إلا أن البجة ما كانوا ليستكينوا فترة حتى يعاودوا ثوراتهم وغاراتهم على بلاد المسلمين، فكان ذلك في خلافة المتوكل العباسي[4]. وألح المسلمون على الخليفة العباسي بالشكوى من أذى البجة وكانت ربيعة قد تدافعت إلى بلاد البجة في تلك السنين، فسير المتوكل قائداً اسمه محمد بن عبد الله القمي من ولد أبي موسى الأشعري عام 241هـ، وأمده بالمال والسلاح، وكان جيشه من القبائل العربية من ربيعة ومضر واليمن ثلاثة آلاف رجل، والتقى بملك البجة على بابا ومعه مائتي ألف من البُجة، واتصف القمي بالمهارة والحنكة الحربية وأحسن إعداد جيشه، وكان معه حسك[5] الحديد وأجراس كثيرة، وطبول زنجية ضخمة وأسلحة جيدة، وسار بمحاذاة ساحل البحر الأحمر ليتلقى الإمدادات من المؤن التي

(1) اليعقوبي: البلدان: ص333؛ المسعودي: مروج الذهب، ج2، ص20.
(2) المقريزي: البيان والإعراب، ص44.
(3) المقريزي، البيان والإعراب، ص106.
(4) ابن حوقل: صورة الأرض، ص53.
(5) الحسك: ما يعمل من الحديد على مثاله، وهو من آلات العسكر. انظر الرازي: مختار الصحاح، ص57. ومن المرجح أنها نوع من السلاسل والكلاليب التي تعوق حركة جيش العدو.

حُملت له في سبع سفن أبحرت من القلزم ورست قريباً من عيذاب محملة بالمواد الغذائية، وبتلقيه المؤن ارتفعت معنويات جيشه رغم فارق العدد بين الطرفين، وبدأ رجاله يلقون في الساحة في طريق البجة بحسك الحديد الذي سيكون معوقاً لهم ويضر بأخفاف الإبل التي كانت تقدر بثمانين الفاً من النجب.

ولجأ إلى حيلة حربية برفعة كتبٍ في طوامير كتان بالذهب وجعلها بخيط جليل على الأسنة، ونادى عند طلوع الشمس هذه كتب أمير المؤمنين إليكم معاشر البجة، وهم يشاهدون الأمر، فاستحسنوه، وتوجهوا إليه لاستطلاع الأمر وبينما هم كذلك أمر القمي بضرب الطبول الزنجية التي كانت معه وأمر الخيالة بالهجوم وقد ربط حول أعناق خيل رجاله الأجراس بهدف بث الذعر في إبل البجة، وكان له ما أراد فهاجت الإبل وولت مدبرة تجاه الداخل وتطأ في طريقها من يعترضها، وتمكن جيش القمي من ملاحقتهم وضربهم بالسيوف حتى حلت بهم الهزيمة، وقضي الأمر واستسلم ملكهم علي بابا طالباً الصلح، ونقل علي بابا إلى بغداد للقاء المتوكل الذي أحسن استقباله وخلع عليه، وتم الاتفاق على أن تترك الحرية الكاملة للمسلمين في استثمار المعدن واستخراج الذهب في بلاد البجة دون أن يعترضهم أحد من البُجاة، ونَجَمَ عن حملة القمي بمن رافقه من القبائل العربية وعلى رأسها ربيعة استقرار العرب في تلك الديار(1). إلا أن القمي هذا قتل على يد كبير ربيعة ويدعى أشهب ربيعة أو هو يزيد بن بشر اغتيالاً(2).

ولم تقف غارات البجة عند هذا الحد، بل عاودت البجة غاراتها على بلاد المسلمين في مصر من بعد عام 255هـ فنهبوا وقتلوا، وفعلوا ذلك عدة مرات، فتصدى لهم رجل من قريش من بداية سيطرة الطولونيين على مصر، وذلك

(1) ابن حوقل: صورة الأرض، ص53؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص117.111.
(2) ابن حوقل: المصدر السابق، ص54؛ ضرار: المرجع السابق، ص117.

الرجل هو أبو عبد الرحمن عبدالحميد بن عبدالعزيز بن عبد الله بن عمر بن الخطاب، ودخل بلاد البجاة فنهبها وقتل فيهم فأكثر، وسبى عدداً لا يحصى منهم، وتابع عليهم الغارات حتى أدوا إليه الجزية ويصف ابن الأثير خروج العمري بأنه غضب لله وللمسلمين، حتى قوى أمره واشتدت شوكته فما كان من ابن طولون إلا أن تصدى للعمري خشية قيام إمارة عربية أو نفوذ عربي يقضي على نفوذ الأتراك في مصر، فأرسل له جيشاً إلا أن العمري طلب من قائد جيش ابن طولون أن يبين للأمير أن العمري خرج طلباً للجهاد ولم يخرج للفساد، ولم يتأذى به مسلمٌ ولا ذميٌ إلا أن قائد الجيش رفض، وقاتل العمري، فتمكن العمري من هزيمته وتزايد نشاط العمري في شرق السودان وبلاد النوبة جنوب مصر، ودخل في عدة صراعات مسلحة كان الانتصار حليفه في كثير منها وكاد أن يقيم له إمارة لولا دخوله في صراعات متعددة مع القبائل العربية التي استوطنت تلك الديار، وبعد فترة هجم عليه غلامان له وقتلاه غدراً وحملاً رأسه إلى أحمد بن طولون، فلما حضرا عنده سألهما عن سبب قتله فقالا: أردنا التقرب إليك بذلك فقتلهما، وأمر برأس العمري فغسل وكفن ودفن عام 259هـ[1]، إلا أن موت العمري وانتهاء محاولاته لبناء إمارة عربية في بلاد النوبة والبجة في شمال السودان وشرقه أراح كثيراً ابن طولون والنوبة والبجة وربيعة[2]. وتواصل دور ربيعة السياسي، وتمكنت من تأسيس إمارة عربية لها في العهد العبيدي «الفاطمي» متخذة من أسوان عاصمة لها وأقرهم الحاكم الفاطمي «العبيدي» الحاكم بأمر الله على إمارتهم وأطلق على أميرهم لقب «كنز الدولة» وتوارث هذا اللقب أبناؤه من بعده، خاصة بعد مساعدتهم للفاطميين في القبض على أبي ركوة الأندلسي، وهو رجل أموي يدعي الوليد بن هشام بن عبدالملك بن عبدالرحمن سعى إلى بناء دولة له في مصر، ورغم نجاح

(1) الكامل في التاريخ، ج5، ص370.369؛ المقريزي: البيان والإعراب، ص120.
(2) () ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص134.

أولى حروبه مع الفاطميين إلا أنه هُزم في عدة معارك مع الفاطميين وهرب إلى بلاد النوبة فدلت ربيعة على موقعه، فقبض عليه الفاطميون وقتلوه[1]. واستمر أبناء كنز الدولة يتوارثون الإمارة واللقب حتى كان آخرهم قُتل على يد الأيوبيين عام 570هـ[2]. وكما دعم العبيديون إمارة ربيعة شجعوا هجرة بني هلال وبني سُليم من الجزيرة العربية إلى مصر الذين كانوا عوناً للقرامطة في البحرين[3].

وقد تغلب بنو سليم على البحرين بدعوة الشيعة[4]، فلما تغلب بنو الأصفر على البحرين في سنة 378هـ باسم العباسيين وأخرجوا منها بني سليم، رأى العبيديون الفرصة سانحة لتشجيع هذه القبيلة وقبيلة بني هلال بالاتجاه إلى مصر للاستعانة بهم على خصومهم، إلا أنهم أكثروا الشغب في مصر، فشجعهم الفاطميون على الهجرة إلى بلاد المغرب لمحاربة ابن باديس واتباعه خصوم العبيدين بالقيروان والمهدية من بلاد المغرب، وقد كان المعز بن باديس قد أعلن انفصاله عن الفاطميين وخلع طاعتهم، لذا عزم الفاطميون على تسيير بني هلال وحلفائهم لقتال المعز، وكان ذلك في العام 442هـ وقد توسع ابن خلدون في الحديث عن دور بني هلال وبني سليم السياسي والعسكري والاجتماعي في بلاد المغرب[5]. وكذلك اصطدم الفاطميون ببني قرة من جذام الذي سكنوا البحيرة من مصر الذين ساندوا أبا ركوة الأندلسي عام 397هـ، إلا أن قضاء الفاطميين عليه جعل بني قرة يتفرقون عنه، ولكنهم عادوا إلى الشغب، فهاجمهم الفاطميون مستعينين بقبائل عربية أخرى مثل طيء وكلب، فهُزم بنو قرة عام 443هـ وانسحبوا إلى الصعيد واستقروا في قرية في

(1) المقريزي: البيان والإعراب، ص46.44، ص124؛ ضرار صالح ضرار، المرجع السابق، ص146.144.

(2) المقريزي: البيان والإعراب، ص46. ولمزيد من التفاصيل عن إمارة ربيعة في السودان، انظر ضرار صالح ضرار: المرجع السابق، ص96، وما بعدها.

(3) المقريزي: البيان والإعراب، ص116، ص127.126.

(4) الأنصاري: بين التاريخ والآثار، ص50.

(5) تاريخ ابن خلدون: ج6، ص60.18.

مديرية أسيوط[1].

وفي العهد الأيوبي والمملوكي الذي اتصف بالطابع التركي وتزايد الأعاجم وسيطرتهم على مقاليد الأمور في مصر والشام؛ اتخذت القبائل العربية دورين هامين أحدهما خارجي؛ تمثل في المشاركة في الجهاد ضد الصليبيين والمغول والدفاع عن حدود مصر بخاصة والدولة الإسلامية بعامة. وآخر داخلي؛ تمثل في صراعات عسكرية عنيفة مع الأيوبيين بشكل أقل ومع المماليك بشكل أكبر وأكثر حتى قُضي على سلطان القبائل ومكانتها في مصر. ففي حروب صلاح الدين (564.589هـ) مع الصليبيين تمثل دور العرب في عدة مواقع منها ففي عام 569هـ من شهر ذي الحجة هاجم ملك صقلية وليم الثاني الإسكندرية بحرياً، وهاجم الصليبيون المدينة وحاصروها، فاضطر أهلها للدفاع عن أنفسهم وبرز فيهم أبناء القبائل العربية من لخم وجذام وكندة والأزد وخزاعة، وكانوا يسكنون أحياء الإسكندرية مثل كوم الدكة وبركة جذام والبراكل وحارة الأزدي وشارع الحضارمة، وأبي قير شرقي الإسكندرية، ووصل جيش صلاح الدين وساهم في طرد المعتدين من الإسكندرية ومتابعة فلولهم[2]. وأثناء هجوم الفرنج على دمياط عام 615هـ برز دور القبائل العربية فأمر الملك الكامل الأيوبي والي الغربية أن يجمع العربان، ويشيد المقريزي بدور العرب بأنهم كان يتخطفون الفرنج في كل ليلة مما أثار الرعب فيهم؛ حتى وصل بهم الأمر أنهم يتخطفونهم نهاراً فيأخذون الخيمة بمن فيها[3]. وفي عام 647هـ أثناء حملة لويس التاسع[4] على دمياط أظهر العرب بطولات وأعمالاً فدائية، وأخذوا يتخطفون

---

(1) المقريزي: البيان والإعراب، ص117.116.

(2) المقريزي: السلوك، ج1، ص164؛ محمود السيد: تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، 1998م، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ص80.

(3) المقريزي: السلوك، ج1، ص313؛ محمود السيد: المرجع السابق، ص88.

(4) لويس التاسع: أحد ملوك فرنسا وقائد الحملتين الصليبيتين السابعة والثامنة، أُسر في معركة المنصورة، 1250م، وتوفي بالطاعون في تونس. انظر المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، ص501.

جنود الإفرنج ويأسرونهم[1]. كذلك توالى دور القبائل العربية الجهادي في عهد المماليك، وخير مثال على ذلك معركة عين جالوت التاريخية ضد المغول عام 658هـ، فعندما نادى منادي الجهاد للمشاركة في حرب المغول اجتمعت قبائل العرب من لخم وجذام وسنبس، وبرز عرب الشرقية والغربية لموقعهما القريب من أرض المعركة[2]. واستمرت مشاركات العرب في حروب المماليك مع المغول والصليبيين حتى كانت نهاية دولة المماليك عام 923هـ، عندما شارك العرب في معركة الريدانية ضد العثمانيين[3]، وانتهت المعركة بدخول مصر تحت الحكم العثماني.

إلا أن هذا الدور الجهادي لم يمنع الاصطدام المسلح بين العرب والأيوبيين والمماليك، من ذلك عندما هاجم الأيوبيون بني الكنز من ربيعة في جنوب مصر وهزموهم، فاضطر بنو ربيعة إلى الانسحاب إلى داخل السودان، وتوالت هجمات الأيوبيين على أسوان حتى خربوها عام 806هـ وذلك لما يراه الأيوبيون من تشيع ربيعة للفاطميين[4].

وكانت الثورات والصراعات العربية مع المماليك أقوى وأشد عنفاً، وقد كان العرب يرون أنهم أحق بالبلاد من هؤلاء المماليك المجلوبون إلى بلادهم، ولكن وطأة المماليك كانت عليهم حادة، واشتد العداء بين الطرفين وفُقدت الثقة بينهما، وأصدر المماليك الأوامر تلو الأوامر بمحاصرة العرب وأن لا يُمكنوا من ركوب الخيل ولا اقتنائها ومن خالف من العربان ذلك المرسوم الشريف ضربت عنقه وأرهق بالبطش[5]. فكانت أول ثورة ضد حكم المماليك قام بها رجل قرشي من آل جعفر الطيار ويسمون الجعافرة الأشراف، وهو الشريف حصن الدين

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص440؛ محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص91.
(2) المقريزي: السلوك، ج، ص520.513؛ محمود السيد، تاريخ القبائل العربية، ص99.
(3) محمود السيد: المرجع السابق، ص110.105.
(4) المقريزي: البيان والإعراب، ص125.
(5) محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص125.

ثعلب بن الأمير الكبير بن نجم الدين بن الأمير الشريف فخر الدين اسماعيل بن حصن الدولة مجد العرب، وأخذ يردد: «نحن أصحاب البلاد»، والتفت حوله مجموعات عربية مختلفة ومنع الأجناد وتناول الخراج، وكان ذلك سنة 651هـ، وتم الالتقاء بناحية دهروط صربان؛ واقتتل الفريقان؛ فكانت معركة كبيرة انتهت بانتصار المماليك فأوقعوا بالعربان قتلاً وسبياً لحريمهم وقتلاً لرجالهم، حتى قتلوا زعيمهم، وتفرق أمرهم[1].

وكان من نتائج هذه السياسة العنيفة ضد العرب أن تفرق شمل العرب في مصر وخمدت ثوراتهم؛ فاختلطوا بالمصريين حتى لا يعرفون حتى أصبح قبطيٌ أميراً على قبيلة عرب جذام، وعانى أمراء العرب وشيوخهم من المماليك الكثير من العنت والجور والتعسف، فكان المماليك يستولون على ثروات العرب وممتلكاتهم دون مبرر يذكر[2]. إلا أن الثورات لم تنقطع نهائياً، وكانت أغلبها ينطلق من أسيوط ومنفلوط بالصعيد، ففي عام 698هـ شكل مجموعات من العربان حلفاً كان ميدان معاركه منفلوط وأسيوط حتى تمكن المماليك من القضاء على هذه الثورة بعد ثلاث سنوات[3].

وقامت حركة لجهينة بقيادة محمد بن واصل العركي الذي يلقب بالأحدب ثورة كبيرة استمرت ما يزيد على خمس سنوات (749.754هـ) وأعلن نفسه أميراً وأحاط نفسه بالعرب، وهاجمه المماليك في عام 754هـ، وتصدى لهم بجيش قوام رجاله عشرة آلاف فارس سوى الراجلة، ووقعت عدة معارك حامية قتل فيها عدد كبير من الطرفين المملوكي والعركي والجهني، وانتهت بهزيمة العركيين والعرب الذين معه، ففروا هاربين إلى بلاد السودان[4]. حتى من تحالف مع المماليك من العرب لم يأمن جانبهم، فكان ذلك حال بني هلال الذين كانت

(1) المقريزي: السلوك، ج1، ص479.480.
(2) محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص133.
(3) المقريزي: البيان والإعراب، ص128.
(4) المقريزي: السلوك، ج4، ص18؛ المقريزي: المصدر السابق، ص130.

لهم نزاعات مع العركيين من جهينة، ولما دخل العركيون في حرب مع المماليك دعا المماليك بني هلال لمناصرتهم في هذه الحروب ضد العركيين، ولكن ذلك لم يكن حبل النجاة لهم من المماليك الذي كادوا لهم بحيلة وجمعوا من بني هلال أربعمائة فارس بسلاحهم، فجردهم المماليك من السلاح وانهالوا عليهم قتلاً حتى أفنوهم[1]. وتوالت ثورات عربية محدودة في مناطق مختلفة من مصر وشمال السودان لأسباب متنوعة على رأسها الأسباب الاقتصادية السيئة للعرب، وكانت تنتهي بالقمع الشديد من المماليك حتى نهاية العهد المملوكي عام 923هـ على يد العثمانيين[2].

(3) إقامة الإمارات الإسلامية في شرقي أفريقية (القرن الإفريقي والسودان):

قامت سبع إمارات وسلطنات إسلامية في القرن الإفريقي، سُميت بدول **الطراز الإسلامي** لأنها شكلت ما يشبه الطراز على ساحل البحر الأحمر المحاذي لبلاد اليمن، ودخلت منذ نشأتها في أواخر القرن السابع الهجري في صراع مع النصارى الأحباش وكذلك البرتغاليين فيما بعد وبدأت هذه الإمارات في التساقط منذ منتصف القرن العاشر الهجري في عهد الدولة العثمانية.

ولعلنا نتساءل ما أهم أسباب قيام هذه الإمارات، وما علاقتها بالحجاز وهي محاذية للساحل اليمني؟

ونذكر أن من أهم عوامل نشأة هذه الإمارات في القرن الإفريقي:

1. الهجرات العربية المتواصلة إلى إفريقيا عامة، والشرق منها خاصة.
2. البعد عن قلب الأحداث في الولايات الإسلامية الكبيرة مثل العراق والشام ومصر.
3. انتشار اللغة العربية والدين الإسلامي بين سكانها.

(1) المقريزي: المرجع السابق، ص130؛ ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص185.
(2) محمود السيد: تاريخ القبائل العربية، ص139، وما بعدها.

4 - وفرة الموارد التجارية التي دفعت بالعرب للتوطن في هذه البلاد وتكوين ممالك وإمارات لحمايتها واستثمارها.

ومما يلفت النظر أن المصادر والمراجع التي تحدثت عن هذه الإمارات لم تذكر أسماء أو تواريخ محددة لنشأة هذه الإمارات الإسلامية.

أما علاقة إمارات ساحل القرن الإفريقي بالحجاز فيتمثل في عدة جوانب منها:

1 - **الجانب السياسي:** فقد ذكرت مصادر هذه الإمارات أن لبعض عرب الحجاز وخاصة قريش أدوار هامة في نشأة وتأسيس هذه الإمارات.

2. **الجانب التجاري:** حيث كان لعرب الحجاز علاقات تجارية هامة أيضاً، بل وسيطروا على طرق القوافل التجارية إلى تلك الإمارات، إلى جانب إخوتهم باقي عرب الجزيرة.

وقد سبق إيضاح ذلك في دور العرب في نشر اللغة العربية والإسلام، وحركة التجارة.

وكانت قد سبقت الإمارات السبع لفترة زمنية مبكرة سلطنة «شوا» داخل الهضبة الأثيوبية وفي الجزء الشرقي منها، حيث موقع (أديس أبابا المعاصرة) عام 896م (283هـ)، وأنشأها جماعة من بني مخزوم من قريش، والتي قيل إنها عاشت قرابة أربعة قرون، وعلى أنقاضها قامت أولى دول الطراز «سلطنة أوفاف أو إيفات»[1].

1. سلطنة أوفات أو إيفات:

ويقال لها جبره بفتح الجيم والباء الموحدة والراء المهملة ثم هاء في الآخر والنسبة إليها جبرتي، وموقعها بين الإقليم الأول وخط الاستواء، ويقدرها أبو الفداء بأنها من حيث الطول سبع وخمسون درجة والعرض ثمان

(1) عبدالشافي غنيم: البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية، ص90؛ ناود: العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي، ص94.

درجات مشيراً إلى أنها من أكبر مدن الحبشة. وهي بقراها عامرة آهلة بالسكان وهي أقرب إلى الديار المصرية والسواحل المسامتة لليمن، بل هي أوسع الممالك السبع أرضاً وعسكراً، وتحكمت في الطريق التجاري الذي يربط الداخل بميناء زيلع، وقد أسس هذه السلطنة رجال من قريش من بني عبد الدار وقيل من بني هاشم من ذرية عقيل بن أبي طالب، وقدموا من الحجاز واستوطنوا أوفات، وحكموها فيما بعد وأول حاكم لها يقال له (عمرو أو يشمع)، ولم يعلم تاريخ هذه السلطنة إلا في حوالي (700هـ) ولكنهم يخضعون لملك الحبشة النصراني، مثل باقي إمارات الطراز[1].

2.سلطنة دوارو:

بفتح الدال المهملة وواو ثم ألف وراء مهملة وواو، وطولها خمسة أيام وعرضها يومان وتقع في إقليم سيدمو وكانت تمتد بين هوامش وأعالي نهر «وأبي شبيلي» المنطقة المعروفة باسم «آتو» شمال بالي، ورغم هذه المساحة الضيقة إلا أن بها جيشاً كبيراً يعدل جيش أوفات السابقة الذكر، ولا تختلف هذه الإمارة عن سابقتها فأهلها مسلمون يتبعون مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، ومعاملاتها التجارية بالمبادلة[2].

(1) أبو الفداء: تقويم البلدن، مكتبة المثنى. بغداد، ومؤسسة الخانجي بمصر، ص161.160؛ المقريزي: رسائل المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، تحقيق رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، الطبعة الأولى، 1419هـ. 1998م، دار الحديث، القاهرة، ص235؛ الأمير شكيب أرسلان: حاضر العالم الإسلامي، الطبعة الرابعة، 1394هـ.1973م، دار الفكر، المجلد الثاني، الجزء الثالث، ص83؛ ناود: العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي، ص95.94؛ محمد الطيب بن محمد بن يوسف اليوسف: إثيوبيا والعروبة والإسلام عبر التاريخ، ج2، ص28؛عبدالشافي غنيم: البحر الأحمر طريق للدعوة الإسلامية، ص91؛ غيثان: الإسلام واللغة العربية في دول الطراز خلال العصور الوسطى، سبق ذكره، ص96؛ حسن محمود: الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص409.

(2) رسائل المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص235، الأمير شكيب أرسلان: المرجع السابق، ص83؛ ناود: المرجع السابق، ص96؛ محمد الطيب: المرجع السابق، ج2، ص29.28؛ غيثان: المرجع السابق، ص99.

3. سلطنة أرابيني:

طولها أربعة أيام وعرضها كذلك، وعسكرها يقارب عشرة آلاف فارس أما الراجلة فكثير. وأهلها مسلمون أحناف[1].

4. سلطنة هدية :

بالهاء والدال والمهملة والياء المثناة التحتية ثم هاء في الآخر، وتقع بين الإقليم الأول وبين خط الاستواء، ويقدر طول مملكتها ثمانية أيام وعرضها تسعة أيام. وهي أقوى السلطنات السبع وأكثرها عدداً وعدة، وبالرغم من أن حكامها مسلمون إلا أن أغلب سكانها من الوثنيين. وتشتهر هذه السلطنة بتجارة الخصيان[2].

5. سلطنة شرخا :

بفتح الشين المعجمة وسكون الراء المهملة وخاء ثم ألف وهي مدينة تلي هدية، وطول مملكتها ثلاثة أيام وعرضها أربعة أيام، ويقدر عدد جيشها بثلاثة آلاف فارس، ورجالة الضعف، وسكانها أحناف[3].

6. سلطنة بالي:

تلي شرخا السابقة ولكنها أكثر خصباً وأطيب سكناً وأبرد هواء. ويحدها شمالاً نهر وأبي شبيلي، وسكانها أحناف[4].

(1) رسائل المقريزي: المصدر السابق، ص235؛ شكيب أرسلان، المرجع السابق، ص83؛ محمد الطيب: المرجع السابق، ج2، ص29؛ غيثان: المرجع السابق، ص99.

(2) أبو الفداء: المصدر السابق، ص161.160؛ رسائل المقريزي، المرجع السابق، ص235؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص83؛ غيثان: المرجع السابق، ص97؛ ناود: المرجع السابق، ص96؛ عبدالشافي غنيم: المرجع السابق، ص92؛ محمد الطيب، المرجع السابق، ص29.

(3) رسائل المقريزي: الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة، ص236؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، نفس الصفحة؛ غيثان: المرجع السابق، ص99؛ محمد الطيب: المرجع السابق، ص30؛ ناود: المرجع السابق، ص97.

(4) رسائل المقريزي: المرجع السابق، ص236؛ شكيب أرسلان: نفس المرجع، نفس الصفحة؛ ناود: المرجع السابق، ص97؛ غيثان: المرجع السابق، ص97؛ محمد الطيب، المرجع السابق، ص30.

7. سلطنة دارة:

تلي سلطنة بالي السابق ذكرها، ولكن هذه السلطنة أضعف الإمارات السبع وأقلها خيلاً ورجالاً وعسكرها لا يزيد على ألف فارس وراجل[1].

ويجدر بالملاحظة أن اشتداد الصراع بين الممالك الإسلامية وملوك الأحباش النصارى والبرتغاليين ومن ثم القضاء على هذه الممالك الإسلامية يخرج عن فترة البحث ليدخل في العهد العثماني من منتصف القرن العاشر الهجري.

وفي أواخر القرن التاسع والقرن العاشر الهجريين ظهرت في السودان إمارات أو سلطنات إسلامية عربية، وكانت أهمها سلطنة الفونج أو الفنج أو سلطنة سنار أو السلطنة الزرقاء التي قامت في العام 910هـ على يد جماعة من العرب يذكرون أنهم يعودون بنسبهم إلى بني أمية، وخرجوا بقيادة زعيمهم عمارة دنقس وسيطروا على الجزء الشمالي من السودان الشرقي، وامتد نفوذهم من مدينة مشو بجانب الشلال الثالث حتى جنوب عاصمتهم سنار الواقعة على النيل الأزرق، وشملت سلطنتهم أجزاء كبيرة من بلاد البجة في الشرق وكردفان في الغرب، واستمرت دولتهم حتى قضى عليها الحكم العثماني عام 1237هـ[2]. الموافق لعام 1821م.

وقد سبقتها سلطنة الفور أو «دارفور» في أقصى الجزء الغربي من السودان، وسكانها أفارقة زنوج، وهاجرت إليهم في فترات مختلفة بعض العشائر البربرية من شمال أفريقيا وبلاد المغرب، وكان يحكمها ملك سوداني أفريقي، حتى ظهر في منتصف القرن التاسع الهجري رجل عباسي قرشي من تونس اسمه أحمد

(1) رسائل المقريزي: المصدر السابق، ص236؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، المجلد الثاني، ص84؛ غيثان: المرجع السابق، ص98، (ولكن يلاحظ على غيثان جريس أنه خلط بين دارة ودوارو، وتحدث عن دوارو باسم دارة والعكس هو الصحيح)؛ ناود: المرجع السابق، ص96؛ محمد الطيب: المرجع السابق، ص31.

(2) ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص348؛ يوسف فضل حسن: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، الطبعة الثانية، 1392هـ.1972م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ص43؛ حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص311.312.

سفيان المعقور الذي أصبح مقرباً من الملك السوداني وتزوج ابنته الوحيدة وأنجب منها ابناً أسماه سليمان وبوفاة والده، وجده لأمه أصبح سليمان أول ملوك الغور العرب الذين يعود نسبهم إلى العباسيين، عام 848هـ واستمرت هذه السلطنة حتى استولت عليها الحكومة المصرية عام 1898م (1316هـ)[1].

(1) ضرار صالح ضرار: هجرة القبائل العربية، ص592.588، وانظر يوسف فضل: مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، ص84.79؛ حسن محمود، الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، ص323.

ثانياً ـ رحلة الحج عبر الموانئ:

1) أهم الموانئ على الساحل الإفريقي للبحر الأحمر التي يرتادها الحجاج، ورأى الرحالة العرب فيها.

- **القلزم (السويس):**

القلزم بالضم ثم السكون ثم زاي مضمومة، وميم. والقلزمة ابتلاع الشيء.

وهو ميناء قديم يقع على الطرف الشمالي للبحر الأحمر، ويبعد مسافة نصف كيلو شمالي مدينة السويس الحالية، وظهرت أهميته بعد الفتح الإسلامي لمصر فأصبح ميناء مصر الرئيسي في البحر الأحمر، كما زادت أهميتها بعد حفر خليج أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الواصل بين الفسطاط والقلزم، وتبوأ هذا الثغر مكانة كبيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري عندما هجرت البلدة وشملها الخراب، وحلت محلها السويس، فيذكر ياقوت أنها كانت في زمانه خراباً، وحل محله السويس، وتولت هذه المدينة الوليدة نفس المهمة من الدور التجاري إلى الدور الديني في نقل حجاج بيت الله إلى الديار المقدسة في الحجاز[1].

وما بين القلزم وعيذاب يرد ذكر مينائي القصير والطور كمرفأين صغيرين ولم يكونا بأهمية القلزم وعيذاب.

- **عيذاب:**

بالفتح ثم السكون وذال معجمة وآخره باء موحدة[2].

ويتحدث عنها ناصر خسرو في رحلته عام 442هـ في عهد (الخليفة الفاطمي العبيدي المستنصر) بأن بها مسجد جامع وسكانها لا يزيدون على خمسمائة نفس ذاكراً أنها تتبع سلطان مصر، وهي مركز تجاري مزدهر من مراكز

---

(1) الحموي: معجم البلدان: ج4، 387.388؛ اليعقوبي: البلدان، ص340؛ الإصطخري، المسالك والممالك، ص30؛ ابن حوقل: صورة الأرض، ص47؛ القوصي: تجارة مصر في البحر الأحمر، ص40؛ العبيدي: التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك، رسالة ماجستير، ص175.

(2) ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص171.

جمع الخراج السلطاني يؤخذ من السفن القادمة إليها من الحبشة وزنجبار واليمن، ويصف أهلها البجة بالبداوة والوحشية، ولا يدينون بدين[1]! إلا أنهم في رأيه لا يسرقون ولا يغيرون على القوافل، كما تحدث عن سمات جِمَال البجة، وكذلك نوع السمك في بحر عيذاب[2].

وفي العهد الأيوبي يتحدث عنها ابن جُبير في رحلته بتاريخ 579هـ، ويصفها بأنها أحفل مراسي الدنيا؛ بسبب أن مراكب الهند واليمن تحط فيها وتقلع منها، إضافة إلى مراكب الحجاج الصادرة والواردة، بالرغم أنها مدينة تقع في طرف صحراء لا نبات فيها، ولا يؤكل فيها شيء إلا مجلوب، ويعمل أهلها على نقل الحجاج براً من وإلى عيذاب، وبحراً إلى الديار المقدسة. مشيراً إلى أن أهلها لا يدينون بدين سوى ما يظهرونه من ترديد كلمة التوحيد إظهاراً للإسلام![3].

ولا يختلف كثيراً وصف الرحالة التجيبي (ت 730هـ)[4] وكذلك ابن بطوطة في رحلته (ت 771هـ)[5]. ويذكر المقريزي (ت846هـ) أن حجاج مصر والمغرب أقاموا زيادة على 200 سنة يعبرون بحر عيذاب إلى جدة، وكذلك تجار الهند واليمن والحبشة. مبنياً بدايتها باتجاه الحجاج والتجار إليها كميناء هام من عهد الخليفة العبيدي المستنصر بالله حتى عهد السلطان المملوكي الظاهر ركن الدين بيبرس (659.678هـ) والذي استخدم الطريق البري عبر سيناء لقوافل الحجاج سنة 666هـ، ومن ثم بدأ يتلاشى أمر عيذاب حتى سنة 760هـ[6].

(1) إذا كانوا يقولون كلمة التوحيد ويعترفون بالإسلام، فلا يقال إنهم لا يدينون بدين، وإنما يقال لا يعرفون من الدين الحق غير كلمة الشهادة.
(2) سفرنامة: ص131.
(3) رحلة ابن جُبير، ص45.
(4) مستفاد الرحلة والاغتراب: ص205.
(5) تحفة النظار، ص42.
(6) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج1، ص202.

وقد تعرضت عيذاب للغزو الصليبي في عام 578، وتعرض الحجاج والتجار للقتل والسلب والنهب على أيدي الصليبيين الغزاة ومنها عبروا إلى الحجاز، حتى أدركتهم الجيوش الأيوبية وتمكنت من القضاء عليهم قبل وصولهم إلى مدينة المصطفى محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبعد اتخاذ طور سيناء طريقاً للحاج المصري والمغربي أخذت عيذاب في الاندثار والزوال حتى غزاها ملك نوبي يدعي داود سنة 760هـ وقتل أهلها وأسر أعيانها، وضرب دورها(1). إلا أنها استمرت ميناءً بحرياً عادياً حتى زمن ابن إياس، وتبع انهيار هذا الميناء انهيار الموانئ المقابلة له على النيل، فهجرت عيذاب لتندثر نهائياً في القرن العاشر الهجري، ويتلاشى طريقها التجاري ويتحول عنها التجار والحجاج(2).

- **سواكن:**

تقع على بعد 349 ميلاً جنوب عيذاب على ساحل البحر الأحمر في بلاد السودان(3)، وترفأ إليها السفن القادمة من جُدة(4)، وبرزت أهميتها بعد بدء تضعضع دور ميناء عيذاب التجاري من القرن الثامن الهجري، ويهتم ميناؤها بنقل تجارة الحبشة والنوبة، وتصلها بحراً سفن الحبشة، وبراً قوافل النوبة محملة بالرقيق والشمع والعسل وقد ورد ذكرها في عدة حوادث أثناء الصراع التجاري بين عدن وجدة في العصر المملوكي، فسوء المعاملة التي يتعرض لها التجار في عدن أو جدة تدفعهم للتوجه إلى سواكن(5).

ويصفها ابن بطوطة بأنها لا يوجد بها ماء ولا زرع ولا شجر، والماء يجلب

(1) محمد صالح ضرار: تاريخ السودان (البحر الأحمر. إقليم البجة)، ص 153.146.
(2) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة ومحطاتها بين الشرق والغرب، ص144.143.
(3) محمد صالح ضرار: تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الطبعة الأولى، 1401هـ.1981م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم، ص23.
(4) ياقوت: معجم البلدان، ج3، ص276.
(5) نعيم زكي فهمي: طرق التجارة، ص141.

إليها في القوارب وفيها صهاريج يجتمع بها ماء المطر، وبها لحوم النعام والغزلان وحمر الوحش والمعزى، والألبان والسمن وتجلب هذه المنتجات وكذلك الحبوب إلى مكة، وكان سلطانها حين وصوله إليها الشريف زيد بن أبي نمي[1]، وصارت إليه من قبل البجاة فإنهم أخواله، ومن عسكره البجاة وعرب جهينة[2].

2) رحلة الحاج المصري[*3]

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنْهَا وَأَطْعِمُواْ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ٢٨﴾[4].

تنطلق رحلة الحاج المصري إلى الحجاز من الفسطاط ثم القاهرة فيما بعد[5]، ويتجمع الحجاج في بركة الحاج أو «الجب» «جب عميرة» وتقع إلى الشمال الشرقي من القاهرة، ثم تليها محطة البويب وهي مضيق بين جبلين

(1) هو زيد بن أبي نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة الحسني المكي، يكنى أبا الحارث، ويذكر الفاسي في العقد الثمين، ج4، ص153 أنه لا يعلم هل هو زيد الأكبر أم زيد الأصغر وأنه يملك سواكن، أما عز الدين عبد العزيز فهد في غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج2، ص42، فإنه يشير إلى أن الاثنان من أبناء أبي نمي، والأكبر قتله بعض العرب.

(2) تحفة النظار في غرائب الأمصار، المجلد الثاني، ص101.100.

(3) (*) من أهم مصادر طريق الحاج المصري: الجزيري: عبد القادر بن محمد بن عبد القادر الأنصاري: درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، تحقيق حمد الجاسر، الطبعة الأولى، 1403هـ1983م، منشورات دار اليمامة، الرياض، ج2، ص1427.1303 (عن منازل ومحطات طريق الحاج المصري ومسافاتها ومقاساتها وأبعادها بالتفصيل، ويرجع ذلك لشغل الجزيري سنة 944 منصب كاتب ديوان الحج، كما شغله أبوه قبله منذ مطلع القرن العاشر الهجري، فكانت له معرفة مفصلة بالطريق)؛ وانظر: كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة المنسوب للحربي، تحقيق حمد الجاسر، دار اليمامة، 1420هـ، (وهي طبعة جديدة بعد تعديل نسبة الكتاب إلى القاضي وكيع). ص399. ص402؛ ابن خرداذبة المسالك والممالك، ص119؛ ابن قدامه: نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة، ص190؛ علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص66.65؛ سيد عبد المجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، 1401هـ1981م، ص144.104؛ آمنة حسين محمد علي جلال: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراة غير منشورة، جامعة أم القرى، 1407هـ، ص23.

(4) سورة الحج: آية 27، 28.

(5) المقريزي: السلوك: ج3، ص280، حوادث سنة 740.

صغيرين به تل رملي مستطيل، وتقدر المسافة بينها وبين بركة الحاج بـ15كم أو ثلاث ساعات، ويصل الحاج إلى عجرود وهي إلى الغرب من السويس على مسافة 20كم تقريباً، وتتبع عجرود السويس حالياً[1] مع العلم أن مسير الحاج المتجه إلى سيناء لا يمر بمدينة السويس، متخذا ممراً بشمالها يدعى بجسر السويس ومنه يُعبر إلى سيناء، ومن جسر السويس إلى نخل، وتنطلق المسيرة المباركة بعد الجسر بمصب وادي الحاج مروراً بالنواطير الثلاثة وهي عبارة عن ثلاثة أعمدة من الحجارة بين كل منها مسافة ساعة ونصف، ويتواصل المسير حتى يصل إلى مفرق وادي الحاج، وبعد المفرق يطلق على الوادي وادي الحيطان لإحاطة الجبال به ومنه صعوداً إلى شرفة الحاج بقدر ساعة ونصف من المفرق السابق، ومن ثم هبوطاً إلى سهل التيه، ويتواصل المسير من مفرق الحيطان إلى وادي السحيمي بعد مروره بوادي الأغيدة، ثم يلتقي بوادي النتيلة ووادي أبو جذل حتى الوصول إلى نخل، وهي من أهم محطات الحاج المصري عبر شبه جزيرة سيناء والتي تبعد عن القاهرة بمسافة 274كم، ومن نخل إلى العقبة 117كم، ويسير منها الحاج إلى العقبة على مراحل، ويواصل الحاج طريقه نحو الشرق بميل قليل نحو الجنوب الشرقي حتى يصل إلى وادي رحية «المشاش»، حتى يمر بجنوب جبال الحمراء الواقعة في جنوب شرقي سيناء، وشمال نقب العقبة، وهذا النقب يعد أصعب مراحل طريق الحاج المصري، ويطلق عليها رأس النقب وله عدة قمم ومرتفعات مثل جبل الشنانة وجبل أبو جدة وجبل الردادي، وقد جهد الحكام في هذه العقبات حفراً ونقباً ليسهل طريق الحاج، ويدل على صعوبته ووعورته أنه متعرج شديد الانحدار فرأس الطريق عند المفرق بالقرب من نهاية العقبة يرتفع بما يقدر بنحو 620م عن نقطة المرشش ونقب العقبة يبعد عن مدينة العقبة بنحو 22كم.

(1) سيد عبدالمجيد: المرجع السابق، ص106.

ويتواصل السير صعوداً من نخل الجبل مع وادي المحسرات، حتى وادي المصري منه إلى قنطرة ومنها إلى منطقة مقعد الباشا، ثم إلى منطقة رجم الدرك، حتى وادي القريقرة حتى جبل المسان ومنه إلى المفرق، وبذلك تم عبور نقب العقبة، فيستخدم الحاج طريق شاطئ العقبة ماراً ببلدة «المرشرش» أم الرشراش على رأس الخليج قاطعاً وادي عربه حتى يصل إلى مدينة «أيلة» «العقبة» ثم يتواصل المسير ساحلاً حتى بلدة حقل الواقعة على الشاطئ الشرقي لخليج العقبة، وتقع هذه البلدة في وادي المبرك، ومن حقل نحو الشرق بقليل وصولاً إلى جبل جنوب حقل هو ظهر الحمار، ويستمر الطريق في وادي أم جرفين ماراً بين عدة جبال حتى يصل إلى بئر مجيفل، ومنه إلى الشرف أو شرفة، وهي مرتفعات جبلية جنوب شرقي حقل وتبعد عنها 45كم، ويقدر ارتفاعها بنحو 1763م، ومن هذه المنطقة الوعرة يسير الطريق من مجرى وادي عفال (مغائر شعيب مدين البدع) ويقدر طوله 190كم نزولاً من الشرف[1].

وقد كان للحاج المصري في الفترة الإسلامية المبكرة بعد خروجهم من مَدْين طريقين: أحدهما داخلي والآخر بمحاذاة الساحل، فأما الطريق الذي يبتعد عن الساحل فيتوجه جنوباً بشرق ماراً على شغب، ثم بدا مروراً بعدد من المنازل حتى يتمكن من الوصول إلى وادي القُرَى ملتقياً بذلك في السقيا (الخشيبة) بطريق الحاج الشامي ليسيرا إلى المدينة المنورة وقد كان هذا الطريق الأكثر استخداماً خلال القرنين الهجريين الأول والثاني، ومن القرن الثالث كُثر استخدام الطريق الساحلي، حتى أهمل نهائياً الطريق الداخلي[2].

ويتواصل الطريق الساحلي بعد مدين إلى عينونا ماراً بطريق شرمة وتريم والنبك (المويلح) ووادي الغال (وادي القسطل) وضباء، والأزلم، وبركة عنتر،

(1) سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافية، ص125.

(2) علي إبراهيم غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى، 1404هـ/ 1993م، ص209، وللمؤلف بحوث ودراسات آثارية هامة على منازل هذا الطريق وبعض مدن وموانئ شمال المملكة على ساحل البحر الأحمر. (موانئ شمال الحجاز)، ص219.259.

والوجه، وبين النهدي. ووادي العرجا، وبركة أكرى وبئر القروي، والحوراء[1] وينبع البحر[2]، إلى المدينة ويسمى الطريق المنطلق من الحوار إلى ينبع الفرع الساحلي ويمر ببئر قنير ويواصل سيره نحو الجنوب ويمر بوادي خماس ثم جبل البوانة ثم يمر بوادي نبط قرب مصبه في البحر الأحمر، ويمر بجبل جربول شمال شرم الخور، ويتجه شرقاً ماراً بوادي كمال، وفي شمال شرم ينبع يميل نحو الجنوب الشرقي ليصل ينبع البحر سيراً على السهل الساحلي[3]، مع العلم أن الجار[4] كانت أيضاً طريقاً للحاج المصري في الفترات المبكرة حتى كان العهد الأيوبي الذي ظهر في عهده ميناء ينبع بشكل بارز. ويتجه الطريق إلى جنوب شرقي ينبع البحر حتى يصل إلى آبار المسيحلى ثم إلى آبار سعيد عبر وادي الصفراء، حتى بئر عباس بوادي الصفراء، ثم المسيجيد فيخرج من وادي الصفراء باتجاه الشرق إلى بئر الروحاء إلى الشمال الشرقي حتى يصل المدينة المنورة.

ومن بدر إلى رابغ، فخليص، فعسفان، ومنها إلى وادي فاطمة (مر الظهران). «الجموم» ومنها إلى سرف إلى التنعيم ومنه إلى وادي الزاهر، وذي طوى ويسير الحاج إلى وادي الأبطح حيث يتفرق الحجاج بنواحي مكة شرفها الله[5].

وقد انقطع هذا الطريق فترة من الزمن وهي أواخر القرن الخامس الهجري في عهد العبيديين أو ما سمي بالشدة العظمى حيث عجز العبيديون عن دفع نفقات الطريق وتأمين سبله، وكذلك بسبب احتلال الصليبيين لأيله «العقبة» أهم محطات هذا الطريق ومدخله الوحيد إلى الحجاز، وتحول

(1) علي غبان: الآثار الإسلامية، المرجع السابق، ص215.
(2) وكذلك ينبع النخل من محطات طريق الحاج المصري الذي يستريح في العشيرة. انظر الجزيري: درر الفرائد، ج2، ص1414.
(3) سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافية، ص141.
(4) الحربي أو القاضي وكيع: المناسك أو كتاب الطريق: ص402؛ ابن خرداذبة، المسالك والممالك، ص149؛ ابن قدامة، ص65.
(5) آمنة جلال: طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراة سبق ذكرها، ص71.66.

طريق الحاج المصري إلى عيذاب ومنها إلى جدة، والذي استمر قرابة 200عام حتى عاد الطريق البري الساحلي مرة أخرى في عهد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة 666 أو 667هـ[1].

رحلة الحاج المصري (القاهرة.عيذاب.جدة)[2]

وتبدأ الرحلة من ميناء الفسطاط جنوبي القاهرة عبر نهر النيل حتى الوصول إلى أسكر على الضفة الشرقية للنيل ومنها إلى منية ابن الخصيب وتستغرق الرحلة إليها عبر النيل خمسة أيام، ثم يتجه الطريق النهري إلى أنصف، ثم إلى مرسى جبل المقلة أو المقلا، ويقع بالشط الشرقي للنيل، ويمثل نصف الطريق إلى قوص، ومنه إلى مدينة منفلوط وتقع على الشاطئ الغربي لنهر النيل، ثم إلى مدينة أسيوط على الشاطئ الغربي لنهر النيل، وهي من أهم مدن الصعيد ومنها إلى بلدة أبي تيح، وتمر السفن بمدينة أخميم من مدن الصعيد ومنها إلى البلينا على الشاطئ الغربي للنيل، ومنها إلى الشاطئ الشرقي لنهر النيل إلى بلدة وشنا، ومنها إلى قنا من المدن الهامة بصعيد مصر ثم يتجه الطريق إلى قوص حيث المحطة النهائية عبر النيل وهي مدينة كبيرة وهامة وملتقى حجاج مصر والمغرب، ومنها يبتدئ الطريق البري إلى عيذاب على البحر الأحمر عبر صحراء مصر الشرقية من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي لتقطع صحراء عيذاب من قوص إلى جنوب رأس بغدادي على ساحل البحر الأحمر، فتسير الرحلة بموازاة ساحل البحر حتى تصل إلى عيذاب، بمقدار 17 يوماً، وهي رحلة برية شاقة لقلة المياه، وقسوة سكان تلك القفار وهم البجاة الذين اتصفوا بالقسوة والغلظة، وتحدث عن أخلاقهم وسوء معاملتهم كثير من الرحالة الذين عبروا هذا الطريق ممن سبقت الإشارة إلى آرائهم أمثال ناصر خسرو، وابن جبير، والتجيبي، وابن بطوطة، وغيرهم.

(1) علي غبان: الآثار الإسلامية، سبق ذكره، ص212.

(2) ابن جبير: الرحلة، ص5232؛ سيد عبدالمجيد بكر: الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ص159.149.

وينطلق الركب من قوص إلى المبرز ويجتمع فيها الحاج لشراء جميع حاجاتهم استعدادًا لرحلة برية شاقة، تليها رحلة بحرية شاقة أيضاً فيبدأون من المبرز إلى مكان يسمى الحاجر، ومنه إلى اللقيطة، ومنها إلى وادي دندان، ويتواصل المسير الشاق إلى منطقة المحدث ثم الميراد، ويمر الحاج بوادي منيح، ووادي الشلول، ثم ينتقل إلى ماء يدعى الدغيج، وينزل بمكان يسمى الجهندي، وهو منهل للحاج، ومنه إلى منطقة الحريفاء ثم إلى دنقاش وبها ماء كثير ثم إلى منطقة شعتان وبها بئر أم قيور، ويواصل الحاج طريقه غربي سواحل البحر الأحمر نحو الجنوب حتى يصل إلى منطقة أمتان ويوجد بها بئر ماء عذب، ويرتحل منها إلى منطقة حميثرة، ومنها إلى منطقة سلا، وتعترض قافلة الحاج بعض مرتفعات البحر الأحمر، وتتواصل المسيرة إلى مكان يعرف بمجاج وهو مورد ماء ومنه إلى الحسا وإلى شهاب حتى منطقة العشراء، ومنها إلى منطقة الخبيب بالقرب من عيذاب، حتى تصل القافلة إلى عيذاب على ساحل البحر الأحمر، وينتقل الحاج المصري والمغربي خاصة والإفريقي بعامة عبر هذا الميناء إلى ميناء جدة بحراً. ومن جدة إلى القرين «بحرة» ومنها إلى مكة المكرمة[1].

2) رحلة الحاج المغربي:

للبحث في أهم مراحل ومنازل الحاج المغربي إلى الديار المصرية ليستكمل الرحلة مع أخيه الحاج المصري إلى الديار المقدسة اطلعت على عدد من الرحلات المغربية المشهورة[2] إلى أرض الحجاز ومما يلاحظ أن الحج إلى مكة كان سبباً هاماً في تميز الرحلات الأندلسية والمغاربية، مما دفع بالمغاربة والأندلسيين لأن يهتموا بتدوين رحلاتهم، كما ساهم تحسن وسائل النقل البحري وبناء السفن

(1) ناصر خسرو: سفرنامة، ص135.127؛ ابن جبير: في رحلته، ص49.32؛ سيد عبدالمجيد بكر، الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، ص164.149؛ انظر: خرائط الطريق ص395-396.
(2) رحلة بن جبير، ورحلة العبدري، ورحلة ابن بطوطة، ورحلة البلوي.

لدى المغاربة والأندلسيين في ازدهار هذه الرحلات، وتفوقهم في علم الجغرافية وتحديد المواقع والبلدان، واستثمار معرفتهم بالبوصلة البحرية. كما أن معرفة المغاربة الجيدة بمفاوز ومجاهل أفريقيا، دفعهم إلى الارتحال والتنقل.

ولعل من أشهر الرحلات المغربية الحجازية رحلة أبي الحسن محمد بن ابن جبير 614.540، ورحلة ابن سعيد المغربي 685.605 (النفحة المسكية في الرحلة المكية) ورحلة العبدري 688هـ، ورحلة أبي عبيد الله بن رشيد 711.658، ورحلة البلوي في القرن الثامن الهجري، ورحلة ابن بطوطة (ت 779هـ)، ورحلة أبي العباس أحمد بن الحسن بن قنفد القسطنطيني المتوفي (809هـ) ورحلة العياشي (ت 1090هـ)، إلى غير ذلك.

وتفوق المغاربة في أدب الرحلات برز في رحلاتهم إلى الحجاز، ولعل مرد ذلك هو الحنين إلى مهابط الوحي والتنزيل، وأداء فريضة الحج، والاتصال بعلماء المسلمين في الحرمين الشريفين وفي مصر والشام[1].

وبالرغم من أن رحلة الحج المصري تميزت بالتنظيم والترتيب والإشراف والإدارة المباشرة من حكام مصر بتعيينهم أميراً للحج وخروج ركب منظم تنظيماً متكاملاً، واشتهار الركب المغربي بخروجه جماعات صغيرة للحج، إلا أن ذلك لا يعني أنه لم تكن هناك رحلات حجيج منظمة، فقد ظهرت هذه الرحلات المنظمة في ركب أبي محمد صالح المتوفى (631هـ)، وشرح عن تلك الرحلة الكانوني في كتابه (اسفى وما إليه) بل أن اتباعه كانوا يبنون المنازل للحجاج في طريقهم الطويل التي تبتدئ ببلاد حاحة بالمغرب الأقصى إلى الإسكندرية، والعمل على بناء مراكز إيواء للحجاج المغاربة. وقد اتخذ المغاربة عدة طرق للحجيج منها طريق صحراوي عبر سجلماسة[2]، وطريقين آخرين،

(1) السائح: العلامة الحسن: محقق كتاب: (تاج المفرق في تحلية علماء المشرق: خالد بن عيسى البلوي)، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة، ج1، ص90.80.

(2) سجلماسة: في صحراء المغرب، على نهر زيزن من أعظم مدن المغرب، وتقع على طرف الصحراء،

بحري وساحلي[1].

وكان الحجاج المغاربة يلقون معاملة حسنة من حكام مصر، فقد ذكر ابن جبير أن صلاح الدين الأيوبي جعل مسجد ابن طولون مأوى الغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقّون فيه، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر[2]. وسهل حكام مصر المماليك أداء الفريضة للحجاج المغاربة وباقي مناطق افريقيا عبر الأراضي المصرية إلى الحجاز ففي عام 764هـ حج سلطان المغرب عبد الرحيم في محمل كبير[3].

كما قدم حجيج مغربي إلى مصر عام 788 وبرفقه هدية قيمة من الخيول المغربية من سلطان تونس ورسالة إلى السلطان المملوكي برقوق، فاهتم بهم السلطان وجهزهم للحج وأوصى بهم أمراء المحمل المصري، بل أثناء عودتهم أرسل معهم هدية للسلطان الحفصي[4].

ويخرج الحاج الأندلسي للبحر من مدن الأندلس الجنوبية مثل غرناطة[5] عبر البحر المتوسط إما إلى مدن المغرب الأقصى أو المغرب الأوسط كالجزائر ومنها إلى تونس ومدن ليبيا إلى مصر، أو عبر البحر مباشرة إلى الإسكندرية الميناء المصري على البحر المتوسط ومنها براً إلى القاهرة ويمر الحاج الأندلسي في البحر بعدة جزر وحصون منها للروم ومنها للمسلمين ومن ذلك رحلة ابن جبير عام 578هـ التي انطلقت من غرناطة إلى جيان، فحصن بقنداف وحصن

ويقصدها الكثير، بها القصور والعمارات وقد بنيت في سنة 140هـ وأسسها مدرار بن عبدالله، وبها كان قيام الدعوة العبيدية. ولمزيد التفاصيل انظر الحميري: الروض المعطار، ص306. وتقع جنوب المغرب الحالية وهي مهد دولة الأشراف العلوية. المنجد في اللغة والأعلام، ص297.

(1) السائح: العلامة الحسن: محقق رحلة البلوي: المصدر السابق، ص83.

(2) الرحلة، ص26.

(3) الرشيدي: حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمارة الحاج، تحقيق، ليلى عبداللطيف أحمد، 1980م، مكتبة الخانجي بمصر، ص136.

(4) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص67.

(5) غرناطة: معناها رمانة بلسان عجم الأندلس، وسميت بذلك لحسنها، وهي أقدم مدن كورة البيرة من أعمال الأندلس. انظر ياقوت: ج4، ص195.

قبرة، إلى مدينة إستجه وحصن أشونة، وشلبر، إلى حصن أركش إلى قرية القشمة إلى جزيرة طريف[1]، وعبر البحر المتوسط وعلى ظهر مراكب للروم إلى قصر معمورة[2]، وإلى سبتة[3] على الساحل المغربي، ومواصلاً السير بحراً إلى الإسكندرية مروراً بعدة جزر منها جزيرة ميورقة، وجزيرة منورقة، وجزيرة سردانية، وجزيرة أقريطش[4] حتى الاسكندرية[5]، والتي ينتقل منها ابن جبير إلى دمنهور مجتازاً النيل إلى قرية بصا، وقرية برمه، وطنطا، وقليوب والمنيا. فالقاهرة، ومن القاهرة إلى جنوب مصر «الصعيد» إلى قوص، وهي ملتقى حجاج مصر والمغرب العابرين طريق عيذاب جدة[6].

إلا أن رحلة العبدري عام 688هـ أكثر توضيحاً لطريق الحاج المغربي، فقد انطلق الرحالة المغربي أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن مسعود العبدري الحيحي من بلاده حاجه بالمغرب الأقصى، ومنها إلى أنسا من أعلى بلاد السوس الأقصى[7]، متجهاً قبلة عبر صحراء المغرب الشرقية، حتى

(1) مجموعة مواقع وقرى جنوب الأندلس.

(2) قصر معمورة: حصن كبير بينه وبين سبتة اثنا عشر ميلاً، ويقع على الساحل المغربي على البحر المتوسط، وتنطلق منه المراكب مسافرة إلى الأندلس. انظر: الحميري: الروض المعطار، ص476.

(3) سبتة: تقع على الساحل المغربي على البحر المتوسط، ويحيط بها الماء من ثلاث جهات إلا من جهة الغرب، ولمزيد من التفاصيل انظر: الحميري: الروض المعطار، ص303. وهي الآن تخضع للاحتلال الأسباني.

(4) تلك جزيرة «كريت» اليونانية بالبحر المتوسط.

(5) الإسكندرية: ميناء مصري هام على ساحل البحر المتوسط بناه ال إسكندر.

(6) رحلة ابن جبير: ص41.7.

(7) السوس الأقصى: أقصى بلاد المغرب، مدينة كبيرة، وأهلها أخلاط، بها يصنع السكر، وتضم مدن عديدة، ويشقها نهر كبير يصب في المحيط، وذات فواكه وحبوب كثيرة. انظر: الحميري: الروض المعطار، ص329.

يصل إلى تلمسان[1] ومنها إلى مليانة[2]، ومنها إلى الجزائر[3]، وإلى بجاية[4]، وبني رار ثم إلى ميلة[5]، ثم إلى مدينة قسنطينة[6]، ومنها إلى مدينة قابس[7]، وقطع البرية بين قابس وطرابلس[8]، كما قطع البرية من طرابلس إلى سرت[9]، ثم إلى برقة[10]، وعبر البرية إلى الإسكندرية (التي تشكل محطة هامة للحاج المغربي والأندلسي ثم الوصول إلى القاهرة)[11].

أما رحلتا ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) والبلوي (أبو البقاء خالد بن عيسى) فكانتا في زمن متقارب، فبينما وصل ابن بطوطة إلى مكة للمرة الثانية عام 732هـ وصلها البلوي سنة 737هـ، وفي هذه السنة كان ابن بطوطة يتنقل في الهند، وقد عَبرَ الرحالتين طريقاً واحداً من أفريقيا إلى تونس، حيث انطلقا معاً عن طريق تلمسان ومليانة

---

(1) تلمسان: بكسرتين، وسكون الميم، ويقال أيضاً تنمسان بالنون، وهي بالمغرب، وهما مدينتان متجاورتان مسورتان، إحداهما قديمة والأخرى حديثة، والأخيرة اختطها الملثمون ملوك المغرب. ياقوت: ج2، ص44، والآن هي مدينة جزائرية، وقد ازدهرت في عهد المرابطين.

(2) مليانة: بالكسر على السكون، مدينة في آخر أفريقية، وهي مدينة رومية قديمة. انظر ياقوت: ج5، ص196، وهي الآن مدينة جزائرية مركز دائرة بولاية الشليف، وبها جامع أثري، انظر المنجد، ص546.

(3) الجزائر: مدينة ساحلية على ساحل البحر المتوسط وعاصمة الجمهورية الجزائرية، تعتبر من عواصم بني حماد بن زيري بن مناد الصنهاجي كما تعرف بجزائر بني فرغاي. انظر ياقوت: البلدان، ج2، ص132.

(4) بجاية: ميناء جزائري على البحر المتوسط بولاية سطيف، المنجد، ص113.

(5) ميلة: أو الميلية مدينة جزائرية، مركز دائرة في ولاية قسنطينة على الوادي الكبير.

(6) قسنطينة: في شمال شرقي الجزائر، ويصفها ياقوت نقلًا عن البكري أنها مدينة أزلية كبيرة آهلة ذات حصانة ومنعة ليس يعرف أحصن منها. انظر معجم البلدان، ج4، ص349.

(7) قابس: مرفأ تونسي على خليج قابس على البحر المتوسط، المنجد، ص430. ويصفها البكري: بأنها مدينة جليلة مسورة بالصخر ذات حصن حصين وأرباض وفنادق وجامع وحمامات كثيرة، وساحلها مرفأ للسفن، وحولها قبائل من البربر. انظر ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص289.

(8) () طرابلس الغرب: عاصمة ليبيا الحالية وميناء على البحر المتوسط، المنجد، ص356. غزاها عمرو بن العاص رضي الله عنه سنة30هـ تملكها عنوة. ياقوت، ج4، ص25.

(9) سرت: في معجم البلدان بضم أوله وسكون ثانيه، وهي مدينة على ساحل البحر الرومي بين برقة وطرابلس الغرب، ياقوت، ج3، ص206. وفي العصر الحاضر تلفظ بكسر السين، وهي مرفأ ليبي على خليج سرت أو سدرة على البحر المتوسط. المنجد، ص298.

(10) برقة: شبه جزيرة بليبيا شرقي خليج سرت من مدنها بنغازي وطبرق، ودرنة، البيضاء، المرج أو برقة قديماً. المنجد، ص121.

(11) الرحلة المغربية: تحقيق محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 19688م، ص1527.

والجزائر وبجاية وقسنطينة وبونة(1) وتونس(2)، إلا أنهما افترقا ليسافر البلوي إلى الإسكندرية بحراً عن طريق جزيرة قوسرة(3) فمالطة(4) فاقريطش(5) فجزيرة أشغرباطة(6) فقبرص(7) فالإسكندرية، بينما يتابع ابن بطوطة طريق سوسة8 فصفاقس(9)، واتفق الرحالتان في وصف منار الإسكندرية وعمود السواري بها(10).

وكان ملتقى الحاج المصري والحاج المغربي في القاهرة وقوص وكذلك أيلة «العقبة» حيث يلتقون أيضاً بالحاج الشامي إلى الديار المقدسة.

ولعل قوة حكام مصر وحسن تنظيمهم لركب الحجيج وتوفير الأمن لهم؛ دفعت بالحاج المغربي والحاج الشامي إلى مرافقة الركب المصري في أيلة «العقبة» إلى الحجاز والعودة معه إلى أيلة أيضاً(11).

بعد التعرف على طريق الحاج المصري والمغربي إلى الديار المقدسة وامتداداً للحديث عن الحج؛ يجدر الإشارة إلى إمرة الحاج وما التحق بها فيما بعد من المحمل وتعدد هذه المحامل تبعاً للتقسيم السياسي، وذلك لما لكليهما من ارتباط وثيق بطريق الحاج وكسوة الكعبة الشريفة وعمارة الحرمين.

---

(1) بونة: أو العناب أهل العناب النخل الطويل، وهي مدينة على مقربة من قسطنطينة، العلامة الحسن السائح، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق للبلوى، مصدر سبق ذكره، ج1، ص123.
(2) تونس: عاصمة تونس الحالية على ساحل البحر المتوسط. عمرت على أنقاض مدينة قريبة منها قرطاجة أو قرطاجنة الفينيقية، لمزيد من التفاصيل، ياقوت، ج2، ص60.
(3) قوسرة: أو قوصرة جزيرة ايطالية تقع بين تونس وصقلية، المنجد، ص137.
(4) مالطة: جزيرة في البحر المتوسط جنوب صقلية، وهي الآن دولة. المنجد، ص514.
(5) أقريطش: جزيرة في بحر المغرب يقابلها من بر إفريقيا لوبيا وهي جزيرة كبيرة فيها مدن وقرى وينسب إليها جماعة من العلماء، فتحها جنادة بن أبي أمية، سنة 54هـ، ياقوت: ج1، ص236. وهي جزيرة "كريت" اليونانية الحالية في البحر المتوسط وعاصمتها خاندا. المنجد، ص462.
(6) أشغرابطة: إحدى جزر الروم على مقربة من قبرص: تاج المفرق، ج1، ص122.
(7) قبرص: أو قبرس جزيرة في شرق البحر المتوسط تبعد 65 كم عن تركيا الحالية، و85 كم عن سورية. المنجد، ص433.
(8) سوسة: ميناء تونسي على خليج الحمامات، ومركز ولاية، أسسها الفينقيون، ازدهرت في عهد الأغالبة، وبها آثار رومانية وإسلامية. المنجد، ص315.
(9) صفاقس: ميناء تونسي على خليج قابس، ومرز ولاية، ازدهرت في عهد الأغالبة. المنجد، ص346.
(10) تاج المفرج في تحلية علماء المشرق: ج1، ص55. 57، سبق ذكره.
(11) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص98.

4) إمارة قافلة الحج:

هي سنة استنها المصطفى محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم، ففي العام التاسع من الهجرة النبوية أرسل أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميراً على الحج إلى مكة، وفي حجة الوداع كان هو صلى الله عليه وآله وسلم أمير الحج وقائد المسلمين ومعلمهم ومرشدهم. وتوالى الخلفاء بعد وفاته يتولون هم بأنفسهم إمرة الحج أو ينيبون عنهم من يثقون به من كبار رجال دولتهم.

وغالباً ما يكون أمير مكة أو المدينة هو أمير الحج، ثم بعد تعدد الدول الإسلامية صارت تحرص كل دولة على تعيين أميرٍ لقافلة الحج من دمشق أو بغداد أو القاهرة أو اليمن، ثم أخيراً المحمل الرومي بعد ظهور الدولة العثمانية. ويكون أمير الحج العام حسب نفوذ أحد هذه الدول في الحجاز، ولم تكن هذه الإمارة مهمة سهلة لما يتعرض له ركب الحاج من متاعب وأخطار متعددة من جوع أو عطش أو أمراض أو موت لهم أو لدوابهم، وما يتعرض له طرق الحج من قطاع الطرق، وما قد يحصل من اصطدامات عسكرية من أمراء المناطق وشيوخ القبائل التي يمر بها الحجيج حتى يصل مكة والمدينة سواء في الذهاب أو الإياب، وغالب هذه المهام والأحوال ظهرت بعد تفكك الوحدة السياسية للأمة والتسيب الأمني الذي طرأ على الجزيرة العربية منذ القرن الرابع الهجري. لذا لا تناط هذه المهمة إلا بمن يثق الخليفة أو السلطان بقدرته على التصدي لمثل هذه المصاعب وما شابهها[1].

وتطورت هذه المهمة مع الأيام لتتخذ نظاماً معيناً وترتيبات متعددة وواجبات محددة يتولاها أمير الحاج، ولعل من أهم ما أورده الجزيري نقلاً عن الإمام النووي في منسكه وعن الماوردي في الأحكام السلطانية من مهام أمير الحج ما يلي:

---

(1) الجزيري: دور الفرائد، ج1، ص217؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ج2، ص295؛ انظر: ابن هشام: السيرة النبوية، ج4، ص139.

1. جمع الناس في مسيرهم ونزولهم حتى لا يتفرقوا فيخاف عليهم التواني والتغرير.
2. ترتيبهم في المسير والنزول بإعطاء كل طائفة منهم مقاداً حتى يعرف كل منهم مقاده إذا سار، ويألف مكانه إذا نزل فلا يتنازعون فيه ولا يضلون.
3. أن يرفق بهم في المسير حتى لا يعجز عنه ضعيفهم ولا يضل عنه منقطعهم.
4. أن يسلك بهم أوضح الطرق وأخصبها ويتجنب أجدبها وأوعرها.
5. أن يرتاد لهم المياه إذا انقطعت والمراعي إذا قلت.
6. أن يحرسهم إذا نزلوا ويحوطهم إذا رحلوا حتى لا يختلط بهم ذاعر[1] ولا يطمع فيهم متلصص.
7. أن يمنع عنهم من يصدهم عن المسير ويدفع عنهم من يحصرهم عن الحج بقتال إن قدر عليه أو ببذل مال إن أجاب الحجيج إليه.
8. أن يصلح بين المتشاجرين ويتوسط بين المتنازعين.
9. أن يُقوِّم زائغهم ويؤدب خائنهم، ولا يتجاوز التعزير إلى الحد إلا أن يؤذن له فيستوفيه إذا كان من أهل الاجتهاد.
10. أن يراعي الوقت حتى يأمن فوات الحج، ولا يلجئهم ضيقه إلى الحث في السير، فإذا وصل الميقات أمهلهم للإحرام وإقامة سننه[2].

5) المحمل:

هذا وقد ارتبط في وقت متأخر بتاريخ قافلة الحج ما عُرف باسم «المحمل» وما ارتبط به من عادات وتقاليد وربما كانت بدعًا محدثة لم تكن ترافق قوافل الحج في الفترات الإسلامية المبكرة، إنما ظهرت وتطورت مع الأيام في العصور المتأخرة من العهد المملوكي ثم العثماني.

(1) ذاعر: الذاعر: الخبيث، المنجد، ص235.
(2) الجزيري: درر الفرائد، ج1، ص255.227؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج2، ص298.

والمَحْمِل أو المِحْمَل أو المَحْمَل[1]، هو هيكل خشبي على شكل الهودج مربع الشكل ذو سقف يأخذ في الارتفاع من الجوانب إلى الوسط الذي فيه قائم ينتهي بهلال، وفي العادة يسدل على هذا الهيكل كسوة من الحرير أو من غيره ويوضع على ظهر جمل[2]، ويصاحب القافلة من مصر ومن الشام ومن العراق وكذلك من اليمن. ويحمل هذا المحمل الهدايا إلى الحرمين الشريفين من الخلفاء والسلاطين والأمراء[3] وكذا كسوة الكعبة. واختلف المؤرخون في نشأة هذا المحمل وتاريخ ظهوره فذكر البتنوني أن تاريخه يبتدئ من سنة 645هـ، وأنه هو الهودج الذي ركبت فيه شجرة الدر[4] تريد الحج، وصار بعدها سنوياً يسير أمام قافلة الحج[5].

ونقل هذا الرأي وسار عليه كثير من المؤرخين من المستشرقين وغيرهم، بينما يفند هذا الرأي عبدالله عنقاوي بقوله:

1 - إن جميع المصادر المعاصرة للعهد المملوكي، بل وجميع المصادر التي كتبت خلال القرون السابقة للقرن التاسع عشر الميلادي (الثالث عشر الهجري)، خصوصاً تلك التي ألّفت للحديث عمنّ حج من الملوك

(1) عنقاوي: عبدالله عقيل: المحمل. نشأته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الثاني، السنة الثانية، 1391/ 1392هـ، 1971/ 1972م، ص324.

(2) إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج2، ص304؛ وانظر العنقاوي: المحمل، سبق ذكره، ص324.

(3) الجزيري: درر الفرائد، ج1، ص412؛ إبراهيم رفعت: المصدر السابق، ص306؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف، الطائف، ص140.

(4) شجرة الدر الصالحية: أم خليل، كانت من جواري الملك الصالح نجم الدين أيوب، فأعتقها وتزوجها، ويسميها سبط ابن الجوزي "شجر الدر" ولما توفي الملك الصالح سنة 647هـ بالمنصورة، أخفت خبر موته، وفي العاشر من صفر سنة 648 أعلنت نفسها ملكة، ولم يدم ملكها سوى (80) يوماً فقط وقد خطب باسمها على المنابر، وضرب اسمها على السكة. وقد عظم على المسلمين في زمانها تولى امرأة الحكم، وأنشأ العز بن عبدالسلام مقامة ذكر فيها ابتلاء الله المسلمين في مصر بولاية امرأة عليهم، وعارضها حكام الشام، وأرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله إلى مصر منكراً ومتهماً: "إن كانت الرجال قد عدمت من عندكم فأعلمونا حتى نسير لكم رجلاً". انظر: ابن دقماق: الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين: تحقيق محمد كمال الدين عزالدين علي، ج2، ص44. 46؛ الزركلي: الأعلام، ج3، ص158.

(5) الرحلة الحجازية، المصدر السابق، ص140.

والسلاطين والأمراء والأعيان؛ لم تشر بتاتاً إلى أن الملكة شجرة الدر قد قامت بأداء الحج أو صحبت قافلة الحج إلى مكة سواء أثناء حكمها أو قبله أو بعده.

2 - وهذه الحقيقة يمكن أن تدحض علاقة هودج شجرة الدر بالمحمل بسهولة، وهي أن شجرة الدر اعتلت عرش مصر في آخر يوم من المحرم سنة 648هـ بعد مقتل السلطان المعظم تورانشاه، واعتزلت العرش في آخر يوم من ربيع الآخر من نفس العام، أي إن مدة حكمها لم تتجاوز ثلاثة أشهر، وكما هو معروف لا يمكن بأي حال أن يكون هناك حج خلال الثلاثة أشهر المذكورة التي حكمت خلالها.

3 - وعلى أي حال فالمؤرخ ابن تغري بردي يخبرنا في كتابه «النجوم الزاهرة» أن قافلتي الحج المصري والشامي لم تخرجا من القاهرة أو دمشق في سنة 648هـ، وهي السنة التي حكمت أولها شجرة الدر)[1].

بينما يرى إبراهيم رفعت أن أول من أحدث المحامل الحجاج بن يوسف الثقفي نقلاً عن كتاب الكنز المدفون للسيوطي[2]، إلا أن حمد الجاسر يفند هذا الرأي وينكره[3].

وينفي العنقاوي ما أورده المستشرقون من فكرة قداسة المحمل عند بعض المسلمين ومقارنتها بقداسة التابوت عند بني إسرائيل، لأن تقديس الهياكل والقبور وما شابهها تعتبر من المحرمات عند المسلمين، ويرى أن من يقدس المحمل لا لقداسته في واقع الأمر وإنما لجهل منه بأمر الدين مشيراً إلى أن هذه القداسة ظهرت في العصور المتأخرة وبعد زوال دولة المماليك[4].

(1) المحمل .نشأته وآراء المؤرخين فيه، ص327.
(2) مرآة الحرمين: ج2، ص304.
(3) () هامش درر الفرائد للجزيري، ج1، ص412، حيث يرى الجاسر أن كتاب "الكنز المدفون مملوء بالخرافات" ومؤلفه يُدعى يونس المالكي، وليس السيوطي كما ينسب إليه خطأ.
(4) المحمل: ص332.

وقد صدق العنقاوي فيما ذهب إليه من أن البدع والخرافات حول المحمل هي من جهل العامة، لكن مع الأسف سكت عنها الخاصة تهاوناً وتفريطاً حتى صار ذلك تقليداً متبعاً، مما يدفع بالعامة دفعاً إلى التعلق بهذا الحيوان الأعجم، والهيكل الخشبي المحمول على ظهره، ففي ذهابه يتمسح به الناس بدعوى حصول البركة وعند عودته يُذبح الجمل فيتخطف الناس لحمه متدافعين؛ اعتقاداً منهم البركة والشفاء من الأمراض. بل وصل الأمر ببعض السلاطين إلى أن فرضوا على أمراء المناطق التي يمر بها جمل المحمل تقبيل خفه في أرض الحجاز حتى أعفاهم من ذلك السلطان جقمق في سنة 843هـ[1]. كل ذلك يبين لنا فداحة هذه البدعة التي أضرت وشوهت تاريخ قافلة الحج، ونقل الكسوة والهدايا للحرمين ليستا بالضرورة تحتاج إلى هذه التنظيمات والمبتدعات، فما خرج أهل هذه القافلة إلا لأداء شعيرة من شعائر الإسلام، وهي الركن الخامس «شعيرة الحج».

قال الله تعالى في كتابه الكريم: {وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام، فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير * ثم ليقضوا تفثهم وليوفوا نذورهم وليطوفوا بالبيت العتيق * ذلك ومن يعظم حُرُمات الله فهو خير له عند ربه وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور * حنفاء لله غير مشركين به، ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق}[2] فالله يأمر الحجاج أن يكونوا حنفاء لله غير مائلين عن توحيده وأن يجتنبوا الرجس من الأوثان ويجتنبوا قول الزور وعمل الفواحش.

(1) ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج4، ص145، وانظر عبدالعزيز بن فهد: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، ج2، ص415، وانظر: البتنوني: الرحلة الحجازية، ص146.141.

(2) سورة الحج: من آية رقم 27. 31.

ثالثاً) ـ نقل المؤن لعمارة الحرمين الشريفين وكسوة الكعبة

وقد كان للسلاطين والأمراء في مصر إسهامات في عمارة الحرمين الشريفين، وكانت المؤن والعمال المهرة والمهندسون يجلبون من هناك مع المؤن والمواد الخام لندرة العمال المهرة في أرض الحجاز، وهذه المؤن تجلب عبر الموانئ الحجازية- غالباً- وقد تُجلب عن طريق البر عبر صحراء السويس وفلسطين وشمال الحجاز. وقد شارك طريق الحاج الشامي واليمني في هاتين المهمتين في بعض فترات من التاريخ.

وكانت أول مؤن تنقل لعمارة المسجد الحرام ما جرى في عهد الوليد بن عبد الملك الأموي عام 91هـ، فهو أول من أتى بالأساطين الرخام من مصر، والشام، ونقلها من هناك على العجل، وسقف المسجد بالخشب الساج الهندي الذي ينقل بحراً من بلاده إلى ثغور الحجاز(1).

كذلك فعل الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور في توسعته التي تعد الزيادة الخامسة في الحرم المكي عام 137هـ عندما نقل أساطين الرخام إلى المسجد الحرام(2).

ولعل الأمر يكون أكثر وضوحاً لدور طريق الحاج في عمارة الحرم المكي في خلافة المهدي العباسي عام (160 . 164هـ) عندما أمر هذا الخليفة بنقل الأساطين الرخام من الشام ومصر، فحملت بحراً إلى ميناء الشعيبة الحجازي المكي، وحملت تلك الأساطين على العربات ذات العجل إلى مكة، وقد كانت الأعمدة ثقيلة حيث يقدر الواحد منها بنحو مائة قنطار، والمسافة بين مكة وساحلها لا تقل عن 70 كيلاً(3).

(1) الأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص72، الفاسي: شفاء الغرام، ج 1، ص 410؛ باسلامة: حسين عبد الله، تاريخ عمارة المسجد الحرام، الكتاب العربي السعودي، تهامة، الطبعة الثالثة، 1400هـ، 1980م، ص23.

(2) ()الأزرقي، المصدر السابق، ج2 ص73؛ باسلامة: المرجع السابق، ص26.

(3) والأزرقي: أخبار مكة، ج2، ص76، ويذكر الأزرقي: أن الأساطين أنزلت بجدة؛ باسلامة: تاريخ عمارة

ويقدر باسلامة ما صرفه الخليفة المهدي على نقل الأسطوانات الرخام من مصر والشام، وما صرف على جلب خشب الساج قيمة ونقلا من الهند إلى مكة، بحسب قوة أدوات النقل وقدرتها في ذلك الزمان براً وبحراً، إضافة إلى أجور المهندسين والعمال والمؤن والزخرفة ما يزيد على مليوني دينار[1]. بل ويؤكد أن نقل الأساطين من مصر إلى مكة لم يتم إلا للوليد، وأبي جعفر، والمهدي، ولم يتحقق لمن بعدهم حتى سلاطين المماليك الذين ملكوا مصر، مع أن أدوات النقل في زمانهم أرقى وأعظم مما كانت عليه في العهدين الأموي والعباسي[2].

ورغم اقتصار جهود المماليك في الحرمين وبالذات الحرم المكي على الترميم والتجديد والتحسين، إلا أن ذلك لا يقلل مما بذلوه على عمارة الحرمين الشريفين من الأموال الكثيرة والعناية والاهتمام، خاصة عندما يتعرض الحرمان الشريفان لحريق أو سيول وأمطار وصواعق تسبب تلفيات كبيرة أحياناً في بعض أجزائه، فيندفع السلاطين والأمراء في الإنشاء والتعمير وبعث المؤن والرجال المختصين من كل حدب وصوب، ساعدهم في ذلك ما توفر لدولتهم من الأموال الطائلة، ورغبتهم في الثواب والأجر، مع شعورهم بالمسؤولية في حماية الدين والحرمين الشريفين[3].

ومما تجدر الإشارة إليه أنه لم تجر للحرمين الشريفين عمارة أو توسعة أو زيادة ملحوظة على يد الفاطميين والأيوبيين، وذلك بحسب ما اطلعت عليه من مصادر ومراجع فاطمية وأيوبية، وكذلك مصادر ومراجع عمارة الحرمين الشريفين المكية والمدنية. ولعل ذلك مرده إلى عدة أمور منها:

1. استمرار الدور العباسي الرائد في التعمير والترميم والتحسين للحرمين

المسجد الحرام، ص30

(1) تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص50.

(2) المرجع السابق، ص74.

(3) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص115.

انطلاقاً من بغداد حتى سقوط الخلافة العباسية عام 656هـ رغم ضعف الخلافة العباسية عما كانت عليه في خلافة المنصور والمهدي.

2. انشغال الفاطميين «العبيديين» في مصر بتثبيت قواعد دولتهم سياسياً ومذهبياً.

3. انشغال الأيوبيين بالصراع مع الصليبيين.

ومما وافق العهدين الفاطمي والأيوبي من تعمير وترميم للحرمين الشريفين على يد العباسيين اقتصر جله على الحرم النبوي من خلافة المقتفي بالله العباسي، وكان ذلك في عهد والي المدينة قاسم بن مهنا الحسيني في عام 548هـ، وكذلك في خلافة المستضئ بالله العباسي عام 566هـ، وفي خلافة الناصر، وما قام به نور الدين زنكي عام 557هـ، واستمرت أعمال الإصلاح من قبل الخلفاء العباسيين حتى خلافة المستعصم بالله، وابتدأت العمارة في عهده عام 655هـ وتوقفت بسقوط بغداد في يد التتار عام 656هـ[1].

فأكمل هذه المهمة الجليلة سلاطين المماليك، فتولى السلطان نورالدين بن عزالدين أيبك الصالحي (655.657هـ) استكمال عمارة أو ترميم الخليفة العباسي المستعصم بالله للحرم المدني النبوي التي جرت بسبب الحريق الذي شب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، في رمضان عام 654هـ[2].

وبرز دور السلاطين المماليك في الترميم والتجديد والتحسين والإضافة في الحرم النبوي على صاحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم لما تعرض له من تلفيات جراء عدة حرائق.

ويذكر السمهودي وصول الآلات من مصر في عهد الملك المنصور نورالدين وكذلك وصول آلات وأخشاب من صاحب اليمن، وهو الملك المظفر شمس

(1) مصطفى: صالح لمعي: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، بيروت، 19881م، دار النهضة، ص79.78.

(2) ()مصطفى: صالح لمعي: المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، ص79.

الدين يوسف بن منصور عمر بن علي بن رسول[1].

وانتقل عبر طريق الحاج المصري براً وبحراً حتى زيت القناديل التي يُضاء بها الحرمين الشريفين، حيث يذكر ابن النجار (ت 641) ما نصه (وفي يومنا هذا يصل الزيت من مصر من وقف هناك ومقداره سبع وعشرون قنطاراً بالمصري، والقنطار مائة وثلاثين رطلاً، ويصل معه مائة وستون شمعة بيضاء وكبار وصغار، وعلبة فيها مائة مثقال ند[2]).

وتوالت الآلات والمؤن والصناع تعبر بحر الحجاز وبره للوصول إلى الحرمين الشريفين، ففي عهد الظاهر بيبرس جهز الأخشاب والحديد والرصاص، ومن الصناع ثلاثة وخمسين صانعاً، وما يمونهم بل أنفق عليهم قبل سفرهم، وأرسل معهم الأمير جمال الدين محسن الصالحي لعمارة الحرم المدني النبوي[3].

ويتضح دور موانئ الحجاز في عمارة السلطان قايتباي، فقد كان يُكلف أمير جدة بتولي أمر العمارة في الحرم النبوي[4].

كما فوضت العمارة للجناب الشمسي بن الزمن وكان بجدة، فوصل للمدينة بصحبة شاد جدة عام 881هـ وأحضر معه جماعة من أرباب الصنائع[5]. وبعد حريق رمضان عام 886هـ الذي كان بسبب رعد قصف منارة المسجد النبوي وقتل المؤذن وعدد من ساكني المسجد واحتراق جزء كبير من المسجد، وصل الخبر إلى السلطان المملوكي قايتباي، فبادر في ترميم المسجد النبوي لما رأى في ذلك من مزيد التشريف والإكرام، وقد كانت تجري بمكة بعض العمارة للخدمات والمرافق للمسجد الحرام أوقفها. وأمر الأمير سنقر الجمالي بالتوجه للمدينة وأرسل له ما يزيد على مائة صانع من البنائين والنجارين والدهانين

(1) وفاء الوفاء، ج2، ص604.

(2) الدرة الثمينة في تاريخ المدينة: تحقيق محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى، 1995م. 1416هـ، مكتبة الثقافة الدينية، ص184.

(3) السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص604.

(4) المصدر السابق، ج2، ص605.

(5) المصدر السابق، ج2، ص618.

والحجارين والنحاتين والحدادين والمرخمين، وكثير من الحمير والجمال، وتوالى وصول الآلات والمؤن حتى كثرت في الطور وينبع والمدينة النبوية[1].

ولم تنقطع المؤن والآلات والرجال، فكلف السلطان الجناب العالي الخواجكي الشمسي شمس الدين بن الزمن، وأرسل معه مائتي جمل ومائة حمار، وأزيد من ثلاثمائة من الصناع وغيرهم من الحمالين والمبيضين والسباكين والجباسين، حتى صارت أحمال المؤن متواصلة قل أن تنقطع براً وبحراً[2].

وفي عام 889هـ وصل مجموعة من الدهانين بعث بهم السلطان المملوكي من مصر لاستبدال دهان النيلة باللازورد، وجهز معهم أساقيل لهذا الأمر، ولم يكتفي بذلك بل أرسل رجلاً من خاصته بأحمال من كتب العلوم الشرعية لتوقف في المدينة على طلبة العلم، وكذلك أحمال كثيرة من الحب والدقيق والقدور النحاس، وما تبقى من آلات العمارة مما أعد في المراكب السلطانية إلى ينبع[3].

(1) السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص639.
(2) السمهودي: وفاء الوفاء، ج2، ص640.
(3) المصدر السابق، ج2، ص645.

كسوة الكعبة:

فيما يلي نص هام للرحالة الفارسي ناصر خسرو[1] عن طريق الكسوة، وكان ذلك عام 439هـ في خلافة المستنصر العبيدي (427.487هـ): (وقد أرسلت الكسوة عن طريق بحر القلزم، وقد رافقت الكسوة وذهبت إلى مكة. غادرت القافلة المكلفة بإيصال الكسوة من مصر في غرة شهر ذي القعدة، وكنت مع القافلة. وصلنا إلى بحر القلزم، وركبنا الباخرة وبعد خمسة عشر يوماً وصلنا إلى ميناء الجار على ساحل الحجاز، ومن «الجار» اتجهنا إلى المدينة فوصلنا بعد أربعة أيام).

يتضح من ذلك النص طريق رحلة الكسوة البحري من مصر، إضافة إلى الطريق البري برفقة الحاج المصري ومن رافقه على طريقه، منذ العهد العبيدي حتى نهاية العصر المملوكي، مع بعض التعديلات من الجار إلى ينبع في العهد الأيوبي. وارتبطت رحلة الكسوة برحلة الحاج والمحمل ارتباطاً وثيقاً وكانت الاحتياطات لحماية قافلة الحج هدفه الرئيسي هو حراسة كسوة الكعبة وإيصالها سالمة إلى الديار المقدسة، وتطورت رحلة الكسوة وهدايا الحرمين من جمل واحد إلى عدة جمال زادت عن عشرين جملا في العهد المملوكي، ويرافقها عدد من الحراس والفراشين والحمالين والأئمة والمؤذنون، ويشرف عليها الأمراء والقضاة والشهود وموظفو الديوان والأمناء، ويقفوا أثر هذا المحمل الحجاج، وكلٌ منهم يحرص على الاقتراب من هذا المحمل بزعم التبرك بالكسوة ومجاورتها حتى تصل إلى مكة المكرمة[2].

ولنا أن نتساءل ما نوع كسوة الكعبة على مدى التاريخ؟

ذكر عدد من المؤرخين أن الكعبة كُسيت أنواعاً متعددة من الكسى منها

(1) سفرنامة: ص119.

(2) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص99.

الخصف، والمعافر، والملا، والوصائل، والعصب قبل الإسلام، وقيل إن أول من كساها تُبعّ الحميري، وذُكر أنه كساها المسوح والأنطاع، وكُسيت الحبرات اليمانية، وقد كساها الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في الإسلام الثياب اليمانية، وكساها عمر وعثمان رضي الله عنهما القباطي من مصر[1].

كما كُسيت الكعبة الديباج الأبيض والأحمر الخراساني، ومن الديباج الأبيض كساها الحاكم العبيدي، وكذلك المستنصر العبيدي.

كما كُسيت الديباج الأصفر من الهند أهداه السلطان محمود بن سبكتكين عام 466هـ، وكُسيت في عهد الخليفة الناصر العباسي كسوة خضراء، وأيضاً كسوة سوداء، واستمرت تُكسى بالكسوة السوداء، وفي عام 810هـ أُضيف إلى الجانب الشرقي من الكسوة جامات منقوشة بالحرير الأبيض، واستمرت على ذلك حتى عام 819هـ فجعلت جامات منقوشة بالحرير الأبيض تحت الطراز إلى أسفل الكسوة في كل شقة من الجانب الشرقي، واستمرت هذه الجامات حتى أُزيلت واستبدلت بجامات سود في عام 825هـ، وكان يُكتب في هذه الجامات عبارة «لا إله إلا الله محمد رسول الله» بالبياض. وفي الكسوة أيضاً طراز من حرير أصفر، وفي هذا الطراز كُتبت آيات من كتاب الله الكريم[2]. وكانت لمصر الريادة في حياكة ونسج كسوة الكعبة حتى القرن الرابع عشر الهجري، فمن عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخلفائه الراشدين ومن أتى بعدهم كانت تكسى الكعبة بالقباطي الذي يحاك وينسج في مصر، وكانت تحاك

(1) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص238؛ انظر الأزرقي: أخبار مكة، ص255.249؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين: ج1، ص281؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ص135؛ باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة عمارتها وكسوتها وسدانتها، تهامة، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثانية، 1402هـ.1982م، ص250.244. (والقباطي ثوب رقيق أبيض منسوب إلى قبط مصر، أما الوصائل فهي ثياب حمراء مخططة يمانية، كذلك الحبرات جمع حبرة وهي ثياب يمانية، أيضاً العصب برود يمنية يُعصب غزلها أي يُجمع ويشد، والأنماط نوع من البسط واحدها نمط).

(2) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص243.241؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين: ج1، ص282؛ باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص261.255.

الكسوة العباسية بمدينة تنيس المصرية التي كانت ميناءً لمصر في شمال دمياط حتى هدمها الملك الكامل عام 624هـ لكثرة غارات الصليبيين عليها، ولا تزال أطلال هذه المدينة موجودة بالقرب من مدينة المطرية (دقهلية)[1].

وبالرغم من تداول الملوك والأمراء والسلاطين على كسوة الكعبة من ديارهم من اليمن وخراسان والهند، إلا أنها تعود لتنطلق من مصر، فقد أوقف السلطان عام 743هـ الصالح اسماعيل بن الناصر قلاوون قرية «بيسوس» وتوالى إيقاف القرى على كسوة الكعبة إضافة إلى بيسوس سندبيس وأبي الغيط من قرى القليوبية[2] يصرف ريعها على إنتاج الكسوة.

وفي العهد العبيدي الفاطمي اختلف في أول من بدأ بإرسال الكسوة إلى مكة من حكام العُبيديين، ويذكر المقريزي أن المعز الفاطمي الذي كانت خلافته لمصر من عام (341. 365هـ) أعد بالفعل ما سمي شمسة أو شمسية، تشبه الشمس ولها اثنا عشر ذراع بهدف تعليقها على وجه الكعبة، إلا أنه لم يبعث بها، وسبقه العباسيون إلى إرسال كسوة للكعبة[3]. إلا أن الذي ثبت أنه أرسل كسوة للكعبة من العُبيديين هو العزيز بالله (365. 386هـ) في عام (381هـ) في إمارة أبي الفتوح الحسن بن جعفر بن محمد الحسني لمكة وكساها بالخلعة البيضاء[4]. وتوالى إرسال حكام مصر العبيديين الكسوة في كل عام إلى مكة، إلا أنها لم تصفوا لهم، فقد شاركهم آخرون في إرسال الكسوة، ومن ذلك علي بن محمد الصليحي حاكم اليمن الذي يوالي الفاطميين، فقد وصل إلى مكة عام 455هـ وملكها وفعل فيها أفعالاً حسنة، وكسا البيت ثياباً بيضاً حريراً

(1) البتوني: الرحلة الحجازية، ص135.
(2) باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص 258؛ انظر: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين، ص284. مع ملاحظة أن هذه الأوقاف ليست لكسوة الكعبة فقط، بل للكسوات الأخرى ككسوة الحجرة النبوية التي يرقد فيها المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم.
(3) اتعاظ الحنفاء، ج1، ص140. 141.
(4) ابن فهد: إتحاف الورى بأخبار أم القرى، ج2، 421هـ.

صيفا، وأظهر العدل والإحسان في أهل مكة[1]. وفي عام 466هـ قام أبو النصر إبراهيم بن محمد بن علي الإستراباذي[2] بكسوة البيت ثياباً بيضاً من عمل الهند، كما كُسيت الكعبة في نفس العام من صاحب الهند السلطان محمود بن سبكتكين، وقد ظفر بها نظام الملك وزير السلطان ملك شاه السلجوقي فأرسل بها إلى مكة، وجعلت فوق الكعبة التي كساها لها أبو النصر الإستراباذي[3]. وفي عام 532 كسا الكسوة تاجر فارسي يدعى أبا القاسم رامشت عندما لم تصل لها كسوة من الخليفة[4].

وفي عام 564هـ استقرت الأمور للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله في مصر، وبالرغم من أعماله الجليلية تجاه الحرمين بفرض الأمن ومنع المكوس وإرسال المؤن الغذائية بأنواعها، إلا أن المؤرخين لم يذكروا أنه أرسل كسوة أو شارك في عمارة الحرمين، وقد أشرت فيما سبق أن سبب ذلك لعله انشغال الأيوبيون بالحروب الصليبية. إلا أن إبراهيم حلمي يرى سبباً آخر هو انصراف المؤرخين عن تسجيل وإثبات إرسال كسوة الكعبة من لدن السلاطين الأيوبيين وانشغالهم بالحدث الجلل وهو الغزو الصليبي لبلاد المسلمين وتزايد خطره عاماً بعد عام حتى هدد الحجاز نفسها[5].

---

(1) ابن فهد: إتحاف الورى، ج2، ص468؛ انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ج5، ص58.

(2) أبو النصر إبراهيم بن محمد الإستراباذي: قدم مكة سنة 646هـ وصنع فيها وبظاهرها مظاهر حسنه، وقام بتعمير مسجد عائشة رضي الله عنها بالتنعيم ويذكر الفاسي أن اسمه مكتوب في حجر بجدار المسجد الشامي، كما ذكر أنه أنفق ثلاثة ألف ديناراً فيما تهدم من المسجد الحرام وأجرى الماء من عرفات إلى مكة في قنوات كانت قد عملتها زبيدة وكسي البيت. انظر العقد الثمين، ج3، ص164؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ج2، ص475.

(3) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص241؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج2، ص475؛ إبراهيم رفعت: مرآة الحرمين، ج1، ص283؛ باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص259.

(4) الفاسي: العقد الثمين، ج4، ص87؛ ابن فهد: المصدر السابق، ج2، ص505؛ إبراهيم رفعت: المصدر السابق، ص283.

(5) كسوة الكعبة المشرَّفة وفنون الحجاج، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، العدد320، شوال 1411هـ، مايو 1991م، ص68. ويمكن أيضاً تفسير عدم إرسال ال أيوبيين الكسوة والمشاركة في العمارة لكونهم تابعين للخلافة العباسية ولم يدخلوا معها في تنافس، فاكتفوا بما قامت به ولم يزاحموها في هذا الميدان.

إلا أن الدور العباسي الذي لم ينقطع في عمارة الحرمين حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد عام 656هـ، لم ينقطع في كسوة الكعبة، فقد كسا الخليفة العباسي الناصر لدين الله (622575هـ) الكعبة الديباج الأخضر ثم الأسود[1]. وفي عام 659هـ حج الملك المظفر يوسف بن المنصور صاحب اليمن برفقته الكثير من الصدقات في البر والبحر، بل كان يسير في البر والمراكب تسير في البحر مسايرة له حتى قارب مكة، وكسا الكعبة من داخلها، ولم يسبقه ملك بالكسوة بعد خلفاء بني العباس، وأخذ يكسوها عدة سنوات مع حكام مصر المماليك، وتعلق كسوته بعد سفر الحاج المصري مراعاة لسلطان مصر[2]. ويرجح الباز أن خروج المحمل اليمني بكسوة الكعبة كان في عام 659هـ، في محمل رسمي إلى الحرم خاصة وأن الملك الرسولي صعد الموقف يوم عرفة بعلم[3]. ومن المرجح أن السلطان الرسولي مرت قافلته البحرية بثغرين من ثغور الحجاز وهما السرين وجُدة، خاصة إذا ما تذكرنا ما سبق تبيانه في الفصل الثاني من العلاقة الوثيقة بين الرسوليين حكام اليمن وأمراء السرين الأشراف راجح بن قتادة وأبناؤه التي وصلت إلى المشاركات الحربية ضد الأيوبيين وضد أمراء مكة، والهدايا والهبات التي كان يبعثها ملوك اليمن لحاكم السرين. كما أن جُدة المحطة البحرية الأخيرة لكل قافلة حجاج بحرية قادمة لمكة المكرمة.

قبيل هذا العام، وتحديداً عام 648هـ قامت الدولة المملوكية، إلا أن أول كسوة تصل من سلاطين المماليك كانت عام 661هـ من الظاهر بيبرس[4]، وذلك اكتفاءً منهم بدور الخلافة العباسية لكن بعد سقوط الخلافة في بغداد

(1) الفاسي: شفاء الغرام، ج1، ص241؛ باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص258.
(2) الفاسي: العقد الثمين، ج6، ص253؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص83.84.
(3) عبدالكريم علي باز: المحمل اليمني في عهد بني رسول، مجلة العصور، المجلد السابع، الجزء الأول، 1992م، ص11.
(4) ابن فهد: إتحاف الورى، ج3، ص87.

تم إحياؤها بمصر قام المماليك بهذا العمل، وهم بذلك يقطعون الطريق على الرسوليين ليثبتوا الحق في كسوة الكعبة من مصر مركز الخلافة وحامية الحرمين الشريفين حتى أصبحت الكسوة من مصراً أمراً مقرراً وتقليداً جارياً في عهد المماليك وكذلك العثمانيين من بعدهم، وسبقت الإشارة إلى الأوقاف التي أُوقفت من أراضي مصر على نفقة كسوة الكعبة في عهد الصالح إسماعيل بن الناصر، وأصبحت الكسوة مظهراً من مظاهر القوة والنفوذ السياسي لدى المماليك، ولم يجيزوا لحكام اليمن أو لغيرهم بكسوة الكعبة إلا في حالة ضعفهم، فلا توضع الكسوة اليمانية إلا بعد نزوح الحاج المصري أو تحت الكسوة المصرية، حتى وصل الأمر إلى الاصطدام العسكري عام 751هـ مع الرسوليين عندما هُزم الجيش اليمني بمكة واقتيد الملك اليمني إلى مصر ولم يطلق سراحه إلا بعد دفع فدية وتعهده بالولاء للسلطان المملوكي. كذلك استمرت مقاومة المماليك لكل من يريد كسوة الكعبة سواهم، وأصبحت الكسوة تمثل لهم رمزاً سياسياً إضافة إلى مكانتها الدينية(1).

(1) علي السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص106.113.

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبقدرته تجري السفن العابرات، والصلاة والسلام على هادي الأمة ومعلمها محمد بن عبدالله نبي الرحمات عليه وآله مزيد الصلوات.

أما بعد:

ففي نهاية هذه الرحلة البحرية التي تجولت من خلالها على شواطئ الحجاز الزاهية الثرية وتنفست نسمات الحجاز الندية. حري بي بعد أن وفقني الله عز وجل من الانتهاء من هذه الدراسة التاريخية أن أعرض في ختامها جملة من الاستخلاصات وهي كالتالي:

1. خلصت الدراسة في الفصل الأول إلى تحديد مناسب لحدود الحجاز التاريخية المتفق عليها بين المؤرخين والجغرافيين والفقهاء القدامى والمحدثين. برغم التفاوت بين الأوضاع السياسية والجغرافية. (حيث يمتد الحجاز من شمال ميناء أيلة «العقبة» شمالاً إلى جنوب ميناء السرين جنوباً، ويحده غرباً البحر الأحمر، ومن الشرق بالقرب من الحناكية).
2. أظهر الفصل الثاني من الدراسة مدى الوحدة الجغرافية التي تربط الموانئ الحجازية على ساحل البحر الأحمر.
3. أبرزت الدراسة في الفصل الثالث الدور الرائد للعرب في التجارة والملاحة، إذا ما أُحسن استثمار إمكانات موانئ البحر الأحمر الشرقية والغربية على السواء.
4. من خلال الفصل الرابع:

أ) . تجلى دور عرب الحجاز الاجتماعي والثقافي في وادي النيل وشرق أفريقية عندما هاجروا إلى هذه الديار.

ب) . إضافة إلى كون رحلة الحج فريضةً وركناً من أركان ديننا الحنيف،

فقد بثت هذه الرحلة في نفوس أبناء الأمة مشاعر جياشة تضطرب اضطراب الأمواج وتتدفق إنتاجاً أدبياً وتاريخياً وجغرافياً غزيراً تمثل في كثير من الرحلات إلى الحجاز الأبي، وازدهار المصنفات والدروس وحلقات العلم في الحرمين الشريفين.

ج).لم تقتصر موانئ الحجاز على أن تكون جسوراً أو معابر لحجاج بيت الله الحرام وزوار مسجد نبي الإسلام عليه الصلاة والسلام، بل كانت جسوراً ومعابر لعمارة الحرمين الشريفين وهداياه وكسوة كعبته المشرفة.

5. أظهرت الدراسة بصفة عامة أهمية العامل البشري في نمو الميناء أو ذبوله واندثاره وأثر الصراعات السياسية والعسكرية بجلاء على الموانئ سلباً، والعكس صحيح فاستقرار الأوضاع يساهم بشكل مباشر في نمو الموانئ وازدهارها.

6. أبرزت الدراسة ظاهرة التذبذب وتفاوت القيمة والشهرة في التجارة والملاحة التي عاشتها الموانئ الحجازية من حين إلى آخر، فهي تارة مزدهرة مشتهرة وتارة منحصرة أو مندثرة، ويعود كل ذلك للأوضاع السياسية والاجتماعية.

7. خلصت الدراسة إجمالاً إلى أهمية موانئ الحجاز خاصة وموانئ البحر الأحمر بشاطئيه الشرقي والغربي عامة، وضرورة الاهتمام بها حاضراً ومستقبلاً ووضع الدراسات والأبحاث، واتخاذ الإجراءات الحاسمة لحماية هذا البحر، والعمل الجاد على تنمية الملاحة العربية الإسلامية، وتأسيس صناعة بحرية تعود بالخير والفائدة على أبناء البلاد المطلة على البحر الأحمر.

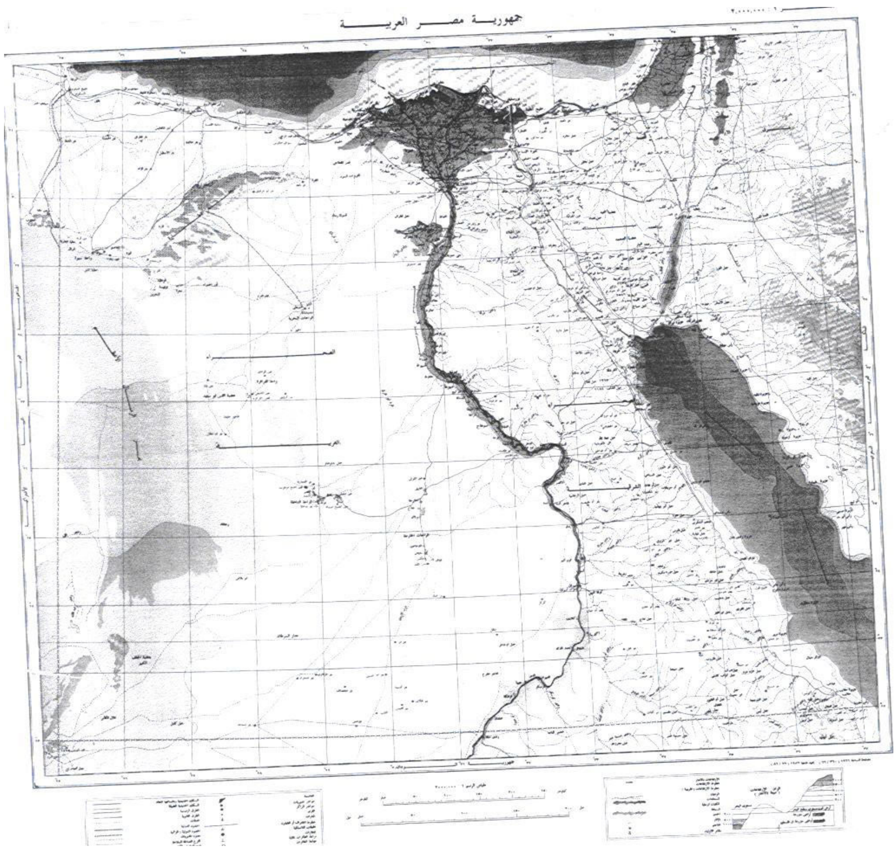
قال الله تعالى:﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [سورة يونس، آية رقم 10].

الملاحق

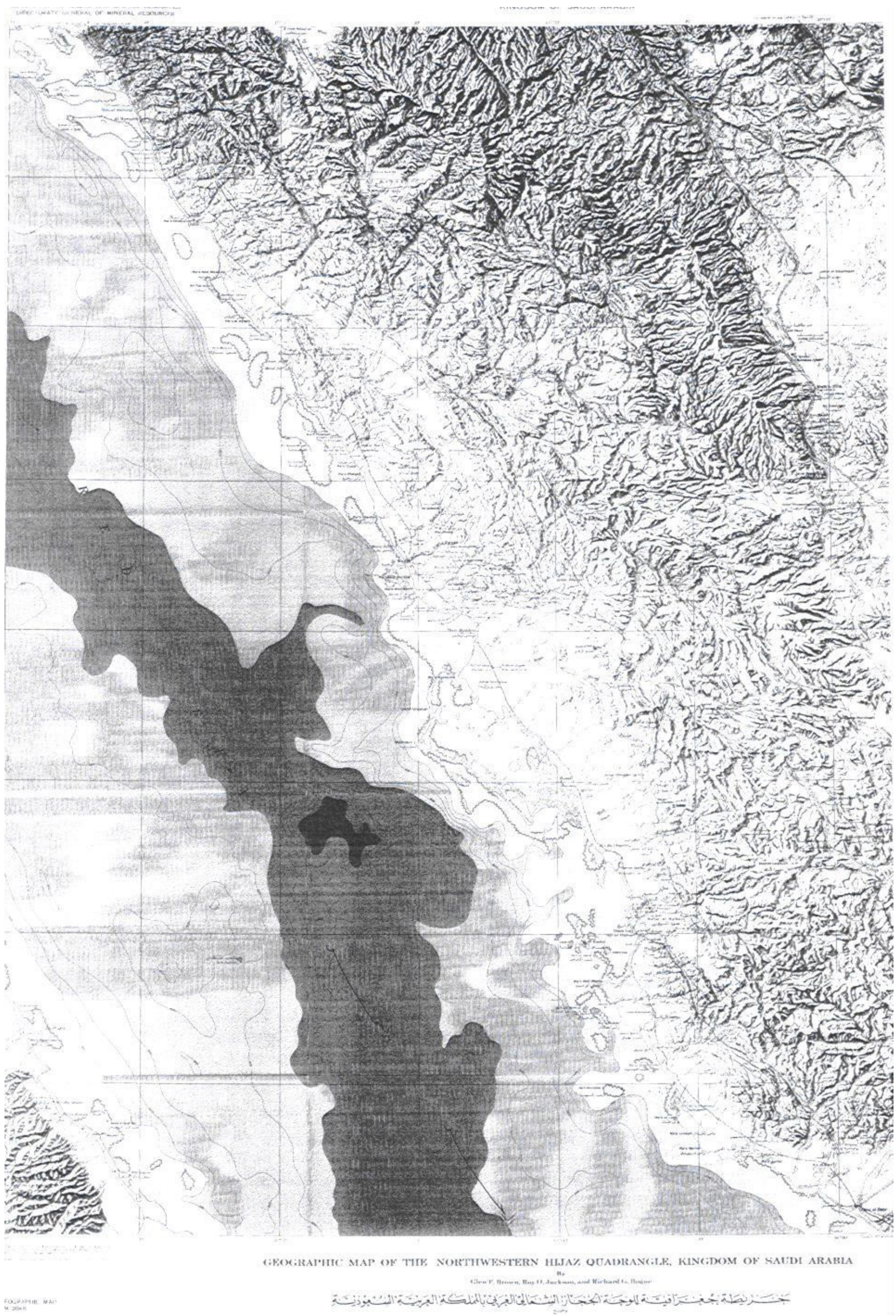
الخرائط والصور



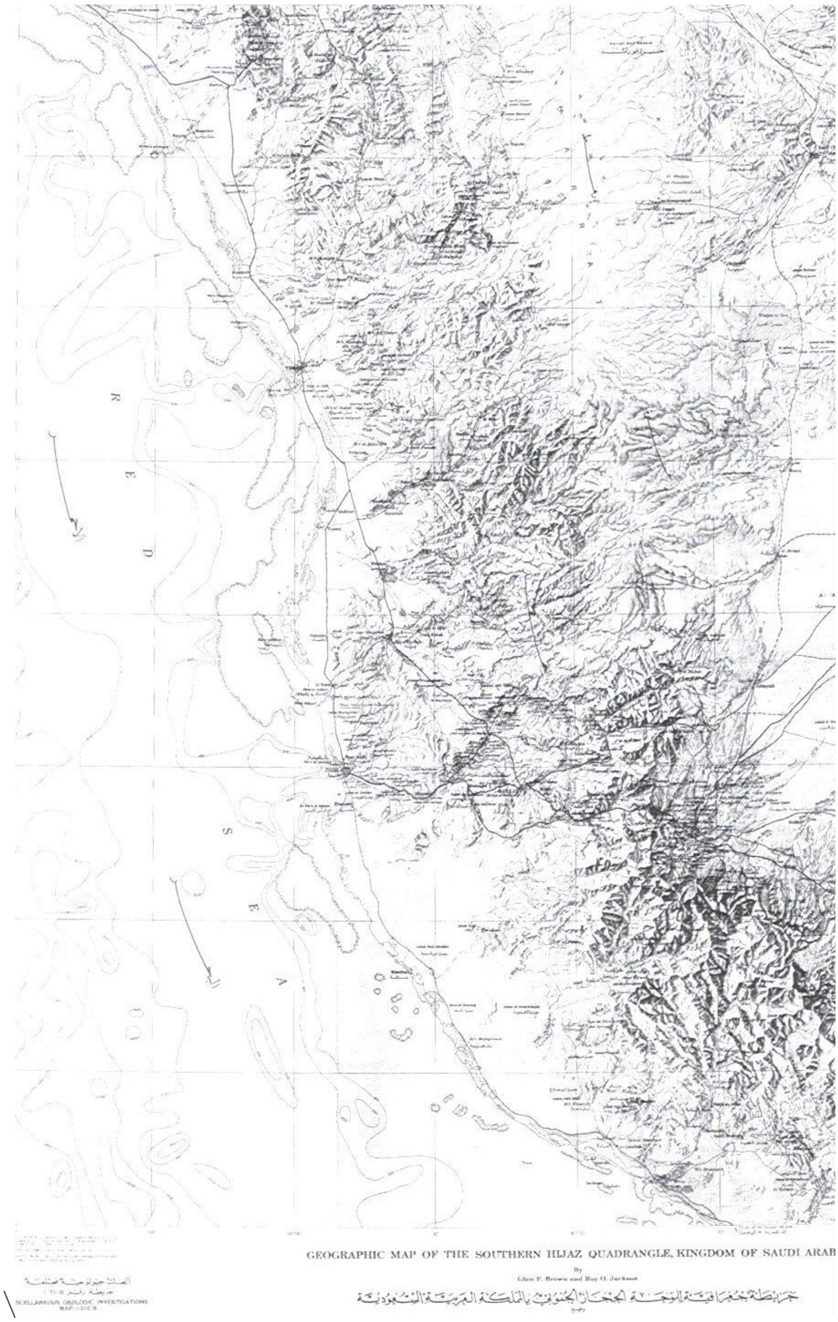
خارطة طرق المواصلات3000,000:1، وزارة المواصلات، طبعت بإدارة المساحة العسكرية بوزارة الدفاع، الطبعة الأولى، عام 1411هـ، المملكة العربية السعودية. (نسخة مصغرة «مقاس A4»).



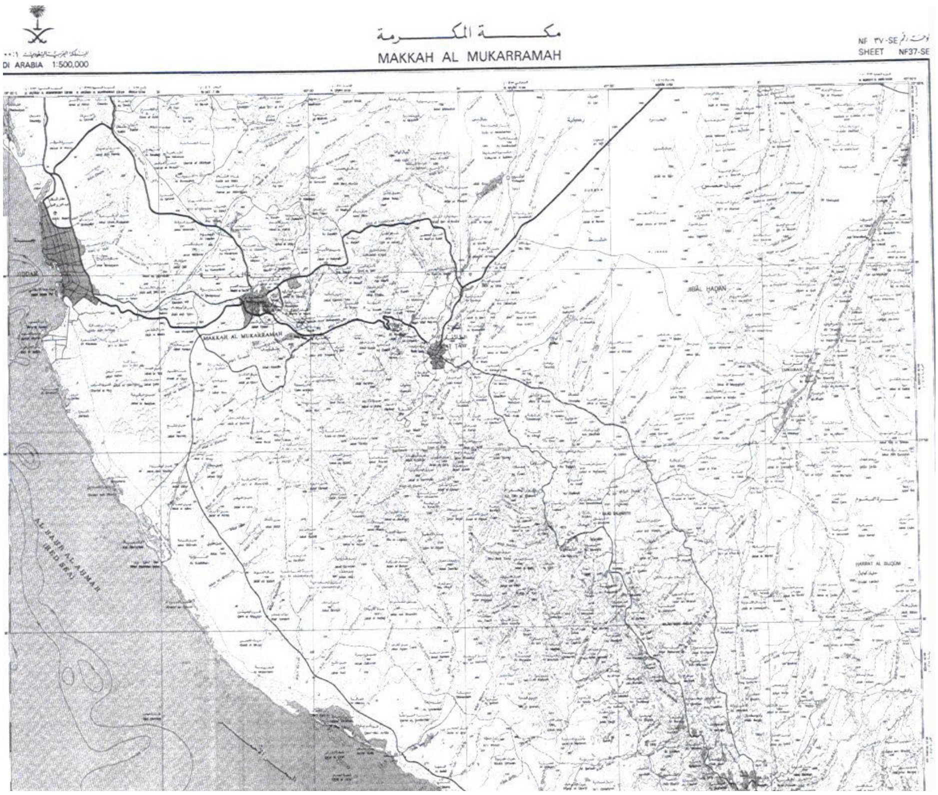
خريطة جمهورية مصر العربية، 2000,000:1، الهيئة العامة للمساحة المصرية..(بعد التصغير «مقاس A4»).



لوحة الحجاز الشمالي الغربي، أبحاث جيولوجية، خريطة رقم ج م 402ب (B402-MG)، وزارة البترول والثروة المعدنية، الرياض.

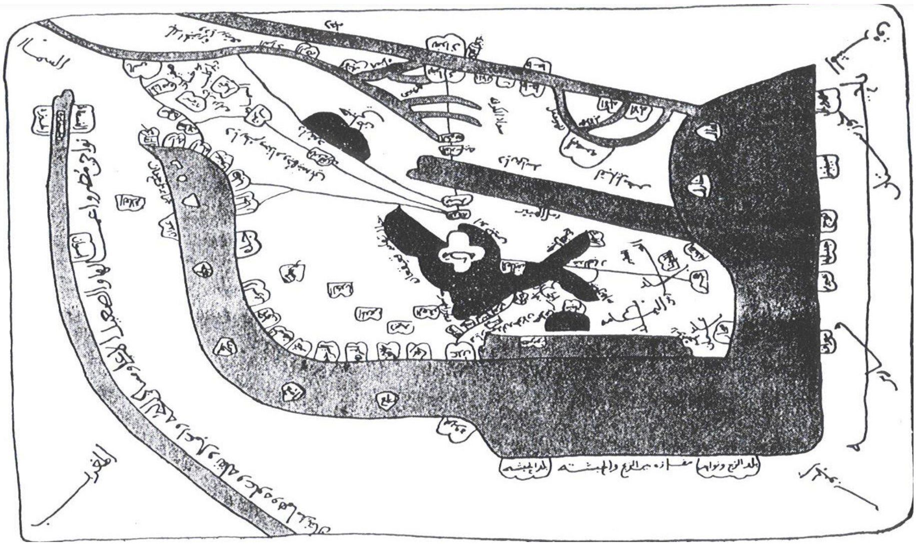


لوحة الحجاز الجنوبي، أبحاث جيولوجية، خريطة رقم B01C-I، وزارة البترول والثروة المعدنية، الرياض.

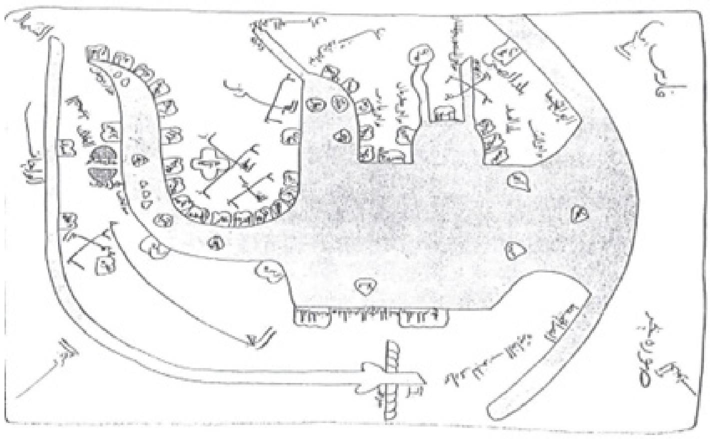


خارطة تخطيطية (مكة المكرمة) 1:000,005، لوحة رقم ES-73GN، طبعت عام1141هـ، وزارة البترول والثروة المعدنية- الرياض.

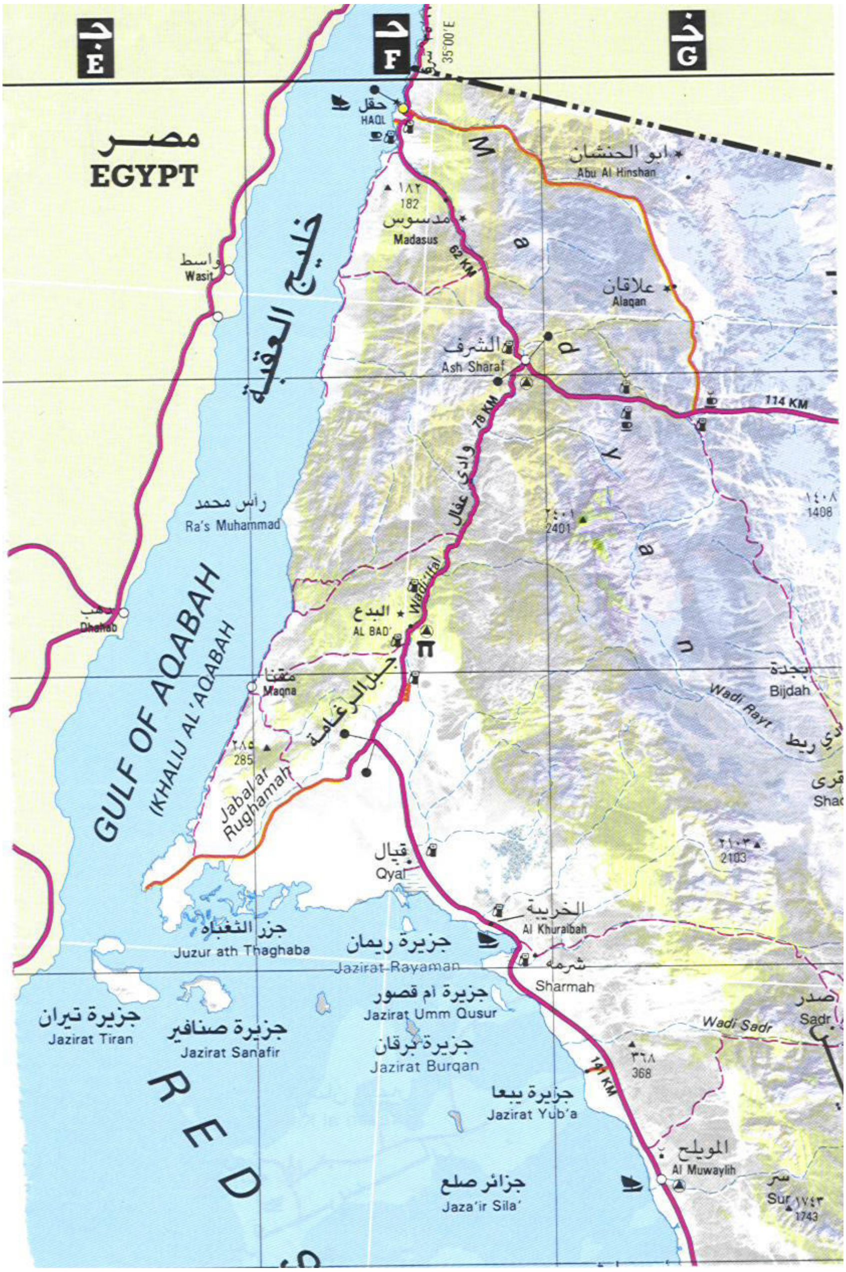
(بعد التصغير «مقاس 4A»).



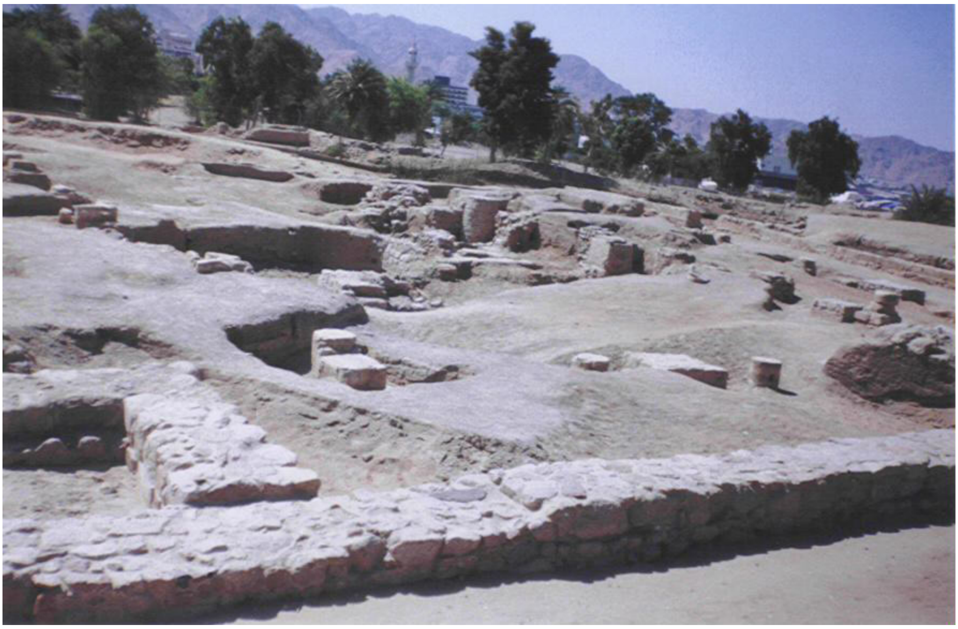
ابن حوقل: صورة الأرض، ص02(تمثل الخريطتين جزيرة العرب)



ابن حوقل: صورة الأرض، ص54.

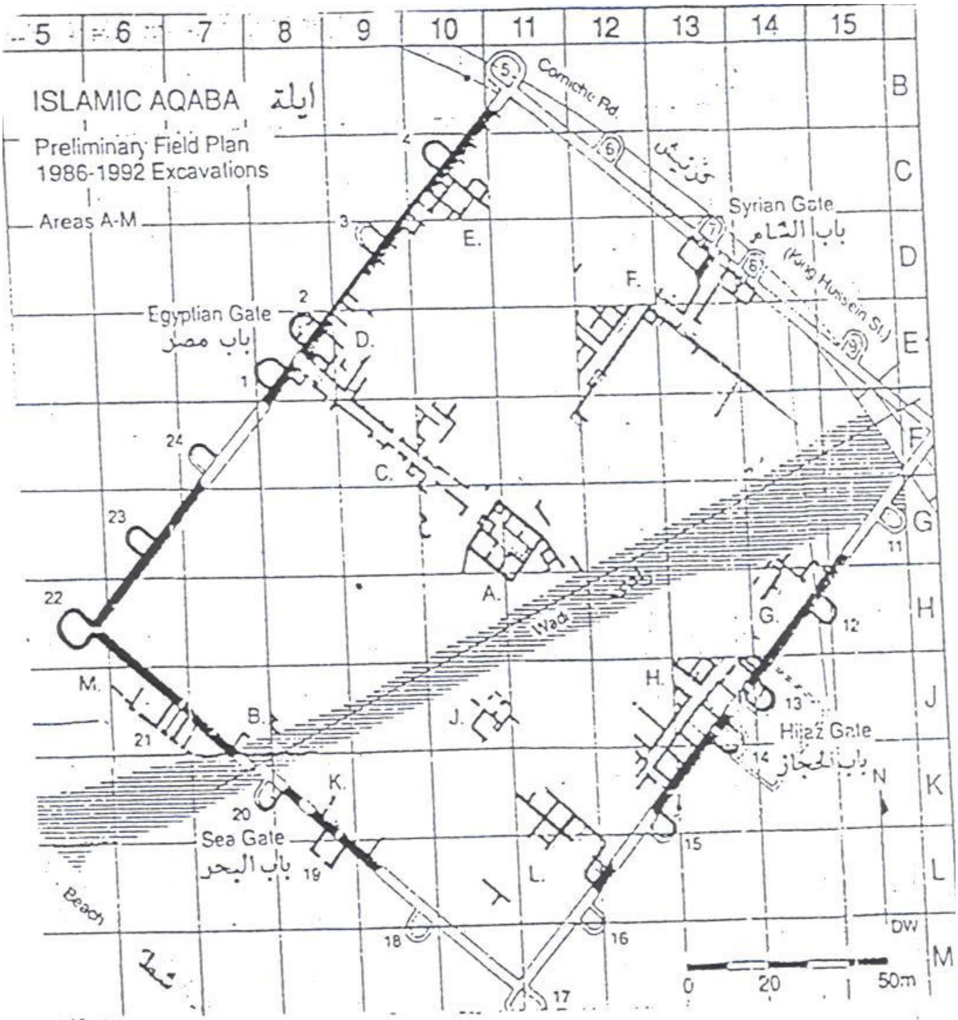


زكي فارسي: دليل الطرق السياحية، الطبعة الأولى، 5141هـ خريطة خليج العقبة، رقم ب 1.





بقايا آثار مدينة أيلة الإسلامية داخل مدينة العقبة، قام الباحث بتصويرها فتوغرفياً بتاريخ 6/ 4/ 0241هـ- 91/ 7/ 9991م.



العناصر المعمارية التي تم الكشف عنها في مدينة أيلة حتى نهاية موسم ١٩٩٢. (Whitcomb 1993 A: 12)

رائد الشرع: مدينة أيلة وتخطيطاتها في الفترة الإسلامية المبكرة، رسالة ماجستير، ص721.



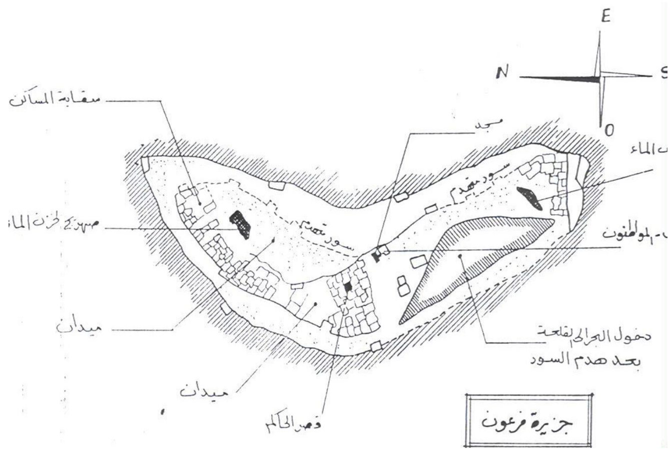
واجهة القلعة المملوكية بالعقبة، وصورت بتاريخ 6/ 4/ 0241هـ- 91/ 7/ 9991م.



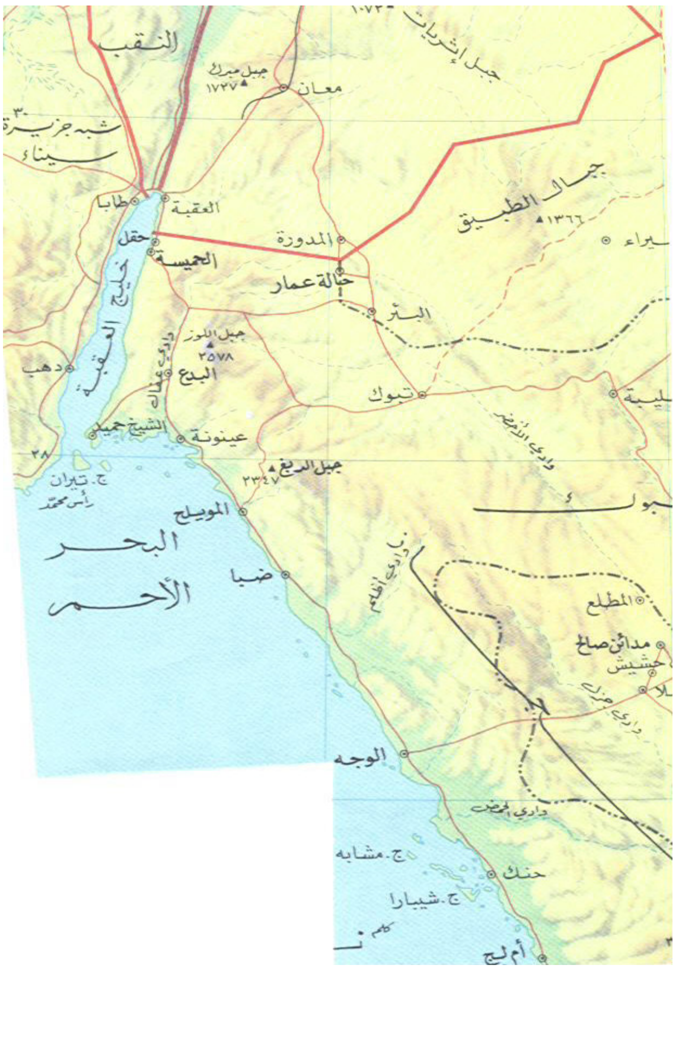
صورة نص عند مدخل القلعة باسم السلطان (قانصوة الغوري)

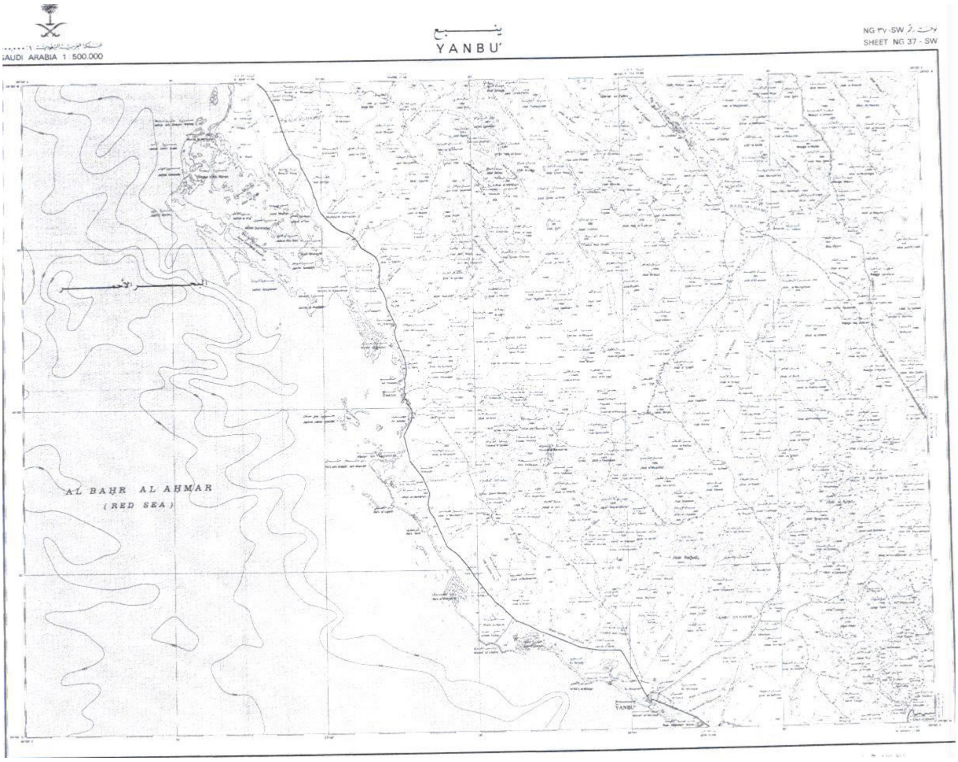


صورة بئر داخل القلعة المملوكية



تقع هذه الجزيرة في خليج العقبة جنوب طابا بمسافة 21كم
إلى الجنوب الغربي من مدينة العقبة، وتبعد 052م عن ساحل سيناء.
-يوسف حسن غوانمة: أيلة (العقبة) والبحر الأحمر، ص721.





خارطة تخطيطية (ينبع)،1:000,005، لوحة رقم WS-73 GN، طبعت عام4041هـ، وزارة البترول والثروة المعدنية، الرياض.

(بعد التصغير «مقاس 4A»).



زكي فارسي: دليل الطرق السياحية، خريطة ينبع، رقم ب 21.

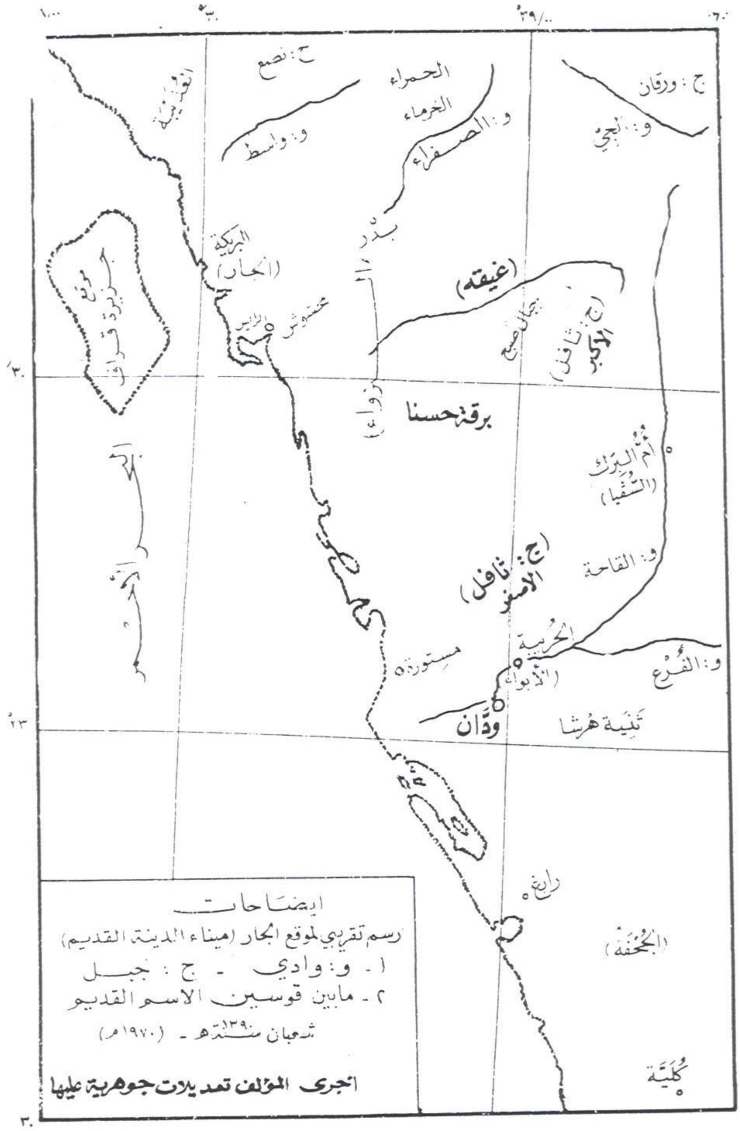


تظهر في الصورة قرية العلقمية بينبع التي انطلق منها الشريف قَتَادة ليحكم مكة (مؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجري). وخلف القرية يظهر جبل رضوى الشهير.



بقايا آثار ما يُحتمل أنه مسجد العشيرة بينبع بالقريّة (قرية الأشراف).

صورت بتاريخ 72/ 3/ 0241هـ- 01/ 7/ 9991م.



(مخطط تقريبي لميناء الجار وما حوله من المواضع)

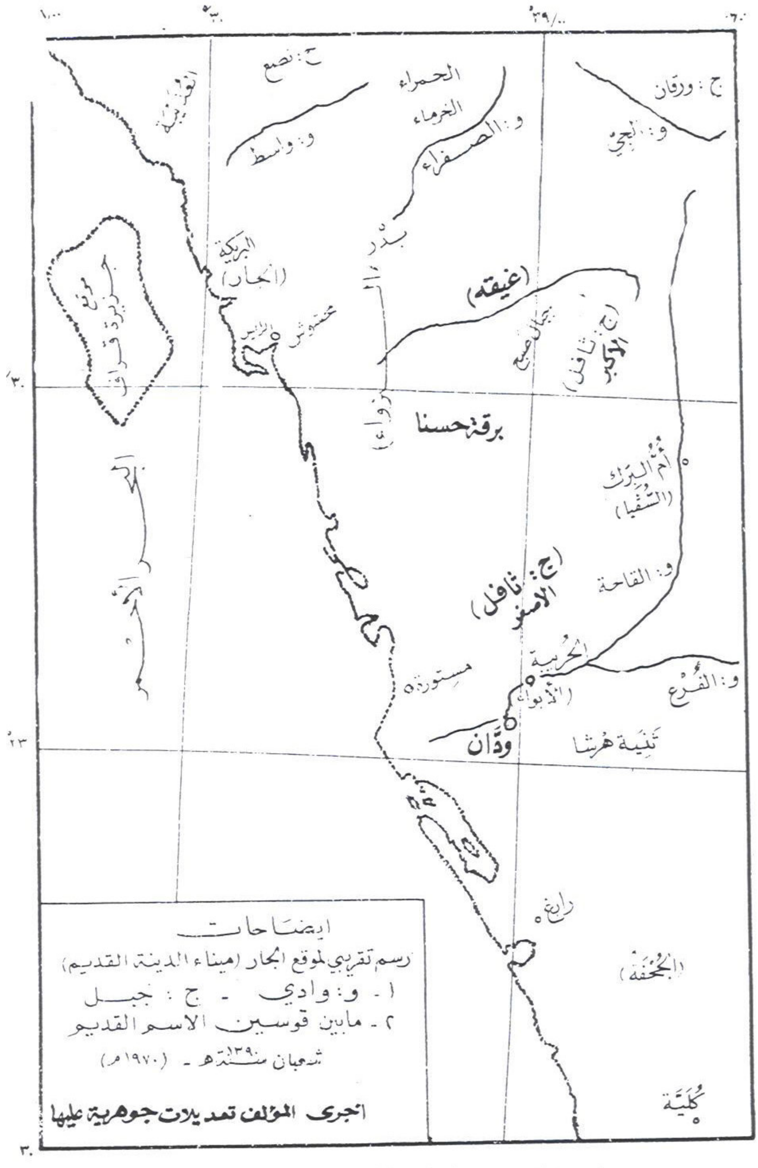
خريطة توضح موقع ميناء الجار على ساحل بحر الحجاز، من عمل، حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، ص391، مع تعديلات لعاتق بن غيث البلادي، معجم معالم الحجاز، ج2، ص701.



تظهر في الصورة قرية العلقمية بينبع التي انطلق منها الشريف قتادة ليحكم مكة (مؤسس الطبقة الرابعة من الأشراف أمراء مكة من القرن السادس إلى القرن الرابع عشر الهجري). وخلف القرية يظهر جبل رضوى الشهير.



بقايا آثار ما يُزعم أنه مسجد العشيرة بينبع بالقريّة (قرية الأشراف) .
صورت بتاريخ 27/3/1420هـ



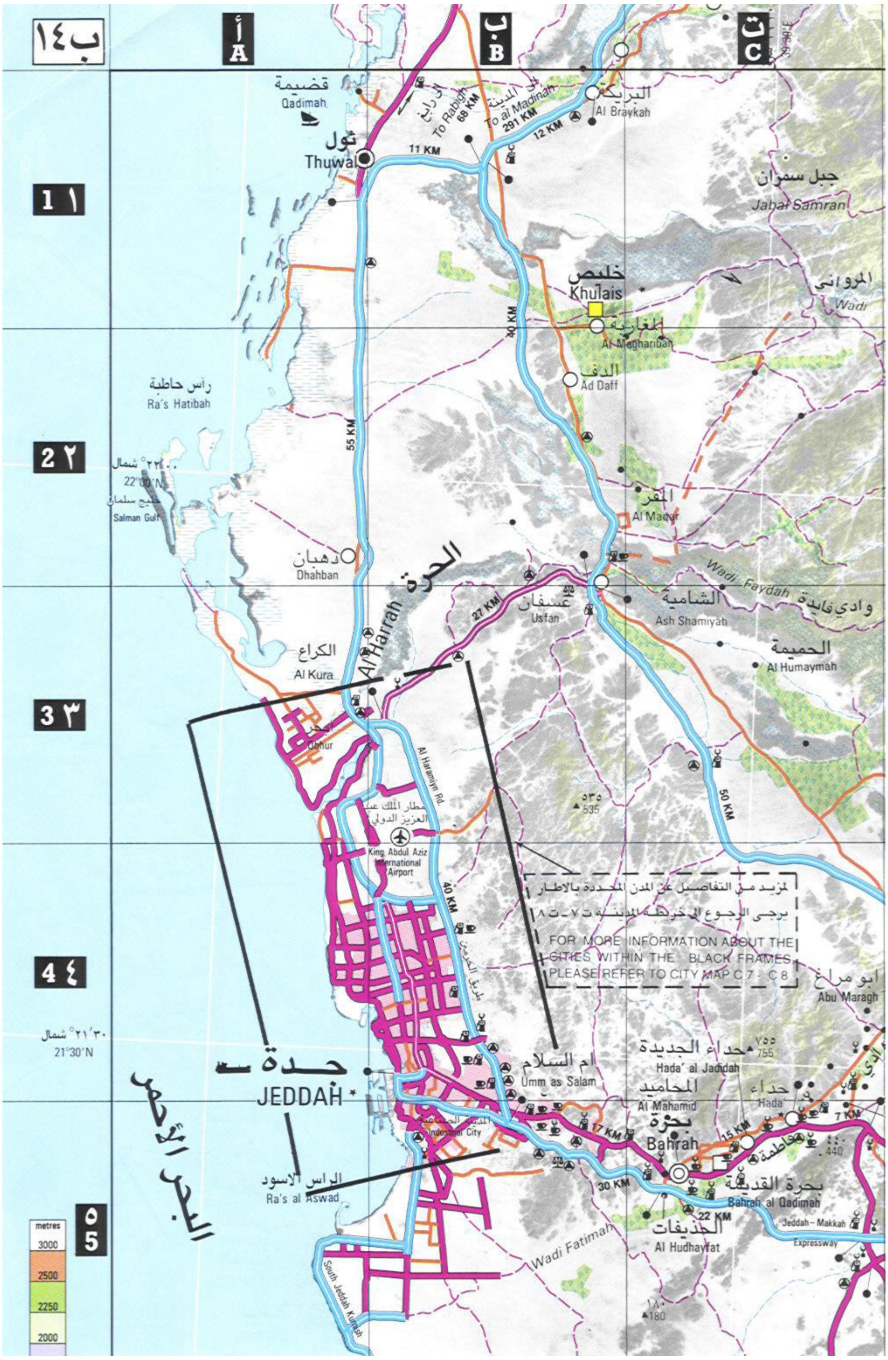
(مخطط تقريبي لميناء الجار وما حوله من المواضع)

خريطة توضح موقع ميناء الجار على ساحل بحر الحجاز ، من عمل ،حمد الجاسر ، في شمال غرب الجزيرة ، ص391، مع تعديلات لعاتق بن غيث البلادي ، معجم معالم الحجاز ، ج2 ، ص701.

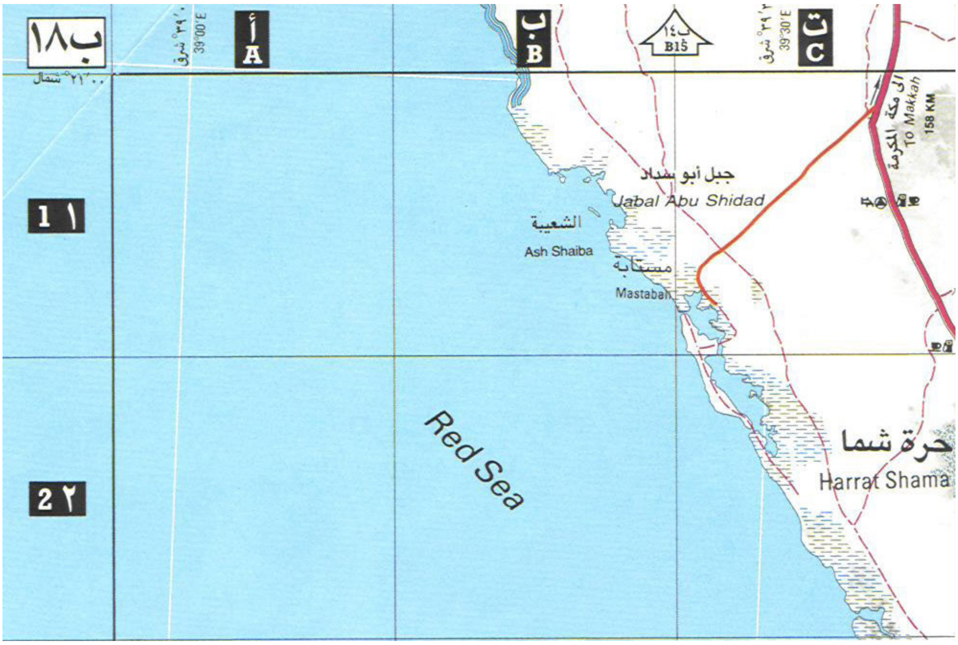


جزء من الهضبة (التلة) التي يُرجح أنها جزء من مدينة الجار الإسلامية ، ويظهر السياج الحديدي والبحر، في شرم البريكة جنوب ينبع .

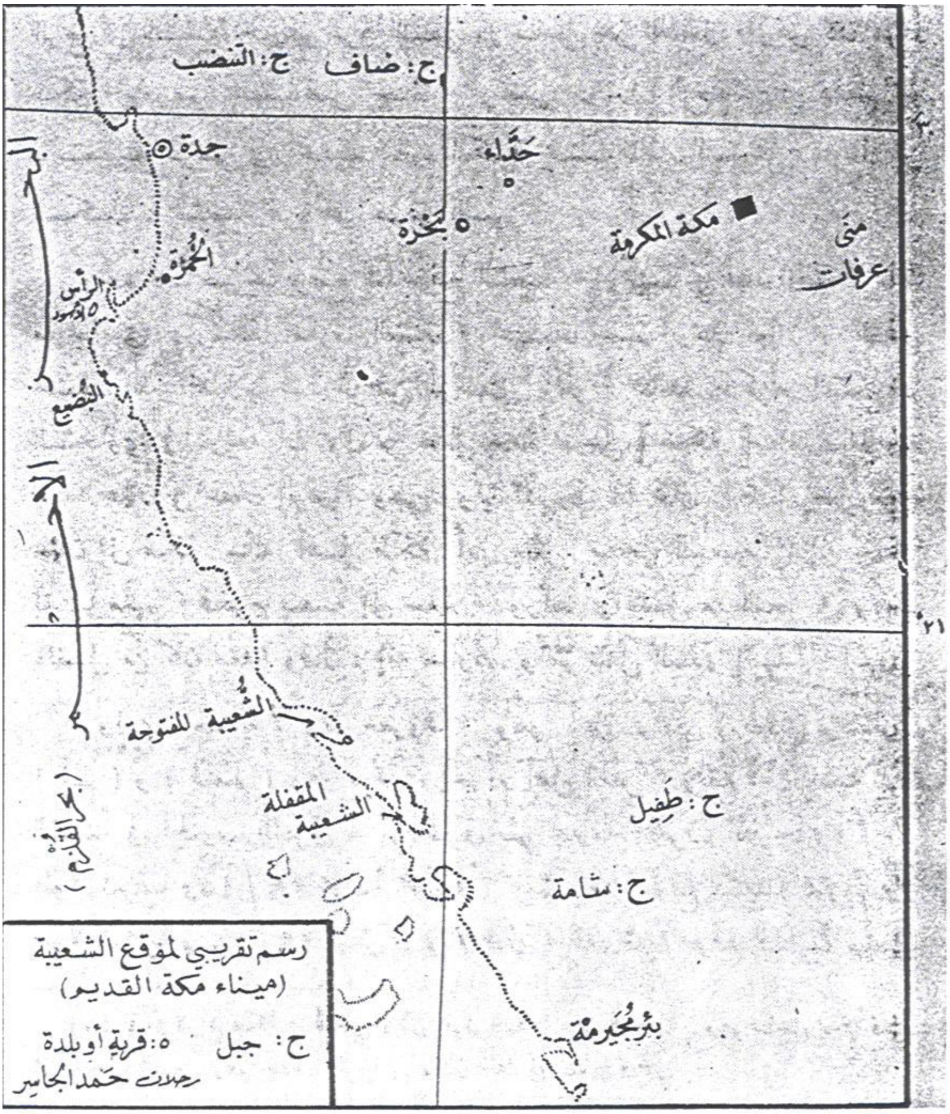
التقطت الصورة بتاريخ 0241/3/82هـ



زكي فارسي ،دليل الطرق السياحية ، خريطة جدة رقم ب 41 .



زكي فارسي: خريطة الشعيبــة رقم ب 81.



مخطط تقريبي يوضح موقع الشعيبة بالنسبة الى بعض الأمكنة المعروفة

حمد الجاسر ، في شمال غرب المملكة ، ص 671.



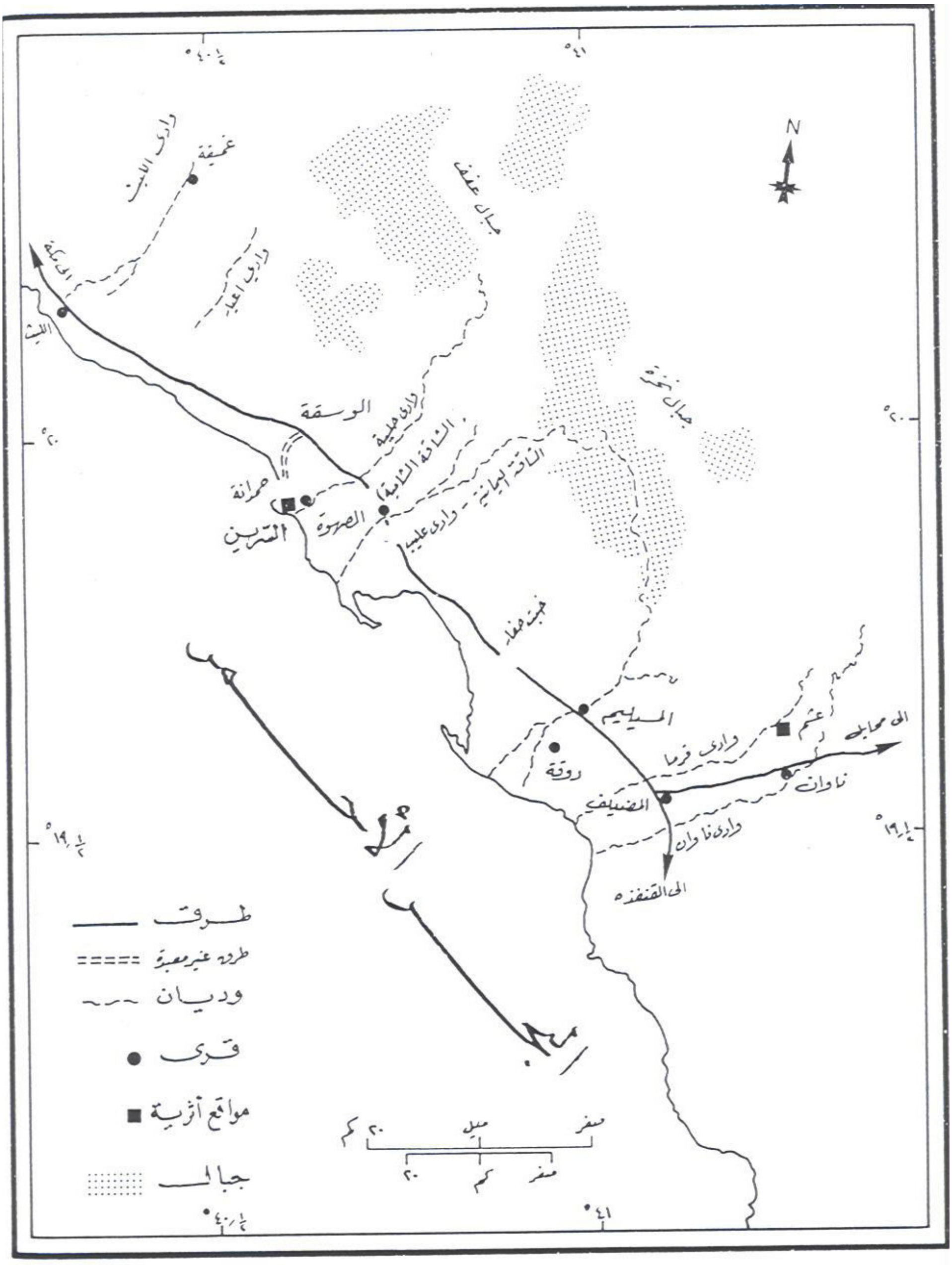


تظهر في الصورة أعلاه الشعيبة المفتوحة، وفي الصورة التي تليها الشعيبة المسدودة (المقفلة)، وتم التقاط المنظرين قبيل غروب يوم الجمعة 2/5/1420هـ.



خريطة تبين موقع ميناء السرين جنوب ميناء الليث.

الفقيه : مدينة السرين الأثرية ، ص7 .

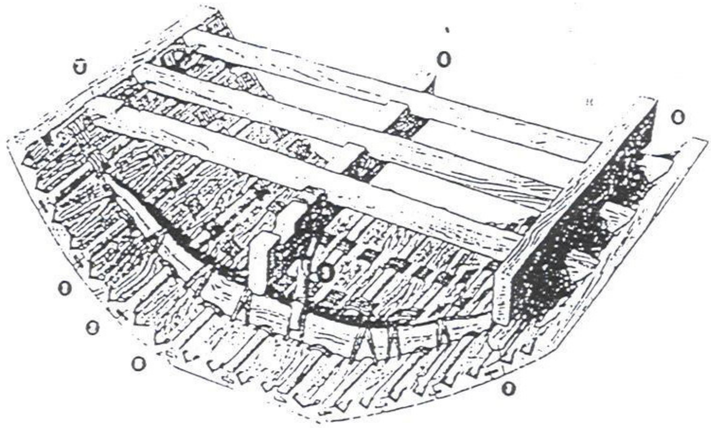


خريطة توضح موقع السّرين .

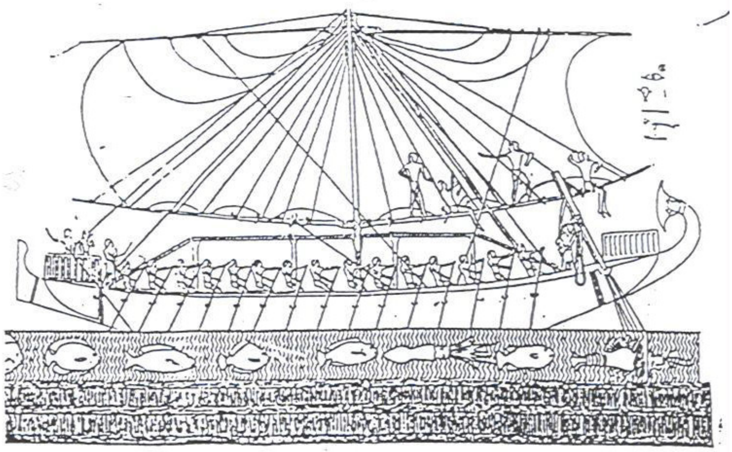
الزيلعي : حاكم السرين (راجح بن قتادة) ، ص03 .



آثار مدينة السرين محاطة بسياج حديدي وتُرى في الصورة غرفة الحارس الحكومي.
(التقطت الصورة بتاريخ 0241/5/8هـ) .



قطاع فى بدن سفينة خوفو الخيطية يوضح طريقة "خياطة" الألواح بالحبال "والثقوب السحرية" التى تدخل فيها الحبال.



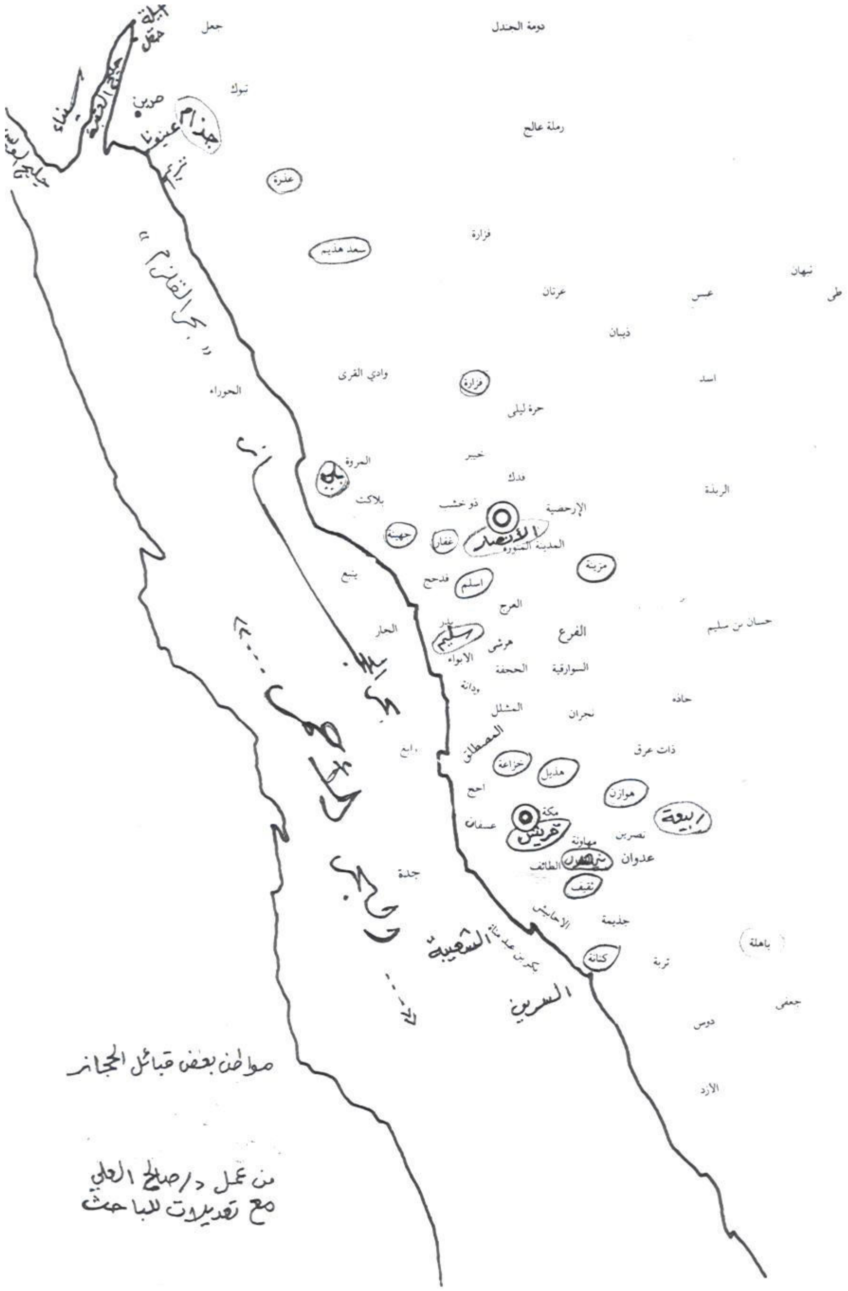
احدى سفن البحر الأحمر الخيطية

رسم تقريبي للسفن الخيطية التي عبرت بحر الحجاز في العصور الوسطى.

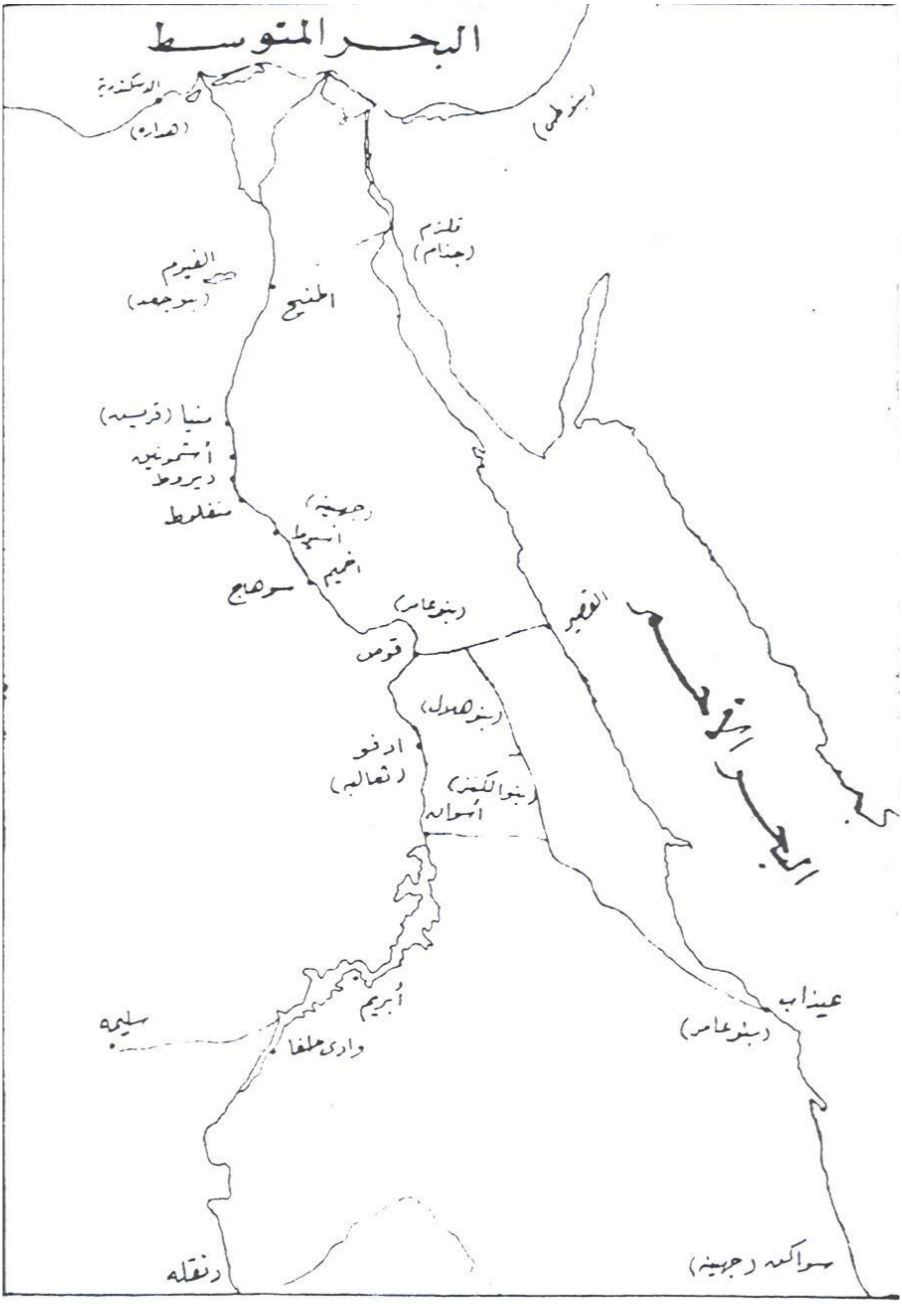
عبد المنعم عبد الحليم سيد : الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية في البحر الأحمر، ص48 .



شـوقي أبو خليـل: أطلس التاريخ العربي الإســلامي ، الطبعــة الرابعــة ، 6141_6991 ، دار الفكر ، دمشق .ص82 .



صالح العلي : الحجاز في صدر الإسلام ، ص091 (تمثل الخريطة مواطن أبرز قبائل الحجاز) «مع تعديلات وإضافات للباحث«.



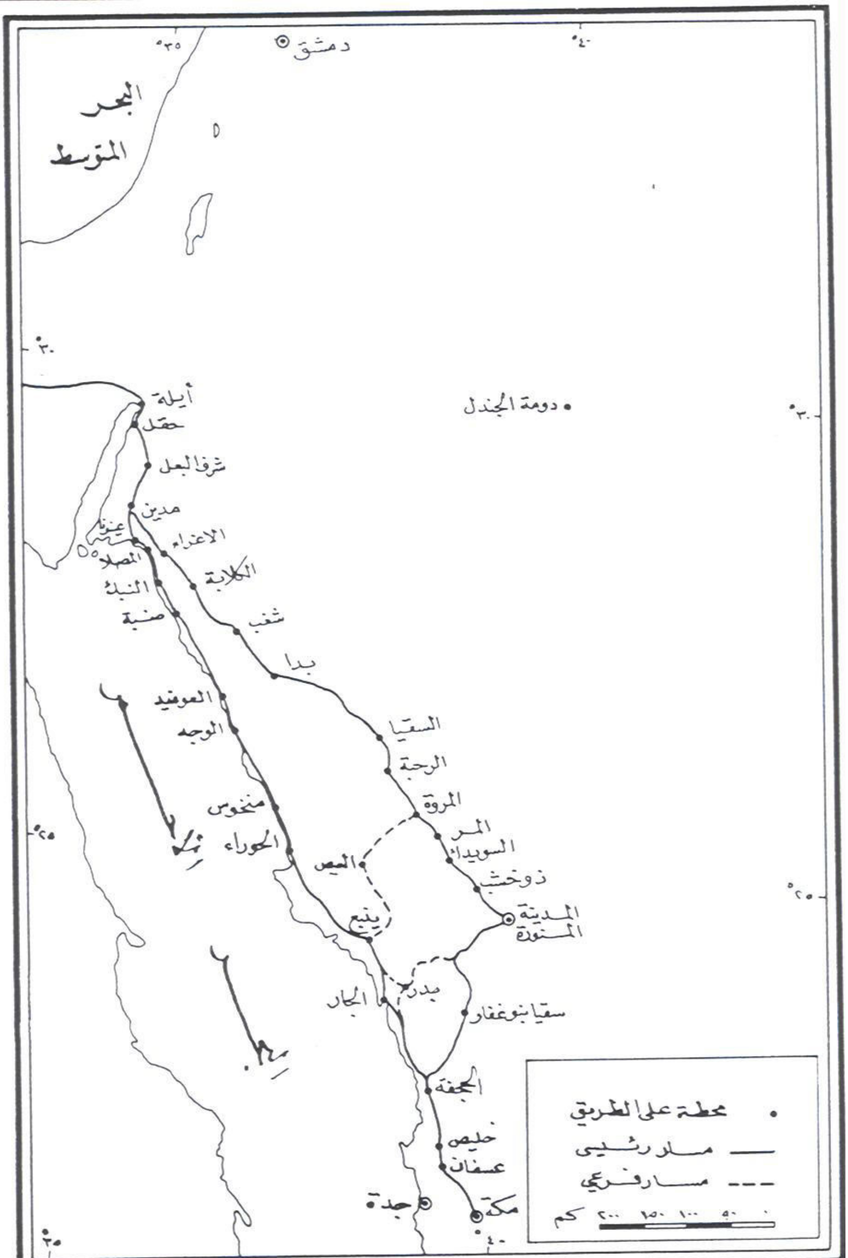
العناصر السكانية في وادي النيل في بداية عصر دولة المماليك

-السيد عبد العزيز السالم : البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي ، ص952.(تمثل الخريطة مواطن بعض القبائل العربية في وادي النيل).



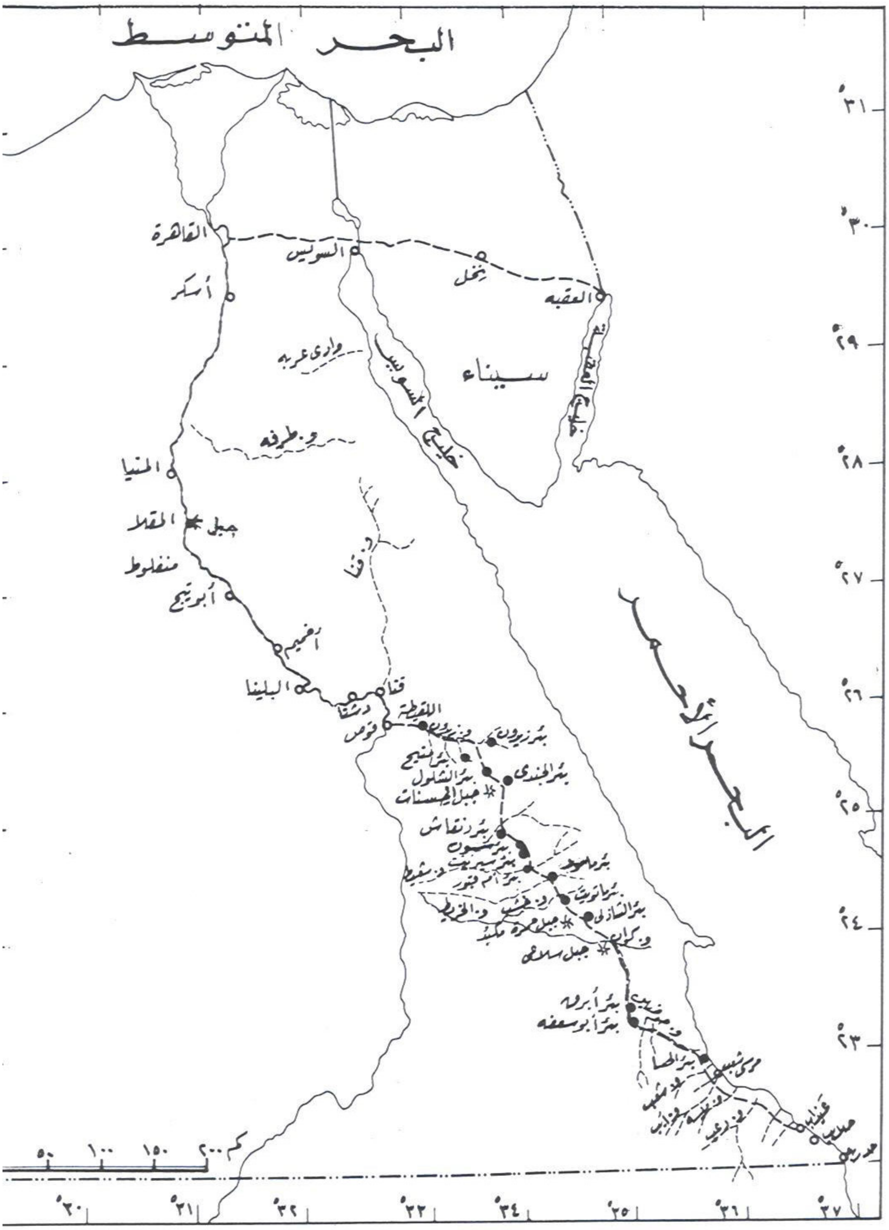
-تمثل الخريطة مواقع بعض دول الطراز الإسلامي بالقرن الإفريقي.

-ناود : العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي ،ص9 . مع تعديلات للباحث.



خارطة لطريقي الحج المصري الساحلي والداخلي خلال العصور: الأموي والعباسى والفاطمى.

-علي غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، ص012.



طريق القاهرة عيذاب

طريق الحاج المصري داخل مصر إلى ميناء عيذاب على الساحل المصري من البحر الأحمر المقابل لميناء جدة الحجازي .

-سيد عبد المجيد بكر : الملامح الجغرافية لدروب الحجيج ،ص551.

المصادر والمراجع[1]

أولاً- المصادر:

1. القرآن الكريم

- ابن الأثير:

عزالدين علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني الجزري: (ت630هـ).

2. الكامل في التاريخ، الطبعة الرابعة، 1403هـ. 1983م، دار الكتاب العربي، بيروت.

- الإدريسي:

أبي عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس الحموي الحسني المعروف (بالشريف الإدريسي): (ت 560هـ).

3. نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، الطبعة الأولى، 1409هـ. 1989م، عالم الكتب، بيروت.

- الأزرقي:

أبي الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد: (ت 244هـ).

4. أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الرابعة، 1403هـ. 1983م، مطابع دار الثقافة، مكة المكرمة.

- الإصطخري:

أبو إسحاق ابراهيم بن محمد: (ت 340هـ).

5. المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر الحسيني، الجمهورية العربية المتحدة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1381هـ . 1961م.

(1) جرى ترتيب المصادر والمراجع على عدم اعتبار الملحقات (ابن، وأبو، وأل التعريف)

- ابن إياس:
محمد بن أحمد الحنفي: (ت 930هـ).
6. بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الثانية، 1383هـ. 1963م، القاهرة.
- البخاري:
محمد بن إسماعيل الجعفي: (ت 256هـ).
7. الجامع الصحيح، مراجعة وضبط الشيخ محمد علي قطب، والشيخ هشام البخاري، الطبعة الأولى، 1417هـ. 1997م، المكتبة العصرية، بيروت.
- ابن بطوطة:
محمد بن عبدالله اللواتي الطنجي: (ت 779هـ).
8. تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق: عبدالهادي التازي، 1417هـ. 1997م، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة «التراث».
- البكري:
أبي عبيد عبدالله بن عبدالعزيز الأندلسي: (ت 487هـ).
9. معجم مااستعجم من أسماء البلاد والمواضع، تحقيق: مصطفى السقا، الطبعة الأولى، 1364هـ. 1945م، القاهرة.
- البلاذري:
أحمد بن يحيى: (ت 279هـ).
10. فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، 1403هـ، دار الكتب العلمية، بيروت.
- البلوي:
خالد بن عيسى: (ت بعد 765هـ).

11. تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق: العلامة الحسن السائح، طبع اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المملكة المغربية ودولة الإمارات العربية المتحدة.

- التبريزي :

الخطيب أبي زكريا يحي بن علي: (ت 502هـ).

12 . شرح القصائد العشر، ضبطه وصححه عبدالسلام الحوفي، الطبعة الأولى، 1405هـ - 1985م، دار الكتب العلمية، بيروت.

- التجيبي:

القاسم بن يوسف التجيبي السبتي: (ت 730هـ).

13 . مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق: عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب بـ ليبيا، 1975م.

- ابن تغري بردي:

أبو المحاسن يوسف: (ت 874هـ).

14 . النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر.

- ابن تيمية:

أحمد بن عبدالحليم الحراني: (ت 728هـ).

15 . اقتضاء الصراط المستقيم، مطبعة الحكومة، 1389هـ، مكة المكرمة.

- ابن جبير:

محمد بن أحمد بن جبير الكناني، الأندلسي: (ت 614هـ).

16 . رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت.

- الجزيري:

عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر الأنصاري: (توفي بعد 976هـ).

17 . درر الفرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة، تحقيق: حمد

الجاسر، الطبعة الأولى، 1403هـ.1983م، منشورات دار اليمامة، الرياض.

.ابن الجوزي:

عبدالرحمن بن محمد بن علي: (597هـ).

18 .مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن، تحقيق: أبو عبدالله محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، 1416هـ.1996م، دار الكتب العلمية، بيروت.

.ابن حجر:

أحمد بن علي العسقلاني: (ت 852هـ).

19 .تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت.

.الحربي:

إبراهيم بن إسحاق بن إبراهيم: (ت 285هـ).

20 . كتاب «المناسك» وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة (المنسوب له)، تحقيق: حمد الجاسر، من مطبوعات مجلة «العرب» الرياض، دار اليمامة، 1420هـ.

.الحفني:

أحمد الحفني القنائي.

21 . الجواهر الحسان في تاريخ الحبشان، الطبعة الأولى، 1321هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق، مصر.

.الحميري:

محمد بن عبدالمنعم: (ت 727، وورد 900هـ).

22 .الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: احسان عباس، الطبعة الثانية، 1984م، مكتبة لبنان، بيروت.

.ابن حوقل:

محمد بن علي الموصلي: (ت 367هـ).

23 .كتاب صورة الأرض، الطبعة الثانية، القسم الأول، مطبعة بريل، ليدن،

1938م.

- ابن خرداذبة:

أبي القاسم عبيدالله بن عبدالله : (المتوفى في حدود سنة 300هـ).

24. المسالك والممالك، مكتبة المثنى ببغداد.

- خسرو:

ناصر: (ت 481هـ).

25. سفرنامة، ترجمة: خالد البدلي، الطبعة الأولى، 1403هـ. 1983م، جامعة الملك سعود.

- الخطيب البغدادي:

أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت: (ت 463هـ).

26. تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن خلدون:

عبدالرحمن بن محمد: (ت 808هـ).

27. تاريخ ابن خلدون (ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، تحقيق خليل شحادة، الطبعة الأولى، 1401هـ. 1981م، دار الفكر، بيروت.

- دحلان:

أحمد زيني: (ت 1304هـ).

28. خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، الطبعة الأولى، 1305هـ، المطبعة الخيرية، مصر.

- ابن دقماق:

إبراهيم بن محمد أيدمر العلائي: (ت 809هـ).

29. الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عزالدين علي، الطبعة الأولى، 1405هـ. 1985م، عالم الكتب.

- الرازي:
الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر: (ت 666هـ).
30. مختار الصحاح، 1987م، مكتبة لبنان، بيروت.
- ابن رُسْته:
أبي علي أحمد بن عمر: (ت بعد 290هـ).
31. كتاب الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، طبع في مدينة ليدن في هولندا، بريل، 1891م.
- الرشيدي:
أحمد: (1178هـ).
32. حسن الصفا والابتهاج بذكر من ولي إمرة الحاج، تحقيق ليلى عبداللطيف أحمد، 1980م، مكتبة الخانجي بمصر.
- ابن سعد:
محمد بن سعد بن منيع: (ت 230هـ).
33. الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت.
- السُّلَمي:
عرّام بن الأَصبَغ: (توفي في القرن الثالث الهجري).
34. كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الطبعة الأولى، 1373هـ، مطبعة أمين عبدالرحمن بالقاهرة.
- السمعاني:
أبي سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي: (ت 562هـ).
35. الأنساب، تقديم وتعليق عبدالله عمر البارودي، الطبعة الأولى، 1419هـ. 1998م، دار الفكر، بيروت.
- السمهودي:
نورالدين علي بن أحمد المصري: (ت 911هـ).

36. وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، الطبعة الرابعة، 1404هـ.1984م، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.

- السنجاري:

علي تاج الدين بن تقي الدين: (ت 1125هـ).

37. منائح الكرم في تاريخ مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق: جميل المصري وآخرون، الطبعة الأولى، 1419هـ، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة.

- السويدي:

محمد أمين العباسي البغدادي: (ت 1246هـ).

38. سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب، الطبعة الأولى، 1418هـ.1997م، مكتبة دار حراء، جُدة.

- الشافعي:

محمد بن إدريس: (ت 204هـ).

39. الأم، تصحيح: محمد زهري النجار، الطبعة الثانية، 1393هـ.1973م، دار المعرفة، بيروت.

- أبو شامة:

عبدالرحمن بن إسماعيل المقدسي الشافعي: (ت665هـ).

40. الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، الطبعة الأولى، 1997م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

41. تراجم رجال القرنين السادس والسابع، المعروف بـ(الذيل على الروضتين)، تحقيق: محمد زاهد الكوثري، والسيد عزت عطار الحسيني، الطبعة الثانية، 1974م، دار الجيل، بيروت.

- ابن شاهين:

غرس الدين خليل الظاهري: (ت 665هـ).

42. زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، المطبعة الجمهورية، 1984م.

- الطبري:

أبو جعفر محمد بن جرير: (ت 310هـ).

43. تاريخ الأمم والملوك، الطبعة الثانية، 1408هـ.1988م، دار الكتب العلمية، بيروت.

- ابن الطقطقا، أو الطقطقي:

محمد بن علي بن طباطبا: (ت 709هـ).

44. الفخري في الآداب السلطانية، والدول الإسلامية، 1386هـ.1966هـ، دار صادر، بيروت.

- ابن أبي عاصم:

أبي بكر عمر: (ت 287هـ).

45. السنة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت.

- العباسي:

أحمد عبدالحميد: (من أهالي القرن العاشر الهجري).

46. عمدة الأخبار في مدينة المختار، تحقيق: الشيخ محمد الطيب الأنصاري، طبعه للمرة الثانية أسعد درابزوني الحسيني.

- العبدري:

محمد بن محمد الحيحي: (كانت رحلته إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن السابع الهجري).

47. رحلة العبدري، المسماة «الرحلة المغربية»، تحقيق: محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، الرباط، 1968م.

- العصامي:

عبدالملك بن حسين: (ت 1101هـ).

48. سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، 1379هـ، المطبعة السلفية، القاهرة.
. عمارة اليمني:
نجم الدين الحكمي: (ت 569هـ).
49. تاريخ اليمن (المسمى المفيد في أخبار صنعاء وزبيد ...)، تحقيق: محمد بن علي الأكوع الحوالي، الطبعة الثانية، 1396هـ. 1976م، مطبعة السعادة، القاهرة.
. ابن عنبة:
جمال الدين أحمد بن علي الحسني: (ت 748هـ).
50. عمدة الطالب في أنساب آل أبي طالب، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.
. عياض:
ابن موسى القاضي اليحصبي: (ت 544هـ).
51. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، تحقيق: علي محمد البجاوي، الطبعة الأولى، 1417هـ.1997م، المكتبة العصرية، بيروت.
. الفاسي:
تقي الدين محمد بن أحمد الحسني المكي: (ت 832هـ).
52. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، 1419هـ.1998م، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
53. شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، المشرف على التحقيق: سعيد عبدالفتاح، الطبعة الأولى، 1417هـ، مكتبة نزار الباز، مكة المكرمة.
. الفاكهي:
أبو عبدالله محمد بن إسحاق: (ت 285هـ).
54. تاريخ مكة أو (أخبار مكة)، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، الطبعة الثانية، 1414هـ، دار خضر، بيروت.

- أبو الفدا:
الملك المؤيد إسماعيل، صاحب حماة (ت 732هـ).
55. تقويم البلدان، مكتبة المثنى، بغداد، ومؤسسة الخانجي بمصر.
- الفراهيدي:
الخليل بن أحمد: (ت 170هـ).
56. العين، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، 198م، دار الرشيد للنشر، الجمهورية العراقية - وزارة الثقافة والإعلام، سلسلة المعاجم والفهارس.
- ابن فرج:
عبدالقادر بن أحمد بن فرج الجُدي: (ت 1010هـ).
57. السلاح والعدة في تاريخ جُدة، تحقيق: مصطفى الحدري، الطبعة الأولى، 1408هـ-1988م، دار ابن كثير، دمشق، مكتبة دار التراث، المدينة.
- ابن فهد:
عزالدين عبدالعزيز بن عمر بن محمد بن فهد : (ت 922هـ).
58. غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، 1406هـ، 1986م، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة، مكة.
- ابن فهد:
النجم عمر بن محمد بن فهد القرشي المكي: (ت885هـ).
59. إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق فهيم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي، كلية الشريعة، مكة.
- الفيروز آبادي:
محمد بن يعقوب: (ت 817هـ).
60. المغانم المطابة في معالم طابة، قسم المواضع، تحقيق: حمد الجاسر،

الطبعة الأولى، 1389هـ. 1969م، دار اليمامة، الرياض.

61. القاموس المحيط، القاهرة، دار المأمون، 1938م.

- الفيومي:

أحمد بن محمد: (ت 770هـ).

62. المصباح المنير، المكتبة العلمية، بيروت.

- قدامة:

قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي: (ت 3220هـ).

63. نبذ من كتاب الخراج وصُنعة الكتابة، الملحق بكتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة، مكتبة المثنى ببغداد.

- القطبي:

عبدالكريم بن محب الدين القطبي: (ت 1014هـ).

64. إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، تعليق: أحمد محمد جمال وآخرون، الطبعة الثانية، 1407هـ، 1987م، دار الرفاعي، الرياض.

- القطبي:

قطب الدين النهروالي: (ت 990هـ).

65. الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، على هامش كتاب (خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام) للدحلان، الطبعة الأولى، 1305هـ، المطبعة الخيرية، مصر.

- ابن القيم:

محمد بن أبي بكر الزرعي: (ت 751هـ).

66. المنار المنيف في معرفة الحديث الصحيح والضعيف، تحقيق: عبدالفتاح أبو غدة، الطبعة الأولى، 1390هـ، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب.

- ابن كثير:

أبو الفدا إسماعيل بن عمر: (ت 774هـ).

67 . تفسير القرآن العظيم، الطبعة الأولى، 1400هـ . 1980م، دار الفكر، دمشق.

. الكندي:

أبو عمر محمد بن يوسف: (ت 350هـ).

68 . الولاة وكتاب القضاة، تحقيق: رفن كست، مطبعة الأب اليسوعيين، بيروت، 1908هـ، ومكتبة المثنى ببغداد.

. ابن ماجد:

شهاب الدين أحمد بن ماجد ابن أبي الركائب النجدي: (ت 936هـ تقريباً).

69 . كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد (العلوم البحرية عند العرب)، تحقيق: إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية، بدمشق، 1390هـ . 1971م.

. ابن ماكولا:

أبو نصر علي بن هبة الله: (ت 485هـ).

70 . الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب.

. مالك:

الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي: (ت 179هـ).

71 . المدونة الكبرى، دار صادر، بيروت.

. ابن المجاور:

يوسف بن يعقوب بن محمد: (ت 691هـ).

72 . صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة «تاريخ المستبصر»، تحقيق: اوسكر لوفزين، طبع في ليدن، 1951م.

. محمد بن سليمان: (من أهل القرن الثامن الهجري).

73 . مفاخرة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة، تحقيق: محمد الشshتاوي، الطبعة الأولى، 1419هـ . 1999م، دار الآفاق العربية، القاهرة.

- المسعودي:
علي بن الحسين بن علي المسعودي: (ت 346هـ).
74. مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق: قاسم الشماعي الرفاعي، الطبعة الأولى، 1408هـ. 1989م، دار القلم، بيروت.
- مسلم:
مسلم بن الحجاج القشيري: (ت 261هـ).
75 . صحيح مسلم، بشرح النووي: حققه: عصام الصباطي وآخرون، دار الحديث، القاهرة.
- المقريزي:
تقي الدين أحمد بن علي: (ت 846هـ).
76. السلوك في معرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، 1418هـ. 1997م، دار الكتب العلمية، بيروت.
77. البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب، تحقيق: عبدالمجيد عابدين، الطبعة الأولى، 1961، عالم الكتب، القاهرة.
78. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، مؤسسة الحلبي وشركاه، القاهرة.
79 . اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء، جـ1، تحقيق: جمال الدين الشيال، القاهرة، 1967م، جـ2، جـ3، تحقيق: محمد حلمي أحمد، القاهرة، 1393هـ . 1973م.
80 . الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام (رسائل المقريزي)، تحقيق: رمضان البدري وأحمد مصطفى قاسم، الطبعة الأولى، 1419هـ. 1998م، دار الحديث، القاهرة.
- المنذري:
زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت 656هـ)
81. مختصر صحيح مسلم، تحقيق، محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة

الأولى، 1388هـ. 1969م، الدار الكويتية.
.ابن منظور:
جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي:(ت 711هـ).
82. لسان العرب، الطبعة الأولى، دار صادر، بيروت.
.المهري:
سليمان بن أحمد بن سليمان: (ت 961هـ).
83. العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية، تحقيق: إبراهيم خوري، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1390هـ. 1970م.
.ابن النجار:
محمد بن محمود بن الحسن: (ت 643هـ).
84. الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، تحقيق: محمد زينهم محمد عزب، الطبعة الأولى، 1995م. 1416هـ، مكتبة الثقافة الدينية.
.ابن هشام:
عبدالملك الحميري: (ت 218هـ).
85. السيرة النبوية، تحقيق: طه عبدالرؤوف سعد، 1975م، دار الجيل، بيروت.
.الهمداني:
الحسن بن أحمد بن يعقوب: (ت 334هـ).
86. صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، الطبعة الأولى، 1410هـ .1990م، مكتبة الإرشاد، صنعاء.
.ياقوت:
أبوعبدالله ياقوت الحموي البغدادي الرومي: (ت 626هـ).
87. معجم البلدان، 1397هـ. 1977م، دار صادر، بيروت.
.اليعقوبي:

أحمد بن واضح الكاتب: (ت 284هـ).

88. كتاب البلدان، الملحق بكتاب الاعلاق النفسية لابن رسته، المجلد السابع، طبع في مدينة ليدن المحروسة بمطبع بريل، 1891م.

89. تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت.

ثانياً : المراجع:

- أحمد، أحمد رمضان

90. شبه جزيرة سيناء، 1397هـ. 1977م.

- الألباني، محمد ناصر الدين بن نوح نجاتي (ت 1420هـ)

91. مختصر صحيح البخاري، ج1، الطبعة الخامسة، 1406هـ . 1986م، المكتب الإسلامي. ج2، الطبعة الثالثة، 1413هـ، دار ابن القيم، الدمام.

- الأنصاري، عبدالقدوس

92. موسوعة تاريخ مدينة جدة، المجلد الأول، الطبعة الثانية، 1401هـ . 1980م، مطابع الروضة بجدة.

93. بين التاريخ والآثار، الطبعة الثالثة، 1397هـ. 1977م، جدة، مطابع الروضة.

- باسلامة، حسين عبدالله

94. تاريخ عمارة المسجد الحرام، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثالثة، 1400هـ، تهامة.

95. تاريخ الكعبة المعظمة (عمارتها وكسوتها وسدانتها)، الكتاب العربي السعودي، الطبعة الثانية، 1402هـ، تهامة.

- باشا، أيوب صبري

96. مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق، أحمد فؤاد متولي والصفصافي أحمد المرسي، الطبعة الأولى، 1419هـ. 1999م، دار الآفاق العربية.

- البتنوني، محمد لبيب

97. الرحلة الحجازية، الطبعة الثالثة، مكتبة المعارف، الطائف.
. البري، عبدالله خورشيد
98. القبائل العربية في مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة، 1967م، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.
. بكر، سيد عبدالمجيد
99. الملامح الجغرافية لدروب الحجيج، الطبعة الأولى، 1401هـ . 1981م، الكتاب الجامعي، تهامة، جدة.
. أبوبكر، علي الشيخ أحمد
100. معالم الهجرتين إلى أرض الحبشة، الطبعة الأولى، 1413هـ . 1993م، مكتبة التوبة، الرياض.
. البلادي، عاتق بن غيث
101. معجم معالم الحجاز، عشرة أجزاء (يختلف تاريخ الطبعة الأولى لكل جزء، فالجزء الأول تاريخ طبعته الأولى، 1398هـ . 1978م، والعاشر تاريخ طبعته الأولى، 1404هـ . 1984م، دار مكة، مكة).
102. معجم قبائل الحجاز، الطبعة الثانية، 1403هـ . 1983م، دار مكة.
103. بين مكة وحضرموت، الطبعة الأولى، 1402هـ . 1982م، دار مكة.
104. بين مكة واليمن، الطبعة الأولى، 1404هـ . 1984م، دار مكة.
. الجاسر، حمد بن محمد (ت 1421هـ).
105. شمال غرب الجزيرة، الطبعة الثانية، 1401هـ . 1981م، دار اليمامة، الرياض.
106. بلاد ينبع، دار اليمامة، الرياض.
. جرادات، وليد محمد (الرائد).
107. الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، دار الثقافة، الدوحة.

- حسن، يوسف فضل (دكتور)
108. دراسات في تاريخ السودان، الطبعة الأولى، 1975م، دار التأليف والترجمة والنشر، جامعة الخرطوم.
109. مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي، الطبعة الثانية، 1392هـ.1972م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
- حلمي، إبراهيم
110. كسوة الكعبة المشرفة وفنون الحجاج، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم، العدد 320، شوال 1411هـ . 1991م.
- حمزة، فؤاد بن أمين بن علي
111. قلب جزيرة العرب، الطبعة الثانية، 1388هـ، مكتبة النصر الحديثة، الرياض.
- الحموي، محمد ياسين
112. تاريخ الأسطول العربي، مطبعة الترقي، دمشق.
- حميدة، عبدالرحمن (دكتور)
113. أعلام الجغرافيين العرب، الطبعة الثانية، 1400هـ.1980م، دار الفكر، دمشق.
- الخطيب، عبدالكريم محمود
114. تاريخ ينبع، الطبعة الأولى، 1405هـ . 1985م، مطابع الشرق الأوسط، الرياض.
- الراجحي، عبدالعزيز بن فيصل
115. لذة العيش في فضائل قريش، الطبعة الأولى، 1418هـ
- رفعت، إبراهيم
116. مرآة الحرمين، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
- الرويثي، محمد أحمد (دكتور)

117.الموانئ السعودية على البحر الأحمر، الطبعة الثالثة، 1418هـ. 1997م، دارة الواحة العربية.

118. التطور المكاني والتاريخي لموانئ شبه الجزيرة العربية، الطبعة الأولى، 1415هـ . 1994م، المدينة المنورة.

- الزركلي، خير الدين

119.الأعلام، الطبعة الرابعة عشرة،1999م، دار العلم للملايين، بيروت.

- أبو زيد، بكر بن عبدالله

120. خصائص جزيرة العرب، الطبعة الثانية، 1418هـ . 1997م، دار ابن الجوزي.

- السالم، السيد عبدالعزيز (دكتور)

121.البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، 1993م، مؤسسة شباب الجامعة.

- السباعي، أحمد

122.تاريخ مكة، الطبعة السادسة، 1404هـ، نادي مكة الثقافي الأدبي.

- سرور، محمد جمال الدين (دكتور)

123.النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب، دار الفكر العربي.

- السلطان، عبدالله عبدالمحسن (دكتور)

124.البحر الأحمر والصراع العربي الإسرائيلي، الطبعة الأولى، 1984م، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.

- السلمي، محمد بن صامل (دكتور)

125. (خلافة عمر بن الخطاب) في كتاب البداية والنهاية لابن كثير (ترتيب وتهذيب)، الطبعة الأولى، 1918م، دار الوطن، الرياض.

126.منهج كتابة التاريخ الإسلامي مع دراسة لتطور التدوين ومناهج المؤرخين حتى نهاية القرن الثالث الهجري، الطبعة الثانية، 1418هـ. 1998م، دار الرسالة العلمية.

. السليمان، علي بن حسين (دكتور)
127. العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، 1393هـ. 1973م، الشركة المتحدة للنشر، القاهرة.
128. النشاط التجاري أواخر العصور الوسطي، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية.
. سنوك، المستشرق: ك. سنوك هورخرونيه
129. صفحات من تاريخ مكة المركة، ترجمة علي عودة الشيخ، وآخرون، 1419هـ. 1999م، دارة الملك عبدالعزيز (بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة).
. السيد، محمود (دكتور)
130. تاريخ القبائل العربية في عصر الدولتين الأيوبية والمملوكية، 1998م، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية.
131. الشريف، أحمد إبراهيم (دكتور)
. دور الحجاز في الحياة السياسية العامة في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الفكر العربي.
. شكيب، الأمير شكيب أرسلان
132. حاضر العالم الإسلامي، المجلد الثاني، الجزء الثالث، الطبعة الرابعة، 1394هـ. 1973م، دار الفكر.
. شهاب، حسن صالح
133. فن الملاحة عند العرب، الطبعة الأولى، 1982م، الناشر مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، طبعة دار العودة، بيروت.
. الصابوني، محمد علي
134. صفوة التفاسير، الطبعة الرابعة، 1402هـ. 1981م، دار القرآن الكريم، بيروت.

.ضرار، ضرار صالح
135.هجرة القبائل العربية إلى وادي النيل (مصر والسودان)، الطبعة الأولى، 1418هـ.1997م، مكتبة التوبة، الرياض.
.ضرار، محمد صالح
136.تاريخ السودان (البحر الأحمر . إقليم البجة)، 1965م، مكتبة الحياة، بيروت.
137.تاريخ سواكن والبحر الأحمر، الطبعة الأولى، 1401هـ . 1981م، الدار السودانية للكتب، الخرطوم.
.عاشور، سعيد عبدالفتاح (دكتور)
138.الحركة الصليبية، الطبعة الثالثة، 1978م، مكتبة الأنجلو المصرية.
.عبدالباقي، محمد فؤاد
139.اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، الناشر المكتبة الإسلامية، توزيع دار الباز، مكة المكرمة.
.عبدالعليم، أنور (دكتور)
140.الملاحة وعلوم البحار عند العرب، عالم المعرفة، المحرم/صفر 1399هـ. يناير (كانون ثاني)، 1979م، الكويت.
141.ثروات من البحار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1977م.
.العلي، صالح (دكتور)
142. الحجاز في صدر الإسلام، الطبعة الأولى، 1410هـ . 1990م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
.غبّان، علي بن إبراهيم (دكتور)
143.الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، الطبعة الأولى، 1414هـ . 1993م.
.غوانمة، يوسف حسن درويش (دكتور)

144. أيلة (العقبة) والبحر الأحمر وأهميتها التاريخية والاستراتيجية، الطبعة الأولى، 1984م، دار هشام، أربد.
145. التاريخ الحضاري لشرقي الأردن في العصر المملوكي، الطبعة الثانية، 1982م، دار الفكر، عمان.
146. إمارة الكرك الأيوبية، الطبعة الثانية، 1402هـ.1982م، دار الفكر، عمان.
. غيثان، بن علي بن جريس (دكتور)
147. بحوث في التاريخ والحضارة الإسلامية، جزأين، الجزء الأول، 1413هـ. 1993م، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، والجزء الثاني، دار السماح للطباعة والنشر، الإسكندرية.
. الفقيه، حسن إبراهيم
148. مدينة السرين الأثرية، الطبعة الأولى، 1413هـ.1992م.
. فهمي، نعيم زكي (دكتور)
149. طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب، 1393هـ. 1973م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
. القثامي، حمود بن ضاوي
150. الآثار في شمال الحجاز، ج1، معجم المواضع والقبائل والحكومات، ج2، 1396هـ.1976م، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
. القحطاني، راشد سعد راشد
151. أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، 1414هـ.1994م، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
. قطب، سيد بن قطب بن إبراهيم (ت 1967م)
152. في ظلال القرآن، الطبعة العاشرة،1402هـ.1982م، دار الشروق.
. القوصي، عطية (دكتور)
153. تجارة مصر في البحر الأحمر منذ فجر الإسلام حتى سقوط الخلافة

العباسية، دار النهضة العربية.

.كحالة، عمر رضا

154.جغرافية شبة جزيرة العرب، راجعه، أحمد علي، الطبعة الثانية، 1384هـ .1964م، مكتبة النهضة الحديثة، مكة.

.لومبارد، موريس

155.الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى، ترجمة: عبدالرحمن حميدة، دار الفكر، دمشق.

.مالكي، سليمان عبدالغني (دكتور)

156.بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد، 1403هـ.1983م، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز، الرياض.

.ماهر، سعاد (دكتورة)

157. البحرية في مصر الإسلامية وآثارها الباقية، الطبعة الثانية، 1399هـ. 1979م، دار المجمع العلمي، جُدة.

.محمد، عبدالغني عبدالرحمن

158.مكة أم القرى .. لماذا؟ الطبعة الأولى، 1411هـ.1990م، دار الفكر العربي، القاهرة.

.محمود، حسن أحمد (دكتور)

159.الإسلام والثقافة العربية في أفريقيا، دار الفكر العربي، القاهرة.

.مصطفى، صالح لمعي

160.المدينة المنورة تطورها العمراني وتراثها المعماري، 1981م، دار النهضة، بيروت.

.مصيلحي، محي الدين محمد (دكتور)

161. الوجود العربي الأفريقي في جزر البحر الأحمر عبر التاريخ، 1991م، مكتبة الأنجلو المصرية.

. معلوف، لويس، وآخرون
162. المنجد في اللغة والأعلام، الطبعة الثامنة والعشرون، دار المشرق، بيروت.
. مورتيل، ريتشارد (دكتور)
163. الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، الطبعة الأولى، 1405هـ.1985م، عمادة شؤون المكتبات. جامعة الملك سعود، الرياض.
164. موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء المسلمين، حققها وراجعها مجموعة من العلماء، مكتبة المعارف ، بيروت، الناشر، دار ومطابع المستقبل، القاهرة، مطابع روز اليوسف.
. ناود، محمد سعيد
165. العروبة والإسلام بالقرن الإفريقي.
. نخبة من المتخصصين بجامعة الإسكندرية
166. تاريخ البحرية المصرية، 1973م، جامعة الإسكندرية، جمهورية مصر العربية.
. النخيلي، درويش
167. السُفن الإسلامية على حروف المعجم، 1974م، جامعة الإسكندرية.
. نواب، عواطف محمد يوسف
168. الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، 1417هـ. 1996م، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
. اليوزبكي، توفيق
169. تاريخ تجارة مصر البحرية في العصر المملوكي، 1395هـ. 1975م، جامعة الموصل، مؤسسة دار الكتب.
. اليوسف، محمد الطيب محمد بن يوسف
170. إثيوبيا والعروبة والإسلام عبر التاريخ، الطبعة الأولى، 1416هـ. 1996م، المكتبة المكية، مكة.

ثالثاً : الرسائل العلمية التي لم تُطبع :

.بكري، محمد طه صلاح
171. الحجاز (859.923هـ)، رسالة ماجستير، 1410هـ.1990م، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، مكة.
.جلال، آمنة حسين
172. طرق الحج ومرافقه في الحجاز في العصر المملوكي، رسالة دكتوراه، 1407هـ، كلية الشريعة، جامعة أم القرى، مكة
.حاج، ربيع محمد القمر
173. انتشار الإسلام في بلاد البجة، رسالة دكتوراة، 1418هـ، قسم التاريخ، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.
.راجح، حمدي محمد
174. المحاولة الصليبية لغزو الحجاز، رسالة ماجستير، 1405هـ . 1985م، قسم التاريخ، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة.
.الزهراني، عائض محمد عائض
175. الحجاز في عهد الشريف حسن بن عجلان، رسالة ماجستير، 1412هـ، قسم التاريخ، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة.
.آل سويلم، ابتسام بنت عبدالمحسن
176. الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الحجاز من قيام الدولة العباسية حتى منتصف القرن الرابع الهجري، رسالة ماجستير، 1404هـ . 1984م، قسم التاريخ، جامعة الملك سعود، الرياض.
.الشرع، رائد رزق محمد
177. مدينة أيلة وتخطيطاتها في الفترة الإسلامية المبكرة «دراسة معمارية مقارنة»، رسالة ماجستير، 1414هـ . 1994م، جامعة اليرموك، الأردن.
.العبيدي، عبدالعزيز بن راشد

178. التجارة والملاحة في البحر الأحمر في عصر المماليك، رسالة ماجستير، 1400هـ. 1980م، جامعة الإمام محمد بن سعود، الرياض.

رابعاً : الدوريات والندوات:

. إبراهيم، أحمد
179. المناخ، (جدة عروس البحر الأحمر تقدم وحضارة)، إصدار أمانة مدينة جُدة، الدار العربية للموسوعات، القاهرة، ص67.
. الأنصاري، عبدالقدوس
180. رحلة إلى الجار، مجلة المنهل، جمادي الأولى، 1391هـ. 1971م، السنة السابعة والثلاثون، الجزء الخامس، ص495.448.
. باز، عبدالكريم علي
181. المحمل اليمني في عهد بني رسول، مجلة العصور، المجلد السابع، الجزء الأول، 1992م، ص11.
. برج، محمد عبدالرحمن (دكتور)
182. البحر الأحمر عبر التاريخ، ندوة البحر الأحمر (المملكة العربية السعودية، وزارة الخارجية، معهد الدراسات الدبلوماسية، (عُقدت في الفترة من 1405/8/14هـ إلى 1405/8/17هـ، الموافق 1985/5/4م إلى 1985/5/7م، وطبع الكتاب في ربيع الأول 1406هـ)، ص3221.
. البكر، راشد
183. حجم التبادل التجاري بين المملكة ودول البحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، ص8260.
. تشونغ، علي لي تشين
184. آثار العرب ومآثرهم في الصين عبر التاريخ، المجلة العربية للثقافة، السنة التاسعة عشرة. العدد الثامن والثلاثون. ذوالحجة، 1420هـ، مارس (آذار)

2000م، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ص152.

. حسن، يوسف فضل (دكتور)

185. الصراع حول البحر الأحمر منذ أقدم العصور حتى القرن الثامن عشر، مجلة دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، العدد الثالث، السنة الثامنة، ربيع ثاني، جمادي الأولى والآخرة، 1403هـ. 1983م، ص110.

. الحضراوي، أحمد بن محمد بن أحمد: (ت 1327هـ)

186. الجواهر المعدة في فضائل جدة، مجلة العرب، ج5و6 س13 (ذو القعدة والحجة 1398هـ)، ص404، ج7و8 س13 (محرم وصفر 1399هـ)، ص543، ج9و10 س13 (الربيعان 1399هـ)، ص671، ج11و12، س13 (جماديان 1399هـ)، ص121.

. حور، محمد

187. العرب والصين تاريخ وفن وروابط، المجلة العربية للثقافة، السنة التاسعة عشرة، العدد الثامن والثلاثون، ذوالحجة، 1420هـ، المنظمة والثقافة والعلوم، ص97.

. ربيع، حسنين (دكتور)

188. البحر الأحمر في العصر الأيوبي، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، (سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث، جامعة عين شمس، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث، 10 . 15 مارس 1979م، إشراف الاستاذ الدكتور أحمد عزت عبدالكريم، القاهرة، 1980م)، ص105.104.

. الزهراني، ضيف الله بن يحي (دكتور)

189. الجار ميناء ومدينة، دورية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ. 1993م، ص251.

. الزيلعي، أحمد بن عمر (دكتور)

190. ميناء السرين (بحث منشور) في مجلة (اتحاد المؤرخين العرب)، القاهرة،

1414هـ.1994م، (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، ص176.
191.أضواء جديدة على الأسرة الموسوية من خلال ثلاثة نقوش كوفية من موقع السرين الأثري، مجلة العصور، المجلد السادس، ج1، 1991، ص189.169.
192. حاكم السرين (راجح بن قتادة) ودوره في العلاقات المصرية واليمنية في مكة، مجلة العصور، المجلد الأول، الجزء الأول، 1986م، ص24.21.
.زيمين، الرئيس جيانج رئيس جمهورية الصين الشعبية
193. (العلاقات السعودية الصينية، والعلاقات الصينية العربية) من كلمة الرئيس الصيني في مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض، جريدة الرياض، العدد (114544)، الأربعاء 25 رجب 1420هـ.3 نوفمبر 1999م.
.سيد، عبدالمنعم عبدالحليم (دكتور)
194.الأصول المصرية القديمة للسفن الإسلامية في البحر الأحمر، دورية اتحاد المؤرخين العرب، (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ. 1993م، ص69.
.الشامي، أحمد عبدالحميد (دكتور)
195.العرب وصناعة السفن، دورية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ.1993م، ص136.
196.العلاقات التجارية بين إقليم الخليج العرب والسواحل الغربية للهند في العصور الوسطى، دورية اتحاد المؤرخين العرب، (إقليم الخليج على مر العصور)، القاهرة، 1417هـ. 1996م، ص107.
.الشريف، أحمد إبراهيم
197. الحجاز قبيل ظهور الإسلام، دراسات تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين)، الجزء الأول، 1410هـ. 1989م، جامعة الملك سعود، الرياض، ص19.
.صالح، محمد أمين

198.تجارة البحر الأحمر في عصر المماليك الجراكسة، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة، ص159.179.
.صواف، فائق بكر صواف، ومصطفى محمد رمضان
199. أهمية ثغر جُدة في النصف الأول من القرن العاشر الهجري، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة السادسة، ربيع الأول، 1401هـ. يناير 1981م، الرياض، ص200.
.الطيب، عبدالله (دكتور)
200. هجرة الحبشة وما وراءها من نبأ، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الثالث (الجزيرة العربية في عصر الرسول والخلفاء الراشدين)، الجزء الأول، 1410هـ . 1989م، جامعة الملك سعود، الرياض، ص95.
.عامر، حمزة إبراهيم
201. موقع مدينة جدة وطبيعية أرضها، (جدة عروس البحر الأحمر تقدم وحضارة) إصدار أمانة مدينة جدة، الدار العربية للموسوعات، القاهرة، ص65.
.عبدالقادر، عبدالشافي غنيم (دكتور)
202.البحر الأحمر طريقاً للدعوة الإسلامية، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة، ص92.71.
.عبدالله، علي رضا
203.جدة على لسان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، (لا تكذب عليه متعمدا صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، جريدة المدينة، عدد رقم (13064)، تاريخ 1419/10/8هـ.
.العرفج، ناصر عبدالعزيز (دكتور)
204.أهمية الممرات المائية في البحر الأحمر، ندوة البحر الأحمر، ص58.33.
.عنقاوي، عبدالله عقيل

205. المحمل. نشأته وآراء المؤرخين فيه، مجلة كلية الآداب، جامعة الرياض، المجلد الثاني، السنة الثانية، 13921391هـ/19721971م، ص324.

. غبان، علي بن إبراهيم (دكتور)

206. مراكز الاستيطان بشمال الحجاز، الدارة، العدد الثاني، السنة العشرون، محرم وصفر وربيع أول، 1415هـ، ص71.

. غيثان، بن علي بن جريس (دكتور)

207. البحر في كتب التراث الإسلامي، دورية اتحاد المؤرخين العرب (الحضارة الإسلامية وعالم البحار)، 1414هـ. 1993م، ص94.

. الفاخري، سوسن

208. «أيلة»، مجلة آثار الأردنية، العدد الثاني، أيلول 1998م، عمان، الأردن، ص54.

. قناوي، محمد

209. «المدينة في رحاب الآثار النبوية بالمسجد الحسيني»، جريدة المدينة، العدد (13083)، السبت 1419/10/27هـ والعدد (13086)، الثلاثاء 1419/10/30هـ.

. كاشف، سيدة إسماعيل

210. البحر الأحمر والفتح العربي لمصر، البحر الأحمر في التاريخ والسياسة، ص104.93.

. كريم، عبدالكريم (دكتور)

211. بلاد الحجاز في المخطوطات المغربية المدونة خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للهجرة، مجلة التاريخ العربي، الصادرة عن جمعية المؤرخين المغاربة، العدد الخامس، شتاء 1418هـ. 1998م، ص105.

. مدني، محمد عمر (دكتور)

212. البحر الأحمر واتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار، ندوة البحر الأحمر، ص186.161.

خامساً : الخرائط

1. خريطة جزيرة العرب، 1: 2.000.000، وزارة البترول والثروة المعدنية، المساحة الجوية، الرياض، طبعة عام 1403هـ. 1983م، المملكة العربية السعودية.
2. خارطة طرق المواصلات، 1: 3.000.000، وزارة المواصلات، طبعت بإدارة المساحة العسكرية بوزارة الدفاع، الطبعة الأولى، عام 1414هـ، المملكة العربية السعودية.
3. خارطة تخطيطية، 1: 500.000، لوحة رقم NF 37-SE، طبعت عام 1411هـ (مكة المكرمة)، وزارة البترول والثروة المعدنية. الرياض.
4. خارطة تخطيطية (ينبع)، 1: 500.000، لوحة رقم NG 37-SW، طبعت عام، 1404هـ، وزارة البترول والثروة المعدنية. الرياض.
5. لوحة الحجاز الشمالي الغربي، أبحاث جيولوجية، خريطة رقم ج م. 204ب (GM-204B)، وزارة البترول والثروة المعدنية، الرياض.
6. لوحة الحجاز الجنوبي، أبحاث جيولوجية، خريطة رقم I-C10B، وزارة البترول والثروة المعدنية، الرياض.
7. خريطة المملكة العربية السعودية، 1: 4.000.000، وزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية.
8. خريطة جمهورية مصر العربية، 1: 2.000.000، الهيئة العامة للمساحة المصرية.

. خرائط زكي فارسي، المملكة العربية السعودية، دليل الطرق السياحية، الطبعة الأولى، 1415هـ. 1995م.

9. خريطة ينبع، رقم ب 12.
10. خريطة جدة، رقم ب 14.
11. خريطة الشعيبة، رقم ب 18.

12. خريطة خليج العقبة، رقم ب 1.

13. خريطة من ينبع إلى ضبا، رقم 22.

فهرس الأعلام

فهرس المواضع والأماكن والبقاع

المحتويات